

رواية
ميشتهيلد جليزر
عيد مبارك
القفز في الكتب
ترجمة: سندس جمال الحسيني
١٢٣٩
مكتبة
صفحة
٧

Die Buchspringer

Mechthild Gläserch

كل عام وأنت بخير

رسالة ا تموز..

تشعرني أن ميلادك ومكتبة

كانا أجمل ما حدث .. هذا لك

القفز في الكتب



ميشتهيلد جليزر

ترجمة: سندس جمال الحسيني





الكتاب

القفز في الكتب

المؤلف

ميشتهيلد جليزر

الطبعة الأولى: 2021

الترقيم الدولي

978-603-91498-4-2

رقم الإيداع

1442/1867



dlach

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

القفز في الكتب



توطئة

ركض ويل، ركض كثيرًا، ركض بلا هوادة.

بدت له الجزيرة أكبر من المعتاد. آلَمَه صدره؛ إذ كان يركض منذ مدة لا يمكن عدّها قصيرة في أيّ حال من الأحوال. عَبر المستنقع وجاب كل امتدادات السهل، حتى وصل إلى الشاطئ بمحاذاة المقابر، وبلغ منزل لينوكس، ومنه إلى القرية، ثم الدائرة الحجرية، مرورًا بالمكتبة، وأخيرًا وصل إلى كوخه، حتى ظهر في الأفق الضباب الذي يحيط بقلعة ماكاليستر.

وفي النهاية لا شيء!

كان الكلب يركض معه أيضًا. يكاد يترك أذنيه السوداوين خلفه وهو يواجه الريح. أقدامه خلّفت آثارًا واضحة في المستنقع. ولكن لماذا توقفت هذه الآثار رغم أن الكلب لم يتوقف؟ لماذا لم يتمكنوا من العثور عليه؟ لم يكن ليترك كلبه مطلقًا، لابد أن يكون في مكان ما. ماذا قال إذًا قبل أن يخرج؟ كان يرغب فقط في التنزُّه قليلًا ليس أكثر، أليس كذلك؟

واصلا الركض، عبْر الأزِقَّة الضيقة حتى المنحدرات، الكلب

يتقدمه، ويلحق به ويل. لم يعترضهما أحد إلى الآن، وهذا بديهي في مثل هذا الطقس. هبَّت عاصفة تَبِعَتْها الأمطار، توقفا في مكانهما وكأنها نهاية العالم. بالطبع ليست نهاية العالم، إنها فقط نهاية هذه الجزيرة. العالم يمضي قُدمًا إلى ما وراء الهضبة ومياهِ الأمطار التي غمرت الأفق الممتدّ إلى مكان ما يقع خلف الجُزر الأخرى، هل كانت نهايته هناك؟ فيما وراء الأفق؟

تطلَّعا لبرهة من الزمن نحو البحر، بيدٍ واحدة ربّت ويل على رأس الكلب من خلف أذنه، بينما جعل من يده الأخرى مظلة لعينيه تمنحه رؤية أفضل، ولكن بلا جدوى!

فقد ظل شيرلوك هولمز مختفيًا!



استغرق الوحش في النوم، نومًا استمر لأعوامٍ وأعوام، أعوام طويلة حقًّا.

بعمق شديد، في أعماق كهفه، حيث ساد الظلام الدامس.

مرَّ عليه الوقت ثقيلا للغاية، مديدًا بلا نهاية.

وقد رأى الوحش في منامه كيف ستكون لحظة استيقاظه، رأى إحدى ممكناتها.

لقد نام وقتًا طويلًا بالفعل، حتى لم يعد يعلم أحدٌ بوجوده. في البداية تذكر شعب المملكة أمرًا غامضًا يقبع في الذاكرة عن كائن رهيب، ولكن مع مرور الزمن تلاشت حتى تلك الذكرى وتحولت إلى بقعة مظلمة. ولكن الآن، حين سيطر النسيان تمامًا على الناس، أتت أخيرًا اللحظة المناسبة، تلك اللحظة التي فتح فيها الوحش عينيه مرة أخرى.


MOHAMED KHATAB

(1)

في سالف العصر والزمان

كان هنالك جزيرة



في يومٍ ما ألقينا أنا وأليكسيس ثيابنا في الحقيبة، سترات وسراويل وجوارب، أخذتها من خزانة ملابسي وألقيت بها خلفي في الحقيبة ذات العجلات دون أن ألتفت. كذلك فعلتْ أليكسيس في الغرفة المجاورة. لم يتنبه أيٌّ منَّا إلى الخطوة القادمة التي سنقوم بها، وإذا ما كنَّا قد أخذنا معنا ملابسنا المفضلة أم لا، فقد كانت المسألة الأهمّ بالنسبة إلينا هو أن نُسرع فيما نقوم به؛ لأننا لو كنَّا قد رتَّبنا ملابسنا بتروٍّ وهدوء مع كتابة قائمة بما نرغب في أخذه – كما نفعل عادةً في الواقع – لكنا قد لاحظنا مدى الجنون الذي ألمَّ بنا.

- كان جميع أفراد عائلتي مخابيل.

كانت أليكسيس تقول لي ذلك دائمًا، عندما أطرح عليها سؤالي المعتاد عن سبب مغادرتها لموطنها في إسكتلندا في عمر السابعة عشرة حاملةً حقيبتها الوحيدة وحاملًا بي في رحمها. هكذا أتت منذ زمن إلى ألمانيا، حاملًا وقاصرًا لم تبلغ سن الرشد القانونية بعد، حاملةً رأسها فوق كتفيها وذاهبة إلى بوخوم. والآن، في هذا الوقت، كان عمري

أيضًا سبعة عشر عامًا – نعم، رغم أن هناك أربعة عشر شهرًا مفقودة– ومن الواضح أنني قد ورثت بالفعلِ جينات الجنون. أنا أيضًا قررت اليوم فجأة وعلى نحو عفوي مغادرة البلاد عقب تناولي وجبة الإفطار التي كانت منذ ساعة من الآن. حجزنا عن طريق الإنترنت رحلة طيران مخفَّضة ستطير بنا بعيدًا بعد ظهر اليوم. احتجنا فقط لحزم أمتعتنا سريعًا، وعلى عجل ألقيت بزوج من الملابس الداخلية وحمّالات الصدر من الخزانة إلى حقيبة السفر.

قالت أليكسيس وهي تحاول حشر وسادتي في الحقيبة الممتلئة بالفعل:

–خُذي معكِ معطفًا يا آيمي.

لاحظت سروالها القصير المصنوع من الصوف الطبيعي يقبع أسفل الحقيبة، وقميصًا من ماركة دافندا مطبوعةً عليه رسوم لتفاح ملون.

أجبتها: لا أعتقد أنني سأحتاج معطفًا سميكًا في شهر يوليو.

الحقيقة، حقيبتي أيضا كانت مليئة، لكن بالكتب أكثر من كل شيء. بالنسبة إلى الملابس فقد اكتفيت بما هو ضروري فقط، متخذة الشعار التقليدي القائل: التخلص من قطعة ملابس زائدة في الحقيبة، أفضل من التخلص من كتبي المفضلة.

قالت أليكسيس وهي تتطلّع إلى أمتعتي وتهزّ تموّجات شعرها الأحمر:

–أنتِ تستبعدين احتمال تقلُّب الطقس هناك.

كانت عيناها شديدتا الحمرة من فرط البكاء طوال الليلة السابقة،

وأضافت:

- ألم يكن كافيًا أن تصطحبي جهازك اللوحي لقراءة الكتب؟

- لكنّي لا أملك نسخة إلكترونية من رواية مومو ورواية كبرياء والتحامل.

- لقد قرأتِ الروايتين بالكامل أكثر من مئة مرة!

- ماذا لو أحببتُ قراءتها هناك للمرة المئة وواحد؟

- صدقيني يا آيمي، لديهم ما يكفي من الكتب هناك على تلك الجزيرة اللعينة.

- أنتِ لا تعرفين ذلك.

ركضتُ بأناملي وكأنها حيوان صغير على غلاف رواية مومو، كثيرًا ما تمنيت أن أركض خلف سلحفاة مسحورة لتُظهِر لي طريق حياتي. كنت أحتاج إلى هذا الكتاب حينما كنت حزينة، وأحتاجه الآن بشدة.

تنهّدت أليكسيس وهي تقول:

-ولكن احرصي على دسِّ المعطف بأي شكل داخل الحقيبة، اتفقنا؟ قد يكون الطقس صعبًا هناك.

ثم جلست على الحقيبة وهي تُغلق السحَّاب وأضافت:

-أخشى أن تكون الفكرة برُمَّتها حمقاء.

تأوّهت وهي تستطرد:

-هل أنتِ واثقة أنه المكان الوحيد الذي يُمكنكِ إلهاء نفسكِ فيه؟

أومأتُ لها صامتة بالموافقة.

اهتز القارب الصغير مع الأمواج، وراح يتمايل يمينًا ويسارًا وكأنه كرة تتقاذفها المياه. أومض البرق في السماء، فتجمدت السحب العاصفة المظلمة، وغمرت البحر بلون رمادي غائم، يمتزج بوميض البرق المشتعل، فتغير لون الماء وأصبح حادًّا، وتساقط المطر، مطر بقطرات رمادية ثقيلة ومدببة، تسقط على الأمواج وتختلط أسِنَّتها المدببة بمياه البحر.

جنبًا إلى جنب مع المنحدرات التي تراكمت في الأفق، ومنحدرات المياه التي يخترقها البرق، نتج مشهد طبيعي مثير للإعجاب، مشهد مخيف قابض للنفس وجميل في الوقت نفسه. لكنّ وجودي في ذلك القارب الصغير حقًّا لا مجازًا، وسط العاصفة، قد حدّ من جمال ما أراه، إذ كنت مضطرّة إلى التمسّك بمقعدي بكل قوتي كي لا أسقط في البحر الذي يرش رذاذا من المياه على وجوهنا. حاولت أليكسيس إنقاذ أمتعتنا بينما كان الرجل المُكلّف بنقلنا إلى الجهة الأخرى يحاول جعل المحرّك يعمل.

كانت أمطارا مفاجئة. وفي غضون ثوانٍ جعلتني مبتلة بالكامل. بينما تملّك البرد جسدي كانت فكرة الدفء تسيطر على عقلي. لذلك لم أكن أرغب في غير الوصول. بغض النظر عن المكان، كان كل ما يهمّني هو أن أكون دافئة وجافة. في رحلتنا من دورتموند إلى إدنبرة، كانت الشمس لا تزال مشرقة وواضحة، بالرغم من أنه كانت هناك بعض الغيوم التي تم اكتشافها عندما أخذتنا الطائرة المروحية إلى مطار سومبورغ ومن ثمّ إلى البر الرئيس، للاتجاه نحو أكبر جزيرة في شتلاند قبالة الساحل الإسكتلندي، لكنني في الواقع لم أتوقع حقًّا سيناريو يوم

القيامة هذا.

حاولت أن أتجنب المياه المالحة المحرقة التي كانت في عيني، بينما دفعت موجة أخرى زورقنا في اتجاه ما. كادت تحمل حقيبة كتف أليكسيس معها. لقد أصبح من الصعب الاستمرار في التمسّك، كما كانت الرياحُ شديدةُ البرودة قد خدرت أصابعي منذ فترة طويلة، حتى إنها لم تعُد تستجيب لأوامري في التحرك إلا بصعوبة بالغة. لو كنت قرأت عن عاصفة مثل هذه في كتاب، لكان الأمر أكثر متعة، حتى لو أصابني الخوف من الوصف وتسلل الرعب إلى نفسي متخيّلة أنني عانيت من أسوأ كارثة، فإنّ القراءة ستخلق فيّ شعورا بأن هنالك بطانية صوفية دافئة على الأريكة في مكان ما. أمّا الآن، فلا أثر لذلك الدفء. وأدركت أنني لا أحب العواصف الحقيقية، على عكس العواصف المتخيَّلة.

كانت الموجة التالية أسوأ من الموجة السابقة وغمرتني بالكامل. التلهّف لأخذ نفَسٍ في تلك اللحظة لم يكن فكرة صائبة، لأنني كما اختنقت بكمية كبيرة من الماء. وبين محاولة التنفّس والسعال لتخلّص رئتيّ من مياه البحر التي تسللت إليهما، كانت أليكسيس تضرب على ظهري لتساعدني على التنفس. ذهبت حقيبتها في البحر الآن، اللعنة! ولكن يبدو أن نية أليكسيس كانت التخلص من جميع ممتلكاتنا على أي حال، ولم تلتفت حتى لتنظر إلى أشيائنا الهاربة في مياه البحر.

صاحت قائلة:

-اقتربنا من الوصول يا آيمي، قريبًا سنكون هناك.

حملت الريح كلماتها بعيدًا بمجرد أن خرجت من بين شفتيها، واستطردت:

-تذكري، نحن هنا طواعية، سنقضّي عطلة رائعة في سترومساي.

بينما كان من المفترض أن يكون صوتها سعيدًا، إلا أنه كان يتأرجح بين حالة من الذعر المكبوت وبين اليأس.

أجبتها قائلة:

-نحن هنا لأننا في حالة هروب ليس إلا.

ولكن تفوّهت بجملتي بهدوء شديد لا تستطيع أليكسيس سماعه، لم أكن أريد أن أذكّرها أو أذكر الأسباب الحقيقية لرحلتنا. لقد هربنا أخيرًا من المنزل لننسى، من أجل أن ننسى أن دومينيك قد ترك أليكسيس وعاد إلى زوجته وأطفاله. هكذا، فجأة وبلا مقدمات. ولكي ننسى أن هؤلاء الحمقى الحقيرون زملائي في الصف قد... لا، لقد وعدت نفسي ألا أفكّر في الأمر بعد الآن.

تعطّل محرّك القارب، واشتدّ المطر، فجربت أن أطرق على رأسي وكتفي، وجلد وجهي. حسنًا، لم أستطع الحصول على أي جلد ليّن، كنت قد قاربت على التجمد. ومع ذلك، كنت سعيدةً عندما بدت الجزيرة من بعيد وهي تقترب بالفعل؛ سترومساي، حيث وُلد أجدادي. من خلال ستارة من الشعر المبلل، أطلعت على القارب وتمنيت أن يكون ربّانه عارفا بما عليه فعله وأن يُشغل المحرك حتى لا نتحطّم على المنحدرات الصخرية.

بدا وجه الصخرة ضخمًا للغاية، وحادًّا وقاتلًا. صعدتْ عشرين أو

ثلاثين مترًا فوق الأمواج الرمادية الصخرية وفي أعلى الحافة حيث كانت الرياح شديدة الخطورة هناك...

وقف شخص ما.

في البداية اعتقدت أنها شجرة، ولكن بعد ذلك أدركت أن هناك إنسانًا حقًّا.

كان رجلًا يميل ضد العاصفة وينظر إلى البحر.

كان إنسانًا ذا شعر قصير ومعطف يرفرف مع الريح.. كان يبدو مهيبًا، وهو يضع إحدى يديه على عينيه، بينما استقرت اليد الأخرى على رأس كلب أسود عملاق.

التفتُّ إلى الخلف مرتجفةً عندما استدار القارب. تركنا المنحدرات وجاهدنا في طريقنا نحو شاطئ الجزيرة الشرقي. أصبح الشخص أبعد وأصغر حتى اختفى أخيرًا من مجال رؤيتي.

ثم وصلنا في تلك اللحظة إلى رصيف، غُمِر نصفه بالمياه ومال إلى أسفل على نحوٍ خطير، لكنَّ ربّاننا تمكّن من ربط القارب إلى ذلك الرصيف في بضع خطوات بسيطة، ثم هبطنا إلى البرّ أخيرًا.

كان القارب زلِقًا للغاية، وكان المطر لا يزال غزيرًا، لكننا وصلنا إلى هدفنا وهذا هو المهم؛ سترومساي، كم تحوي هذه الكلمة من أسرار! بدت واعدة ومخيفة بعض الشيء في الوقت نفسه حين تلفَّظتُ بها. لم تطأ قدمي هذه البقعة من الأرض من قبل، حتى إن أليكسيس لم تذكر لي الجزيرة لفترة طويلة، فقط حين لاحظت في المدرسة الابتدائية أن جميع الأطفال لم يتعلموا اللغة الألمانية والإنجليزية من آبائهم، وأن

اسمي كان مختلفًا إلى حد ما عنهم جميعًا، آيمي لينوكس. وحتى ذلك الحين، لم تبح لي أليكسيس سوى بكوننا جئنا من إسكتلندا، وكان اعترافا متردّدا. في ذلك الوقت، عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، أقسمت ألا تعود أبدًا، لكن الآن...

مشينا على طول شارع موحل حيث غرقت عجلات حقائبنا، كانت هناك منازل صغيرة معزولة إلى اليمين وإلى اليسار، وحفنة من الأكواخ ذات الأسقف المائلة، والجدران المبنية من الطوب، والنوافذ الزجاجية المقبَّبة التي يتلألأ خلفها الضوء الأصفر هنا وهناك. تساءلت: في أي بيت منهم تعيش جدتي؟ وفي الوقت نفسه تمنيت أن تكون البيوت من الداخل أكثر مقاومة للطقس مما تبدو عليه من الخارج.

الرجل الذي أتى بنا إلى هنا تمتم بشيء عن الحانة والبيرة واختفى خلف باب ما. من ناحية أخرى، اجتازت أليكسيس المسالك الضيقة بين المنازل دون عائق، بدت عازمة بشدة على إعادة ظهرها إلى هذه البقايا البائسة للحضارة، حتى إنني قد واجهت صعوبة في متابعتها. مرة أخرى غرقت حقيبتي في حفرة طينية فسحبت المقبض بكل قوتي لتحريرها.

تمتمتُ متسائلة: لكن من المؤكّد أنّ والدتك تعيش في إحدى هذه المبنَى، منزل مستقل على سبيل المثال، أليس كذلك؟

ولكنني لم أبُح بما يجول في خاطري من تساؤل عن وَصْم جدتي بالجنون، أي شيء مجنون فيها؟ هل وَصْفها بالجنون يعني أنها تأكل

أوراق الشجر وترتدي ملابس من الصنوبر وتعيش مع حيوانات الغابة في الهواء الطلق؟

بدلًا من أن تعطيني الإجابة، اكتفت أليكسيس بالتلويح بيدها وهي أمامي في الظلام مشيرة لي بأن أتبعها. في تلك اللحظة انزلقت الحقيبة من يدي التي ارتعشت رعشة لم أتوقعها، فوقعت في طين مُشبَّع بماء قفز إلى وجنتيّ، وكأني لم يكن ينقصني غيره!

بينما بدت أليكسيس مذهلة بشعرها المبلل (كما لو أنها قد خرجت للتو من إعلان إشهاري للشامبو)، كنت أنا أرى نفسي فأرا مبلّلاً وغارقا في المياه. غرقت في أفكاري وتخيّلاتي دون التوقف عن السير.

أصبح الطريق ترابيًّا ممّا زاد من الأوحال، والأضواء قد ظلّت خلفنا. في هذه الأثناء، لم يبقَ من القرية الصغيرة أي شيء يمكن رؤيته، فقط الريح الجليدية وقد هبّت بقوة من جانبنا وعبرت نسيج سترتي الصوفية الرطبة. صفعت قطرات المياه وجهي وأنا أتبع أليكسيس، رائع جدًا! وهكذا واصلنا المسير فقلت لها:

-كان هناك شخص يقف على المنحدرات، هل رأيتِهِ أنتِ أيضًا؟

كنت أتحدث محاولة أن أشتِّت نفسي وعقلي عن الشعور بالتجمد حتى الموت في أي لحظة.

غمغمت أليكسيس بصوت هادئ ومنخفض حتى إنني بالكاد استطعت فهمها:

-على مقعد شكسبير؟ في مثل هذا الطقس؟ لو كان هناك شخص بالفعل سأندهش بشدة.

ثم أضافت:

-انتظري، سآخذ حقيبتك منكِ.

عرضت عليَّ وهي تمدّ يدها من أعلى التل الذي تسلقَتْه للتوِّ.

رفعتُ الحقيبة تجاهها، ثم تسلقتُ التل مثلها، وعندما وصلت إلى القمة، أدركت أننا وصلنا إلى نوع من الهضاب المرتفعة. في الأفق يمكن رؤية أضواء جديدة وأبراج من قلعة تلوح في سماء الليل، كما أن ضوءا واضحا كان يلمع في مكان قريب، على الأقل خلف عدد قليل من النوافذ من منزل ما ضخم على يميننا. الطريق مفترِق هنا ويمكن الذهاب في أكثر من اتجاه، مباشرة إلى الأمام ذهبت إلى السهل.

لكن أليكسيس كانت في الواقع قد استدارت يمينًا وسارت باتجاه بوّابة حديدية موجودة بين حائطين، وقد جعلتني أتخيل شيئًا ما يقبع خلفها مثل حديقة أو مسلك من الحصى مع نافورة في المنتصف. في الأفلام، على الأقل، كان هناك دائمًا مسارات حصوية بين الشجيرات المقطوعة هندسيًّا والتماثيل والورود المتسلقة وأيضًا السيارات القديمة المكشوفة. بعد كل شيء، كنت بحاجة إلى خلفية مثيرة للإعجاب تصبح صورة يمكن أن يتبادلها العشاق بين بعضهم البعض أو يمكن وقوع جريمة قتل فيها من فرط الهدوء... على أي حال، بدا المنزل خلف البوّابة رائعًا من بعيد، وبدت أعداد لا حصر لها من الجدران القديمة، وارتفعت الأبراج الصغيرة والمداخن من جميع الأشكال إلى السماء، ومن ورائها السحب الكثيفة. ظهرت ستائر ثقيلة خلف النوافذ، دون أن تمنع وميض ضوء الشموع من يُرى.

عاد المطر مرة أخرى على نحو أشدّ، حتى إنه قد صنع حجابًا كما لو أنه أراد إخفاء القصر عنًا في اللحظة الأخيرة، لكن فات الأوان على ذلك، لقد دخلنا الجزيرة، ولم يكن هناك عودة.

وضعت أليكسيس أطراف أصابعها على مقبض البوّابة المزخرف وأخذت شهيقًا عميقًا قائلة والبوّابة تنفتح في النهاية:

-جميع العائلات السعيدة على حد السواء، تبدو متشابهة جدًّا في سعادتها؛ لكنْ لكل عائلة غير سعيدة قصة مختلفة كانت السبب الخاص في عدم سعادتها.

طرحتُ عليها سؤالًا قائلة:

-ولكن لماذا هذا الفرق؟

تنهّدت وهي تتمتم: أوه، هذه مجرّد بداية لرواية قرأتها هنا عدّة مرّات لا أكثر.

فقلت:

-هكذا إذًا، فهمت.

على الرغم من أن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد كانت أسناني تصطك بصوت عالٍ حتى إنني لا أكاد أفهم أيّ فكرة بوضوح مهما كانت بسيطة.

قمنا بسحب أمتعتنا وجرّها عبر حديقة صغيرة فيها مسالك من حصى، بين الشجيرات المقلّمة هندسيًّا، بجوار نافورة والعديد من الورود المتسلقة، حتى صعدنا دَرجًا رخاميًّا. السيارة الكلاسيكية

القابلة للتحويل التي تخيلتها كانت هي المفقودة فقط. دون مزيد من اللغط فيما بيننا، ضغطت أليكسيس على زرّ الجرس.

كان مسموعًا من الداخل.

ومع ذلك، استغرق فتح باب البلوط بعض الوقت حتى ظهر لنا أنف ضخم مجعّد. ذلك الأنف كان لرجل عجوز يرتدي حُلّة بقي يراقبنا من خلال نظّارته ويتأمل وجوهنا.

- مساء الخير سيّد ستيفنز، إنها أنا أليكسيس.

أومأ السيد ستيفنز بإيجاز قائلًا:

-بالطبع يا سيدتي لقد عرفتُكِ فورًا.

قال ذلك وهو يتنحّى جانبًا ثم أضاف:

-هل أخبرتِنا بقدومكِ وكان علينا توقُّع استقبالك؟

أجابت أليكسيس:

-لا مُطلقًا لقد أتيت فجأة، أودّ أن أتحدث إلى أمي.

أومأ السيّد ستيفنز برأسه مرة أخرى وساعدها على سحب حقيبتها المحطمة من فوق عتبة الباب. عندما حاول الوصول إلى حقيبتي بأصابعه المرتعشة بحكم التقدم في العمر، منعتُه بسرعة. لقد وصلت بتلك الحقيبة بنجاح حتى الآن؛ ممّا يعني أنني لن أزعج رجلًا عجوزًا يظل هو بالتأكيد أوهن مني! ومع ذلك، نظر السيد ستيفنز إليّ بصرامة شديدة لم أكن أتخيلها إلى درجة أنني أعطيته يد الحقيبة أخيرًا، وبدلًا من جرِّها بنفسي دفنت يدي في جيوب سترتي. وحقًّا، لم يمثّل وزن

أمتعتنا مشكلة بالنسبة إليه على الإطلاق.

قلت وأنا سعيدة لأننا تمكّنّا أخيرًا من الهروب من المطر:

-يا للروعة!

كانت قاعة مدخل القصر أكبر بكثير من شقّتنا بالكامل، أي شخص يدلف إلى الشقة التي نسكن فيها، سيجد رواقًا مثل الأنبوب الداكن الصغير المطلي بطلاء مقشر بعض الشيء، فيبدو من تحته ورق حائط قديم مرسوم عليه زهور وأوز. حاولت أليكسيس جعله أكثر راحة بقليل من الستائر مع بعض الزرع وشجرة نخيل، ولكنّ سحر ارتفاع السقف كان ثابتًا. بعده ستجد غرفة المعيشة، وهي نفسها غرفة نوم أليكسيس، ومطبخًا ببلاط من السبعينات، وحمّامًا، وغرفتي حيث كانت السجادة تصنع موجات على مر السنين. كانت الشقة تبدو وكأنها صناديق من الورق المقوّى، صناديق خرسانية ذات نوافذ صغيرة، حيث لا يمكن لرفوف الكتب وأقداح الشاي المرقطة أن تفعل الكثير ضد اللون الرمادي المُكتسب مع الأيام.

من ناحية أخرى، كان مدخل بيت جدتي رائعًا بكل المقاييس، يتقوّس السقف عاليًا فوق رؤوسنا إلى درجة أنني شعرت بالدوار عند النظر إلى الجداريات المرسومة عليه، ومع ذلك، لم يختَرِ الفنان رسم الملائكة عارية كالعادة وهي جالسة على السُحب، أو ما ماثلها من زخارف شعبية شهيرة، ولكن بدلًا من ذلك رسم أناسًا يُمسكون بالكتب. بعضهم يرؤون، وآخرون يشيرون إلى رفوف ممتلئة، بينما فتح البعض كتبًا ووضعوها على وجوههم. بين ذلك، تم تطريز شعار

النبل نفسه مرارًا وتكرارًا، وقد كان عبارة عن غزال أخضر بقرون واسعة على خلفية نبيذ أحمر، متوّجًا على كومة من الكتب. في منتصف قاعة المدخل كانت هناك ثريّا، صُنعت أذرعها من حروف ذهبية متدلية. تم إرفاق الشمعدانات المطابقة بالجدران ذات الألواح الخشبية على مسافات منتظمة، ورؤوس الغزلان بينها. كانت الأرضية مغطاة بسجّاد شرقي ملوّن بأحرف لم يسبق لي رؤيتها من قبل، وعلى الجدار المقابل دَرج يؤدي إلى الطابق العلوي، كانت درابزينه التي من خشب البلوط قد نُحتت عليها كتب، حتمًا قد ورثت إدماني على القراءة من جدتي، هكذا فكرت فورًا حين تأملت كل هذه الكتب.

قال السيد ستيفنز:

-هلّا تتبعانني الآن من فضلكما، سأعتني بالأمتعة لاحقًا.

بالنسبة إلى رجل في مثل عمره، بدا لي ظهره مستقيمًا جدًّا على نحو ملحوظ، ولم يُحدث حذاؤه المصقول أدنى صوت على السجّاد الناعم.

وبالرغم من كل هذه الفخامة، فقد تركنا آثار أقدامنا وراءنا على السجاد، بسبب أحذيتنا الملطخة بالطين بعد ذلك السير الموحل. همستُ قائلة لأليكسيس:

-ألمْ يكن من الأفضل أن نخلع الأحذية ونسير بالجوارب فقط؟

لكنها هزّت رأسها بغرابة. في تلك اللحظة فقط لاحظت أن يدَيْها كانتا مثبّتين في نسيج معطفها الصوفي، تعضّ على شفتها السفلية، وعيناها تتأرجحان ذهابًا وإيابًا.

من المضحك للغاية أنه كان علينا أن نسرع لمواكبة الخادم المسن؛

لقد كان من المحرج بالنسبة إلي أن أتسبب في الكثير من الأوساخ في أجمل مدخل قاعة دلفت إليها على الإطلاق في حياتي. حاولت الركض بجانب السجاد، إذ ستكون ألواح الأرضيات الخشبية اللامعة تحتها أسهل على الأقل في عملية التنظيف.

ومع ذلك، كانت أيضًا زلقة على نحو ملحوظ. بعد خطوات قليلة فقط فقدت توازني وأنا أعيش سيناريو فيلم الأوساخ ومياه الأمطار تحت حذائي الرياضي، انزلقت قدمي بعيدًا عني، وطار ذراعي في الهواء لجزء من الثانية (للأسف وصلتُ بيدي الملوِّحة في الهواء إلى تسريحة شعر السيد ستيفنز الثابتة للغاية فأفسدتها، وتمكنت في الواقع من العبث بهندامه الأنيق)، ثم سقطتُ تمامًا بمؤخرتي على الأرض. تبًّا!

استدار الخادم المسن ونظر إليَّ من خلال نظّارته التي أصبحت ملتوية الآن، لكنه لم يقل شيئًا، فقط وقف الشعر على الجزء الخلفي من رأسه مثل ريش الببغاء.

تمتمت قائلة:

-أنا آسفة حقًّا.

ودون التفوُّه ببِنْت شَفة، مدَّت أليكسيس يدها لمساعدتي، لقد اعتادت معي على حوادث مثل هذه، ودائما ما كانت تستخدم عقب كل حادث كنية طريفة لي؛ "طفلتي الزرافة"، كان يصلح خاصة في مثل هذه المواقف؛ لأن ذراعيَّ وساقيَّ كانت طويلة جدًّا على أن تستجيب لحركاتي الخرقاء. في الواقع، شعرت في كثير من الأحيان

وكأنني زرافة بين جميع الفتيات الأخريات في مثل عمري، اللواتي أصبح لديهن شخصيات وأجساد أنثوية للغاية في السنوات الأخيرة، بدلًا من أن يصبحن أكثر نحافة وطولًا مثلي أنا؛ زرافة مع زلّاجات أسطوانية تحت القدمين غير المتناسقتين.

تركتُ أليكسيس تسحبني من يدي إلى أعلى، وامتنعت عن فرك مؤخرتي المتألمة للحفاظ على الجزء الأخير المتبقي من كرامتي. ذهب السيد ستيفنز، كانت تسريحة شعره قد أصبحت ثابتة بشكل مثير للدهشة مرة أخرى، في هذه الأثناء كنا قد عبرنا مدخل الردهة، وقادنا من باب غائر في الخشب عبر ممرّ طويل، بعده صعدنا درجًا، أسفله ممرّ آخر... كنت أفكر فقط أنني إذا تهت يوما ما هنا فلن أستطيع أبدا مغادرة هذا المنزل مهما حاولت أن أحفظ طريق الخروج، وقد فكرت في ذلك بعدما وصلنا أخيرًا إلى صالون مع ديوان مغطى بالحرير.

قال لنا بكل لباقة:

-من فضلكما.

طلب منّا أن نجلس، وبدأ بعد ذلك في إطلاق حمم مدفأة كبيرة. لم نجلس؛ لأن النار التي اندلعت بعد ذلك بقليل كانت أكثر إغراء لنا بأن نظل بالقرب منها، وقفت أنا وأليكسيس بجوار اللهب الدافئ خاصة حين اختفى الخادم المسن. صدمت الحرارة بشرتي، ثم تسللت إلى يدي ووجهي مثل الصدمات الكهربائية الصغيرة، أغلقت جفنيَّ واستمتعت بالوهج الأحمر البرتقالي الذي لا يزال بإمكاني رؤيته. ارتدّت حرارة النار من ملابسي المبتلة كما لو كانت درعًا واقية. الآن

فقط تسللت عبر سترتي إلى أوصالي ببطء.

لا أعلم إلى متى وقفت هناك على أمل أن يخترق الدفء عظامي، ربما لم يكن هناك سوى عدد قليل من اللحظات التي بدت لي طويلة. على أي حال، عاد السيد ستيفنز بسرعة كبيرة قائلًا وكأنه يُعلن خبرًا هامًّا:

-«مايريد لينوكس»، سيدة سترومساي.

أجبرت نفسي على أن أفتح عيني ثم أدير ظهري إلى المدفأة المتوهجة.

كانت جدتي طويلةً مثل جميع النساء في العائلة على ما يبدو، بل كانت أطول من أليكسيس ومني أنا، أو هل بدا الأمر كذلك فقط لأنها ربطت شعرها الأبيض بعقدة مهيبة؟ على أي حال، كانت العيون المظلمة نفسها التي كنت أمتاز بها أنا وأليكسيس، ولكن تقع عيناها في وسط أعشاش من التجاعيد. كان أنفها طويلًا جدًّا، وفمها ضيّق جدًّا، ومع ذلك، لا بد أنها كانت جميلة للغاية، في ثوبها الحريري الأخضر الداكن، الذي تم إغلاقه عند العنق بواسطة طوق أبيض وبروش، بدت هي ومنزلها كما لو كانا يأتيان من حقبة زمنية مختلفة، كانت ترتدي نظارة قراءة صغيرة بالإضافة إلى شريط حول رقبتها، تم ترصيع هذا الشريط بالحجارة الحمراء الصغيرة.

لبعض الوقت، تبادلت هي وأليكسيس النظرات صامتين تمامًا. أليكسيس، التي وقفت في ملابسها المبللة للغاية والملونة بإفراط، كانت تعصر معطفها بيديها لتُسقط عنه قطرات المياه والوحل. بالنسبة

إلي، كانت أليكسيس دائمًا شيئًا مثل التناسخ لشخصية Pippi Longstocking؛ فهي قوية وشجاعة ومختلفة تمامًا عن الآخرين. كانت أمًّا لا تكترث إذا سبَّها الناس وسخروا منها بازدراء لأنها كانت تغني مع ابنتها البالغة من العمر خمس سنوات على الرصيف في طريقها إلى روضة الأطفال، وأن تكون متوترة بشكلٍ هائل كان أمرًا لا يناسبها مُطلقًا، ولكنها كانت كذلك في تلك اللحظة.

بينما تبلل أليكسيس شفتيها بلسانها، تحركت عينا جدتي إليَّ أنا. نظرت إلي، كان هناك سؤال غير معلن بيننا، لكن لم يكن لدي أي فكرة عن طبيعة هذا السؤال. كانت أليكسيس لا تزال صامتةً أيضًا، ازدردت لعابها، رفعت السيدة مايريد حاجبيها بشكل مريب، اشتدّ دفء النار من خلف ظهورنا بينما تضاعف من الخارج قَرْع المطر على زجاج النوافذ. أعدّت الورود المتسلقة والشجيرات الهندسية نفسها ضد العاصفة التي أصدرت صوتًا صاخبا حول المنزل. فتْحتا أنف جدتي كانتا تكبران وهي تتنفس بعمق. نزّ الماء من شعرنا وملابسنا عبرنا وشكَّل بركًا عند أقدامنا.

بقيت أليكسيس صامتةً تمامًا.

كان هذا الوضع بالنسبة إليّ لا يطاق!

قلت أخيرًا:امم، حسنًا أنا آيمي، ويسعدني بالطبع التعرف إليك، امممم، أقصد إلى حضرتك.

تلعثمْتُ في الحقيقة وأنا أقول ذلك؛ لأن السيدة مايريد لم تتفاعل على الفور.

أضفت وأنا غير واثقة مما أتفوّه به مطلقًا:

- حضرتك السيدة... مايـ...؟

يبدو أنني كنت أخشى على سلامتي، ولكن بالرغم من كل شيء، كان معروفًا أن الأشخاص النبلاء يمكن أن يكونوا غريبين في بعض الأحيان عندما يتعلق الأمر بألقابهم. دون أي تدخل مني كما أنه لا شيء حملني على القيام بما حدث بعد ذلك، انثنت ركبتي وأصدرت صوت طقطقة عاليًا، ولم يبدُ لي هذا لائقًا في مثل ذلك الموقف. شعرت بأن وجنتيها الحمراوين على وشك أن تصيباني بطلقات نارية ستصوّب نحو وجهي.

لمحت في زوايا فم جدتي ابتسامة ما، بعدها سألتْ جدتي أليكسيس:

- هل هي تنتمي إليكِ؟ هل يمكن أن يكون ذلك صحيحًا حقًّا؟

خطَتْ نحوي وراحت تتحسّس بأصابعها وجنتي وتربّت عليها وتداعب أسفل ذقني.

بجانبي، أومأتْ لها أليكسيس قائلة: لقد حملت بها وأنا صغيرة جدًا في السن.

قالت لها مايريد: نعم نعم، هذا صحيح.

قالت وهي الآن تبتسم حقًّا:

- حسنًا يا آيمي، هذا يعني أنني حقًّا جدتكِ.

ثم أضافت بلغة افترضتُ أنها اللغة الغيلية:

-Ceud mìle fàilte!

لحُسن الحظ، عادت على الفور إلى الإنجليزية قائلة: مرحبًا، مرحبًا ألف مرة، مرحبًا بكم للحياة في منزل لينوكس.

قالت أليكسيس فورًا:

– لا تعلقي الكثير من الآمال على عودتنا، لم نعد لهذا السبب.

– ليس من أجل هذا؟ إذًا ما هو السبب؟

أخذت أليكسيس نفسًا عميقًا، كما لو أن محاولة التحدث إلى والدتها تستنفد منها الكثير من الجهد، وتمتمت:

– كان علينا أن نخرج ولم نعرف إلى أين نذهب.

ثم أكملت وهي تزدرد لعابها:

– ربما كان الأمر عاجلًا قليلًا، ولكن... على أي حال، نحن نريد فقط البقاء هنا لبعض الوقت و... الاسترخاء، هذا كل شيء. آيمي الآن في إجازة صيفية، سيتعيّن علينا العودة إلى المنزل في ألمانيا في غضون أسابيع قليلة.

بالطبع أليكسيس تعرف تمام المعرفة أنني قد كرهت مدرستي الآن نهائيا، لم أُرِد أبدًا رؤية من يسمَّون بأصدقائي مرة أخرى، ومع ذلك، عندما قررنا أنه من الأفضل مغادرة البلاد على الفور، لم نتحدث عن المدة التي يجب أن نكون فيها خارج البلاد، قد نضطر حقًّا للعودة إلى ألمانيا في مرحلة ما. بعد كل شيء، كنت لا أزال أخطط للانتهاء خلال ثلاث سنوات من المرحلة الثانوية ثم الالتحاق بكلية الطب، لكنني لم أرغب في التفكير المطول في خطتي الآن ولا الاستغراق في التأمل بشأن هذا الأمر في البداية. قطعت جدتي أفكاري بأن قامت بمسح

اعتراضات والدتي بحركة من يدها النحيلة قائلة: إذا كنتما ترغبان في البقاء، فأنتِ تعرفين ما هي قواعدي، عليها أن تقرأ، ما دامت ستمكث هنا، ستقرأ، وعندما تنتهي العطلة، يمكنها اتخاذ قراراتها الخاصة.

سألتها وأنا في غاية الدهشة: أن أقرأ؟ ماذا تعني بالضبط؟ لماذا عليَّ أن أقرأ؟

تنهدت جدتي وهي تقول: إنها قصة طويلة يا عزيزتي، يتعلق الأمر بأسرتنا، لكن هذا ليس مهمًّا، نحن في الحقيقة...

قاطعتها أليكسيس بصوت صارم: هي لا تعرف! بكل بساطة هي لا تعرف!

تجعّدت شفتاها كما لو أنها قد عضت ليمونة للتو.

- ما الذي لا أعرفه بالتحديد؟

حين همّت السيدة مايريد بأن تشرح لي، بدت أليكسيس متوترة وعصبية للغاية ولكنها حاولت كتم توترها وهي تقول لجدتي: ليس الليلة لو سمحتِ، حسنًا؟ ليس لدي أعصاب لتحمُّل سماع ذلك الآن. آيمي غارقة ونصف مجمّدة يكاد الموت يصل إليها، وأنا مثلها تمامًا. الأسابيع القليلة الماضية لم تكن سهلة بالنسبة إلينا، وأضيف إليها ما حدث معنا هنا في هذه العاصفة. على أي حال، لنتحدث أكثر باستفاضة غدًا، أرجوكِ!

في البداية بدا أن جدتي كانت ستجادل، ولكن بعد ذلك بدأت تلاحظ أني ما زلت أرتجف بالفعل، فقالت:

- حسنًا حسنًا، سيجهز السيد ستيفنز غرفتكما ويُسمح لكما بأخذ حمّام ساخن.

بعد وقت قصير، استلقيت أنا وأليكسيس في حوض بحجم حوض السباحة، عندما أكون في وضع الوقوف فإن المياه كانت تصل إلى ما فوق فخذي، وعندما كنت أطوي ساقيَّ كليًّا كان يمكنني حتى القيام بحركات السباحة، بل وأن أسبح بالفعل من طرف إلى آخر. ومع ذلك، كنا على درجة من الإرهاق تمنعنا حتى من مجرّد التفكير في القيام بأي رياضة. فضَّلنا أن نغطس في الماء الساخن ونقوم بإذابة الخدر الذي أصاب أطرافنا وخاصة أصابعنا. جبال عطرة من الرغوة المنعشة ترفرف حولنا، وقد عُلقت ثريا ذات الحروف الذهبية أيضًا في سقف الحمام الرخامي.

في طريقي عبر ممّرات القصر المتداخلة، سألتُ أليكسيس ما هو الخلاف الذي حدث بينها وبين السيدة مايريد، عمّا أذا كنت سأقرأ أم لا. لقد أجاب هذا السؤال عن نفسه أخيرًا، بالتأكيد لم أكن لأتوقف عن القراءة خلال هذه الإجازة مُطلقًا. بالرغم من كل شيء وخلال مروري بأي ظرف، فإنّ القراءة قد كانت مهنتي المفضلة لسنوات، أن أمكث في المكتبة الوطنية أنتظر العروض على الكتب، لكن أليكسيس هزت كتفيها وقالت: أنتِ تعلمين بالفعل يا آيمي أن هذه العائلة كلها مجنونة.

دخلت الحرارة عبر أوصالنا وجعلتنا نشعر بالمزيد من الإرهاق، وكانت الحرارة تؤلمني قليلًا على بشرتي الباردة ثم انتشرت ببطء داخل جسدي كله. انجرفت بالقرب من السطح، ولم أحرك أي عضلة،

وشاهدت شعري الطويل الرقيق المعقود في الماء يتموّج ذهابًا وإيابًا بحركة بطيئة، كان توهُّج شعري الأحمر مجرد انعكاس حزين لشعر أليكسيس البري الرائع، الذي لا أتذكر أنني قد رأيته كثيرًا وهو مبلّل، ومع ذلك، بدا لي وكأنه شقائق النعمان في قاع البحر. كان على حياتي أن تكون جميلة وهادئة، وكل ما عليّ فعله هو الانحناء إلى التيار الدافئ وفيه.

بمجرد أن اعتقدت أنني سعيدة حقًّا في تلك اللحظة، حتى كفّت عن إسعادي شقائقُ النعمان البحري التي في خيالي؛ لأنني ربما سأشعر بالملل بسرعة كبيرة دون كتب لو عشت في قاع البحر. أصبحت الموجات اللطيفة أقوى لأن أليكسيس كانت تتحرك. في البداية تحركت عبر الحوض وغطّست رأسها، ثم أخذت نفسًا عميقًا وظلّت بالأسفل لبرهة. جثمت في قاع الحوض لمدة دقيقتين تقريبًا، وعندما ظهرت إلى السطح بدت عيناها كما لو كانتا تكافحان من أجل عدم البكاء مرة أخرى، ربما كانت تسب اليوم الذي اضطُرت فيه للوجود في مزرعة الحيوانات العضوية حيث كانت تعمل. وحين فقدت توازنها ووقعت جبر قدمها طبيب وسيم، ذلك الطبيب هو دومينيك الذي كان يعمل في غرفة الطوارئ. تسلل دومينيك إلى قلبها وإلى عائلتنا بسرعة كبيرة. ظل الاثنان معًا لأقل من عام، لكنه اندمج معنا وانتمى إلينا على الفور، وأصبح من المعتاد أن يقلي لنفسه شرائح اللحم في مطبخنا النباتي، وأن يعدّ الطعام لي، بل واصطحبنا للتزلج معه أيضًا.. في الحقيقة لقد اشتقت إليه، كان هو الوحيد الذي من الممكن أن أشتاق إليه في الواقع.

وكأنني أحاول طمأنة أليكسيس قلت لها: بالتأكيد سنقضي عطلة رائعة في سترومساي، وأعني بذلك أنه على هذا النحو سيكون كل شيء هنا أفضل من الجلوس في المنزل، حيث يذكِّرك كل شيء بكل شيء.

نعم كنت أقصدنا معًا، حيث كانت أليكسيس تعاني من ذكريات الحب في أرجاء البيت، وحيث يمكن أن ألتقي أنا بأشخاص هم زملائي في المدرسة الذين لم يكونوا كرماء معي البتّة، ولم يكونوا هم أفضل صحبة لي.

أزاحت أليكسيس عَبَراتها بعيدًا وقالت: نعم، نعم، أنتِ على حق.

نظرتْ إليَّ لبعض الوقت، فجأة ابتسمت وسحبت أحد الجبال الرغوية نحوها قائلة: أخبريني يا آيمي، هل يمكن أن تكون هناك بداية أكثر مثالية لقضاء عطلة من الحمام الرغوي الرائع هذا؟

ثم ابتسمت لي متفائلة فابتسمتُ لها أنا أيضًا.

في وقت لاحق، قبل أن أنام ملفوفة ببطانية دافئة، استمعت إلى العاصفة خارج النافذة، يبدو أن صوتًا آخر يختلط بعواء الرياح وزئيرها، وكأنه طفل ينتحب، هل كان هناك شخص يبكي في المستنقع؟ لا، لا بد أنني كنت أتخيل ذلك فقط.

عاشت الأميرة في قلعة بها أسوار فضية ونوافذ زجاجية ملونة.

في يوم من الأيام، وقفت على تلة يمكن من فوقها رؤية المملكة بأكملها.

تصعد كل يوم إلى أعلى برج وتنظر إلى امتداد المسافة. عرفت

مملكتها، عرفتها جيدًا وحفظتها عن ظهر قلب، ولكن من مسافة بعيدة فقط؛ لأنها لم تغادر القلعة قَط. منذ وفاة والدها الملك، ووالدتها الملكة، لم تجرُؤ على الخروج.

بدت لها المروج والبحيرات خطيرة للغاية، والغابات عصية على اختراقها.

في حكاية خرافية قديمة لم يؤمن بها أحد من رعاياها لفترة طويلة، قيل إن وحشًا كان يتربص في مكان ما، في عمق الكهف.

ولهذا ظلت الأميرة تخاف ذلك الوحش الأسطوري.

(2)

المكتبة السرية

في الصباح، استيقظت من نومي على كابوس كانت فيه الصور والضحكات المتتالية تطاردني، ظهرت أمامي الصور في غرفة تبديل الملابس الخاصة بحمّام السباحة، عارية حتى من لباس السباحة، صور مسروقة من هاتف محمول لزميلة تدَّعي صداقتي. ثم نُشرت في مجموعة فيسبوك الخاصة بصفي.

- أنت تمثلين الجمال الفائق الزائد عن الحد!

هكذا علق بول على إحدى الصور، وكأن عليَّ إجراء عمليات تجميل مختلفة أمام كاميرات التليفزيون لأتمكن من عيش حياة طبيعية. في الحلم، حبست نفسي في مرحاض المدرسة وبكيت سرًّا.

في الحياة الواقعية أيضًا حدث معي ذلك.

فبالفعل كانت جولينا قد التقطت لي صورا تمّت مشاركتها على الفيسبوك والواتساب، حتى يتمكن أي شخص يشعر بالملل من رؤيتي عاريةً، ويتسنى له الضحك على صوري. كانت تصرفات طفولية وغبية.

ولكن للأسف لا يزال الألم موجودًا.

كان إيماني بالصداقة التي تربطني بجولينا هو منبع ألمي. لكن يبدو أنها أرادت من الآن فصاعدًا الانتماء إلى فئة الساخرين مني بدلًا من التسكع معي، أيتها المهووسة، يا دودة الكتب، يا لكِ من فتاة مملة! أخبرتني أليكسيس مرارًا وتكرارًا أنهم هم المخطئون، وأن ما قالوه عني ليس حقيقيًا، وأنني شخصٌ جميل ومحبوب وإنسان رائع. كنت أعلم أن درجاتي الدراسية كانت جيدة جدًا، وأن طلاقتي في اللغة الإنجليزية جعلتهم يبحثون عن شيء آخر يجعلني محلّ سخريّتهم، لكنَّ شيئًا ما بداخلي صدَّقهم سرًّا على أي حال، حتى لو كان غبيًّا، كانت هناك نقطة مؤلمة طُبعت في روحي، ثقب صغير أزال ثقتي.

لكنني لم أكن لأدع ذلك يحدث، لقد آليت على نفسي أن أنسى الصور والضحكات، ويجب أن تساعدني ستروِمساي في ذلك.

بكل حزم، ألقيت بالصور من خيالي بعيدًا ووجدت نفسي في فراش محاط بأربعة أعمدة، انسدلت قطع من القماش الأحمر المربَّع فوق رأسي وتوسعت إلى أربعة جدران كالستائر الثقيلة، شكَّل فراشي عمليًّا غرفة صغيرة داخل الغرفة، شرنقة كنت فيها وحدي، نعم، وقارئ الكتب الإلكتروني بجوار وسادتي بالطبع، شعرت كما لو أني كنت أبني كهفا من البطانيات القديمة وأختبئ فيه مع كتبي المفضلة. استلقيت هناك لفترة أطول، أشاهد قصاصات الضوء التي تتسلل هنا وهناك من خلال فتحات القماش لترسم نقشًا على غطاء السرير المطرَّز. ثم استيقظتُ.

لم يكن الوسع حكرا على غرفة الضيوف التي وضعني فيها السيد ستيفنز ولكنه شمل بقية الغرف أيضا، كانت مزينة على نحو جميل،

كان ورق الحائط مصنوعًا من الحرير الأحمر الداكن بنقوش الأزهار المرسلة لوميضها باتجاهي، وكان هناك مقعد بذراعين وله أرجل مذهبة، وخزانة ذات أدراج مع مرآة معلقة فوقها، وعتبة نافذة عريضة مع وسائد حتى تتمكن من الجلوس بشكل مريح؛ لإلقاء نظرة على الحديقة والمستنقعات.

كانت حقيبتي القذرة تقف في منتصف الغرفة مثل جسم غريب، لقد كنت متعبةً جدًّا أمس من فكرة أن أفرغ محتوياتها، حتى الآن كنت قد قمت بسحب عدد قليل من الملابس بلا مبالاة، وقد كان سروال جينز وقميص وسترة طويلة كافين. على أي حال لم تكن ملابسي متنوعة على نحو مميّز، خلاف أليكسيس، لم أكن أحب الفساتين ذات الزخارف الزاهية والجوارب المخططة، فضَّلت ارتداء ألوان الأرض: الرملي أو الأسود.

مباشرة قبالة الفراش المغطى ذي الأعمدة الأربعة كان باب الحمّام الذي كنت سأتشارك فيه مع أليكسيس. توجد بالفعل أدوات للمكياج والكريم الطبيعي، بالإضافة إلى مشابك شعر بها أزهار وأربطة شعر مصبوغة مربوطة على حافة حوض الغسيل والرف المرفق؛ ممّا يدل على أن أليكسيس قد استقرت بالفعل وأفرغت محتويات حقيبتها.

من المحتمل أنها كانت تتناول الإفطار في تلك اللحظة على المائدة.

أنا أيضًا كنت جائعةً جدًّا حينها، بعد كل شيء، لم أتناول أي شيء منذ الغداء في مطار دورتموند أمس. قفزت بسرعة إلى الحمّام ثم ارتديت ملابسي، ربطت شعري المبلل على شكل ذيل حصان، ثم

خرجت إلى الردهة للبحث عن شيء آكله.

لحُسن الحظ، وجدت بسرعة ما كنت أبحث عنه، بعد خطوات قليلة فقط، أوضحت لي الأصوات الغاضبة لأليكسيس وجدتي الطريق. لسوء الحظ، بدا أن الاثنين يصرخان كل منهما في وجه الأخرى، في البداية كان مجرّد زئير غير مفهوم، لكن كلما اقتربت، زادت الكلمات التي فهمتها.

صرخت أليكسيس:

- لا يمكن إجبارها! كان من الأفضل ألاّ تأتي إلى هنا حتى لو كنت أعرف...!

ردّت جدتي:

-هل فكرت أصلًا؟ إرث عائلتنا... الذي سيتم حجبه!

-أنا لا أهتم بالميراث!

-إذا كنتِ تريدين البقاء...!

-... أف!!

نزلت سلّمًا حلزونيًّا واستدرت إلى رواق آخر، فأصبحت الأصوات أكثر وضوحًا، لقد ظهرتا من غرفة عند نهاية المدخل.

سألتِ السيدةُ مايريد:

-هي تحب القراءة، أليس كذلك؟ إذًا لماذا تقاومين الأمر كثيرًا إلى هذا الحد؟ أراهن أنها ستحبه.

-هل نسيتِ ما حدث لي في الماضي في ذلك الوقت؟

-لا، بالطبع لا، لكنك حصلتِ وقتها على الكتاب الخطأ، هذا كل شيء.

-ومع ذلك لم أتخطَّ الأمر، كان فظيعًا، لا أريد ذلك لآيمي، إنها لا تحتاج إلى هذه الكتب.

كنت قد وصلت إلى الباب الذي افترضت أنهما كانتا وراءه ودفعته لفتحه، كانت أليكسيس والسيدة مايريد تجلسان في نوع من الحدائق الشتوية، بينهما طاولة ثابتة، يوجد عليها الخبز المحمص والنقانق والبيض ولحم الخنزير المقدد والمربى، ثم وقعت عيني أيضًا على كومة من الفطائر، أصدرت معدتي أصوات الجوع بشكل ملحوظ، لكن في البداية كان عليَّ أن أعرف لماذا تتشاجر أليكسيس وجدتي.

سألتهما:

-ماذا يحدث؟ ما هي الكتب التي لا أحتاج إليها؟

وجمت أليكسيس وكادت أن تسقط قطعة الخبز الجافة التي كانت تقضمها، بينما ابتسمت السيدة مايريد قائلة:

-صباح الخير يا آيمي. كيف كانت ليلتك الأولى في بيت لينوكس؟

أجبتها:

-كانت جيدة... بالمناسبة لقد أحببت كثيرا سريري ذا الأعمدة الأربعة.

-هذا من دواعي سروري، هل تريدين بعض الفَطور؟

ثم أشارت جدتي إلى مقعد فارغ وهي تستطرد:

-لسوء الحظ فَطورنا لا يتناسب مع عاداتك الغذائية، لقد قُمنا بالفعل بعمل طلبية خصّيصا من ليرويك، لكنها لن تصل إلى هنا قبل الغد، في غضون ذلك، ماذا عن شرب نخب؟

قلت:

-شكرًا جزيلًا.

ثم وضعت النقانق ولحم الخنزير المقدد على طبق مسطح وأنا أضيف:

-أنا لست نباتيةً.

لم تُسرَّ أليكسيس كثيرًا عندما أكلتُ اللحوم، لكنها كانت تعلم أن جسدي يحتاج إلى سعرات حرارية أكثر من جسدها الذي كان من الواضح أنه يحرق كل خلاياه أكثر ممّا يحرق الطعام؛ لذلك كنت أعيش بمبدأ بسيط وهو: إذا سنحت لي الفرصة لآكل شيئًا دسمًا، فلن أفوِّت ذلك.

لكن يبدو أن أليكسيس لم تهتم بما كنت أتناوله في الوقت الحالي على أي حال، كانت لا تزال تحدِّق في وجه جدتي، وكان فكَّاها العلوي والسفلي يتصارعان معًا.

من ناحية أخرى، راقبتني السيدة مايريد بارتياح وأنا أضع الطعام لنفسي في طبقي، ثم قالت:

-والدتك لم تخبرك بعد، لكن لدينا مكتبة خاصة جدًّا هنا في سترومساي، إنها كبيرة جدًّا كما أنها... كما أنها سرية للغاية.

قلت في نفسي: وأخيرًا بدأت بشرح القصة، بينما أكملت هي:

-بعض الكتابات عمرها أكثر من ألفي عام وقد نُقلت من مكتبة الإسكندرية الشهيرة، لقد أنقذها أسلافنا من الحريق هناك، ثم أسسوا المكتبة في سترومساي، هل تريدين رؤيتها؟ هناك مجلدات لا تُقدَّر بثمن في تلك المكتبة.

نظرتُ إلى أليكسيس بتساؤل، لكنها ربما كانت مشغولة جدًّا في قتل والدتها بالنظرات، على أي حال، لم تقل شيئًا، ولم أجد أي خطأ في أن أقوم بزيارة المكتبة دون التزام، خاصة إذا كانت على ملك عائلتي كما تقول جدتي، وبناء على ذلك أجبتها بالإيجاب وأومأت لها برأسي قائلةً:

-لا بأس.

أومأت السيدة مايريد وهي تتمتم:

-عظيم جدًّا، سيأخذك السيد ستيفنز إلى هناك في لحظة إذًا.

قلت وأنا أتناول فطيرة أخرى:

-من جانبي موافقة.

بينما بدت أليكسيس في قمة الغضب المكتوم وهي تقول:

-حسنًا، يمكنها أن تجرب زيارتها، لكن بشرط واحد فقط.

رفعت السيدة مايريد حاجبيها وهي تقول:

-وما هذا الشرط الذي ستضعينه؟

أمسكت أليكسيس بحافة الطاولة بشدة لدرجة أن مفاصل أصابعها أصبحت بيضاء من فرط الشد وشرحت لها:

-أن تعطيها كتاب أطفال، شيئًا غير ضار تمامًا، قصة لا يمكن أن يحدث فيها شيء على الإطلاق. أنا جادة، أعطها كتاب أطفال أو سنغادر اليوم.

تمتمت جدتي:

-يا للهول!

ولكي أكون صادقةً، فكرت في الشيء نفسه: يا للهول! الجينة المجنونة الموجودة بين جينات كل العائلة قد ظهرت مرة أخرى، يبدو أنه كان يتحكم في أليكسيس الآن.

لم تكن المكتبة التي تحدثت عنها جدتي في منزل لينوكس، بل لم تكن في أي منزل على الإطلاق. عندما قادني السيد ستيفنز إلى المستنقع (كان في قمة التألق والأناقة في ذلك اليوم، مع وجود جزء إضافي من دهن الشعر في تسريحته للحماية من جميع هجمات الزائرة الخرقاء)، كنت أعتقد في البداية أنه ذاهب إلى القلعة الأخرى على الطرف الآخر من الجزيرة، والتي تعيش فيها، وفقًا لحديث جدتي، عائلة تسمَّى ماكاليستر، لكنه في النهاية توقف عند تل من التلال، كانت تتراكم فوقه كتل حجرية عملاقة، شكَّلت حلقة من البوابات، وكانت أسطحها الرمادية المسامية مغطاة بالطحالب والطين، ومع ذلك، لم يُشِر السيد ستيفنز إلى الآثار القديمة، ولكن إلى مدخل الكهف عند سفح التل.

قال بهدوء رزين:

-ها هو ذا.

وأخذ قبسًا من الشعلة المضيئة من قوس على وجه الصخرة، وهو يضيف شارحًا لي بجدية شديدة:

-هيا بنا لندخل الآن المكتبة السرية يا سيدتي.

قلت مرتابة من الموقف كليةً:

-حسنـ... حسنًا، وماذا بعد؟

لكنني لم أجرؤ على المجادلة مع نظرة السيد ستيفنز الصارمة، أثار إعجابي أيضًا أنه قد ناداني بسيدتي، لقب شديد الاحترام.

كان الممر الحجري يمتد في البداية على بعد أمتار قليلة صعودًا، لكنه انتهى فجأة عند وسط التل، و لذلك قد تم نحت درجات في الصخر؛ ممّا أدى بنا إلى أسفل. تحسست بأصابعي الجدران الخشنة بينما كنت أتبع السيد ستيفنز في الظلام.

كان الدرج شديد الانحدار.

وكانت طويلة أكثر من اللازم، وكأنها جزء من خيال ما.

بدت وكأنها سلالم بلا نهاية، سلالم إلى الأبد، وكأنها تزداد كلما نزلنا خطوة بخطوة، ومرة أخرى خطوة بخطوة. لم تكن المكتبة في أعلى التل مع الدائرة الحجرية، كما توقعت في البداية، بل كانت تحته، عميقة حقًا، عميقة نحو الأسفل. كان من المفترض أن نكون قد وصلنا إلى أحشاء الجزيرة منذ فترة طويلة، وربما تحت مستوى سطح البحر أيضا. تخيلت أنني أستطيع سماع صوت الأمواج من بعيد، ماذا خطر ببال من كان يفكر في إنشاء مكتبة في مثل هذا المكان دون جميع الأماكن على الأرض؟

انتهى الدَّرَج فجأة كما بدأ، وظهرت رائحة الورق القديم وتسللت إلى أنفي، هذا هو المكان الذي بدأت فيه رفوف الكتب، كانت مصنوعة من الخشب الداكن، وكان ارتفاع كل منها حوالي ثلاثة أمتار. على مسافات منتظمة كانت هناك رفوف ضيقة يمكن تحريكها عن طريق اليد. كانت الألواح مقوّسة تحت وطأة الأوراق والكتب ذات الغلاف الجلدي، لكنني اكتشفت فيما بينها كتبًا ذات غلاف ورقي ولفائف صفراء. تشعَّبت الممرات بين صفوف الرفوف في كل مكان، ما قالته السيدة مايريد كان صحيحًا بلا مراء: كانت هذه المكتبة ضخمة وعتيقة إلى درجة هائلة.

كانت مليئة بالهمسات التي تنبعث من الكلمات، وحلقات كل القصص التي تنتظر قراءتها، ووعود بمتعة هائلة عالقة في الهواء المحيط بها، كم عدد المغامرات التي تم إخفاؤها بين الورق والحبر؟ وكم عدد قصص الحب الرائعة؟ وكم عدد المعارك الملحمية؟ حسمت الأمر الآن في نفسي وقررت أنني حقًّا أحب هذا المكان، أتمنى أن أكون جزءًا منه وأن أنتمي إلى هذه الكتب وأداعبها وأدلِّلها، ربما ألتقط أحدها وأتصفحه الآن وفورًا؛ لأقرأ عن مغامرات درامية ملحمية لبطل ما. خطواتي تباطأت وسط انبهاري، بالرغم من أن السيد ستيفنز قد قادني هابطا إلى أسفل في عمق المكتبة، التي بدت ممرّاتها وكأنها متاهة بلا نهاية.

على الرغم من استمرار توهُّج المصابيح بين الرفوف، كان الظلام شديدًا لا يسمح برؤية المدى الكامل لدهاليز الكهف، والممرات متداخلة أكثر فأكثر بعضها في بعض. ومع ذلك، في مرحلة ما،

توسعت جدران الكتب إلى نوع من الغرف التي تشبه إلى حد ما غرفة الصف المدرسي، أحد الطرازات القديمة إلى حد ما مع مكاتب مدرسية مصنوعة من الخشب الذي تأكله الديدان، ويمكن فتح أسطحها لتخزين الدفاتر في الأدراج تحتها. لكن نعم، كان في الواقع فصلًا دراسيًّا، وأكثر ما أزعجني بشأنه أنه لم يكن فارغًا.

في الصف الأمامي جلس صبي وفتاة في مثل سني، وعلى الطاولة كان هناك رجل أصلع الرأس يرتدي رداء الراهب. قبضة غير مرئية أصبحت فجأة ملفوفة حول أمعائي، تضغط عليها، كان عليَّ أن أجبر قدمي على المُضي قدمًا.

قال السيد ستيفنز:

-صباح الخير يا جلين، أحضرتُ لك آيمي لينوكس، السيدة تريد أن تشترك حفيدتها وتواظب على حضور الدرس، هل تم إبلاغك مسبقًا؟

أومأ الرجل الجالس على المنضدة مجيبًا:

-نعم نعم، شكرًا جزيلًا لك، لقد كنا بانتظارك بالفعل.

هل قال «درس» حقًّا؟ دقّ ناقوس الخطر في رأسي، أي إنها كانت فعلًا مدرسة، وأنا بهذا الطالبة الجديدة فيها، حتى خلال عطلتي الصيفية يطاردني الدرس! يا له من شيء يستحق التهنئة! استقر طعم مر على لساني. كان من المفترض أن تعطيني سترومساي أفكارًا أخرى وتجعلني أنسى وليس... قطعت أفكاري رؤيتي للفتاة الجالسة في

الصف الأول، فقد كان لديها الشعر الأشقر نفسه مثل جوليانا، ازدردت لعابي وقد بدأت أتوتر.

لوَّح المعلم لي، لاحظت أن حاجبَيْه كثيفان للغاية، كما لو كان هذان الحاجبان يحاولان تعويض قلة الشعر في رأسه، بينما كانت هناك سلسلة من الندوب الجافة المتفخة على جبهته، التي تستمر صعودًا فوق رأسه الأصلع مثل شبكة العنكبوت. كان عينه اليسرى محجوبة برقعة جلدية، كان يتصرف وكأنه قد لاحظ رعبي الكامن.

قال دون أن ينظر إليَّ وهو يصافحني:

-أنا جلين، وقد قمت بتدريس عائلات لينوكس وماكاليستر لسنوات عديدة، من الجيد أن يكون لدينا أخيرا لينوكس جديدة مرة أخرى.

وأشار إلى الطالبين وهو يستطرد:

-هذان هما بيتسي وويليام ماكاليستر، ابنة اللورد وابن أخيه، وهذه آيمي لينوكس حفيدة السيدة.

تمتمتُ:

-مرحبًا.

أجابا بلا زيادة أو نقصان:

-مرحبًا.

كانت الفتاة ترتدي شريطًا من الساتان على شعرها الأشقر المثالي اللامع تمامًا، وكانت رموش عينيها طويلة بلون أسود فاحم

مميّز. نظرت إليَّ من أعلى إلى أسفل. ومن الناحية الأخرى، أومأ الصبي برأسه وابتسم لبرهة، ثم تابع الكتابة في دفتر ملاحظاته، كان شعره داكنًا وبارزًا في كل الاتجاهات وكأنه قضى الليل بالخارج وسط العاصفة.

بينما كانوا على وشك تحديد شيء ما في رائعة شكسبير سونيت، ذهبت أنا وجلين إلى أحد رفوف الكتب في الزاوية البعيدة من الفصل، أُتيحت لي الفرصة أخيرًا لإلقاء نظرة فاحصة على الكتب الفردية، مررت بنظري على أغلفتها الجلدية المنقوشة بأحرف من الذهب، «أَليس في بلاد العجائب» كانت هناك، وبجانبها «رونيا ابنة السارق»، ثم «ساحر أوز» وقصص لا تنتهي. لقد وجدت كتاب الأدغال في غلاف جلدي أحمر.

بدأ جلين بالشرح قائلًا:

-لقد كانت عائلتك تقرأ دائمًا منذ قرون، لكنهم كانوا دومًا يقرؤون على نحو مختلف عن الآخرين؛ لأن في سلالة عائلتك الكريمة هدية خاصة توارثْتها الأجيال جيلًا بعد جيل، منذ العصور القديمة؛ لهذا السبب يشاركون في ملكية هذه المكتبة.

أجبت فقط قائلة:

-آها...

فتنهد جلين وأكمل:

-نعم، أعلم جيدًا أنه ليس لديك فكرة عما أحاول شرحه لك، السيدة تقول إن والدتك أبقت كل شيء سرًّا عنك؛ لذلك

ربما يكون من الأفضل أن أُريكِ بنفسي ما أعنيه، سنصل إلى مقصدي من هذا الحديث في غضون لحظة، ولكن عليك أولًا أن تعرفي شيئًا واحدًا؛ لم تعِشْ عائلات ماكاليستر وعائلة لينوكس مطلقًا معًا بسلام على هذه الجزيرة، لقد قاتل بعضهم بعضًا في عداء دموي منذ العصور الوسطى، وفي وقت ما قبل حوالي ثلاثمائة عام وصل العداء بين العائلتين إلى ذروته، أثناء النزاع في ذلك الوقت شبّ حريق، ومن بين أمور كارثية أخرى، حُرقت مخطوطة ذات قيمة خاصة، كانت هي النسخة الوحيدة المكتوبة من الأسطورة التي ضاعت إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين، وقَّعت العائلتان على هدنة وكرَّس أعضاء العائلتين أنفسهم فقط لحماية الأدب والحفاظ على الكتب التي ترينها هنا؛ لهذا أنشأنا المكتبة حتى الآن تحت الأرض ونُبقِي وجودها سرًّا عن أي شخص ليس عضوًا في إحدى العائلتين أو لم يحصل على ثقتهم. يجب أن يكون كل ما نقوم به وكل ما ستفعلينه من الآن فصاعدًا لصالح القصص، عليك أن تَعِدي بذلك قبل أن نبدأ؛ لأنـ...

قاطع سماعي لحديثه رؤيتي للمعان الجلد الأحمر لكتاب الأدغال على نحو جذاب جدًّا، عليكِ أن تقرئيني، وكأنه يخاطبني ويقول ذلك، عليكِ قراءتي فورًا.

-آيمي هل تسمعينني؟

تحركت يدي نحو الكتب، وفي اللحظة الأخيرة تمكنت من صدّها عن أخذ كتاب منها بكل بساطة، سرعان ما سحبت ذراعي

وتظاهرت وكأنني كنت أحاول حك وجنتي، ورحت أهز قدميَّ بشكل محرج وأنتقل بالهز من قدم إلى أخرى. لسوء الحظ، اصطدمت بأحد السلالم التي كانت تنحني أمام الرف ثم مالت إلى الجانب وضربت الأرض بصوت فرقعة يصمُّ الآذان، وأصيب وجهي بإصابة طفيفة محرجة، جعلتني أشعر بنظرات الازدراء التي تُحدق بي من ناحية طاولات الدرس.

ارتجفت شفتا جلين كما لو كان عليه أن يكتم ابتسامة، ولكن في الوقت نفسه تقريبًا كان ينظر إليَّ مرة أخرى بملامح ودودة.

أعاد السلم إلى مكانه وكأنه لم يحدث أي شيء، واستمر في حديثه قائلًا:

-والآن؟ آيمي هل أنتِ معي؟

-نعم، نعم.

-هل تقسمين أنك ستحمين القصص دائمًا وأبدًا عندما تقرئينها ولا تفعلين أي شيء من الممكن أن يدمرها أو يغير من حالتها؟

قلت بلا تردد:

-امم، بالطبع.

وكنت أفكر في استحالة أن يدمر شخص رواية يقرؤها أو يتسبب في أي أذى لها على كل حال.

قال جلين مرتاحًا:

-هذا جيد، والدتكِ تريد منكِ أن تختاري فقط من بين هذه الكتب، هل فكرت حقًا في شيء ما؟

بعد نصف ساعة، بلغت أنا وجلين وبيتسي وويليام الدائرة الحجرية على قمة التل، استراح في يدي كتاب الأدغال الأحمر الناعم والثقيل الوزن في الحقيقة، بالطبع كنت قد انزلقت على العشب المبلل في طريقي إلى هناك، لكنني كنت قادرةً لحسن الحظ على إنقاذ الكتاب من الوقوع في التراب، تزيَّن سروالي الجينز الآن ببقع الطين ذات اللون البني والأخضر على ركبتي، وشعرت بمزيد من الكُره تجاه بيتسي، التي صعدت بأناقة إلى أعلى التل، وويليام، الذي تبعنا وهو يسير بشكلٍ عشوائي في ذيل موكب مجموعتنا الصغيرة. تساءلت لماذا يجب أن نقرأ هنا، من دون جميع الأماكن، حيث كانت الرياح باردة حقًا مرة أخرى. حمل بيتسي وويليام أيضًا كتبًا تحت أذرعهما، لكن جلين أحضر سجادة شاطئ تبدو عتيقة وقديمة المظهر، قام بتدويرها تحت إحدى بوابات الدائرة الحجرية وسط الطين، وسأل بعد ذلك:

-ويل، هلَّا تبدأ أنت من فضلك؟

قال الصبي:

-نعم، هذا من دواعي سروري.

كان صوته أعمق مما توقعت، ولعينيه لون السماء ذاته من فوقنا، كانتا كالعاصفة الزرقاء، وقد كان أيضًا طويل القامة ونحيفًا مثلي، لكن جسده بدا مختلفًا، فقد بدا قويًّا وبه عزم بالرغم من نحوله الشديد. اقترب من السجّاد واستلقى عليه حيث أصبح رأسه أسفل القوس الحجري تمامًا، ثم فتح كتابه ودفعه على وجهه، من جهة الغلاف، تعرفت فيه على صورة كلب ضخم، قال:

-كلب عائلة باسكرفيل.

إن «كلب عائلة باسكرفيل» كانت رواية لشيرلوك هولمز على حد علمي، وقد عرفت القصة لأنني كنت قد حصلت عليها هديةً في احتفال عيد الميلاد قبل أربع سنوات، ومع ذلك، لم يبدُ الكلب مخيفًا تمامًا في كتابي في ذلك الوقت، بينما حين كنت أنظر إلى الغلاف في يد ويل، تحرك فجأة إلى أسفل قليلًا وسقط الكتاب على السجّاد، وللحظة توهَّجت الصفحات.

حرَّكت جفوني، لا أصدق، هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًّا! رمشت مرة أخرى لأنني لم أفهم ما كنت أراه، لكنه بقي على هذا النحو؛ لقد اختفى ويل، الكتاب فقط كان لا يزال قابعًا وحيدًا في الدائرة الحجرية.

قلت مذهولة:

-ماذا حدث؟

فأوضح لي جلين:

-هذه الحجارة تشكل البوابة، وأنتم تمثلون المدخل إلى عالم القصص.

قلت:

-لكن...

ولم أستطِعْ إكمال الجملة، فلم يخطر ببالي حتى الآن أن ما حدث أمام عينيَّ هو حقًّا أن ويل قد اختفى في الهواء بين ثانيتين. قالت بيتسي مبتسمةً بغطرسة واضحة:

-إنه موجود في كتابه على العموم لم يختفِ، لا داعي للذعر، هذا طبيعي جدًّا بالنسبة إلينا.

فتحت فمي وأغلقته لأنني لم أعرف بماذا أجيب، وضع جلين يده على ذراعي واستدرك:

-أعلم أنه من الصعب عليكِ تصديق هذا، لكن هذه هي ميزة عائلاتكم، بين سن الخامسة والخامسة والعشرين، يمكنك القفز إلى الأدب بين الكتب ومعرفة كل شيء موجود هناك بين السطور ومعايشته. يتحمل كل واحد منكم مسؤولية خاصة عن كتاب معين في الفترة التي تسبق التخرج، في السنوات التي تلي ذلك، تستخدم مهاراتك لحماية العالم الأدبي بأكمله، بيتسي، على سبيل المثال، تهتم بكتاب القصص هذا منذ أن كان عمرها عشر سنوات، ستقفز الآن إلى أسطورة بياض الثلج.

رفعت بيتسي الخصلة المنسدلة على جبهتها وهي تقول:

-أحد الأقزام يسبب المشاكل، لقد تبلورت فكرة في رأسه أن يترك الآخرين ويفتح محل آيس كريم، كنت أحاول أن أجعله يعود إلى رشده منذ أسابيع، بدت لي بياض الثلج والأقزام الستة أغبياء حقًّا.

قلت:

-هكذا إذًا.

وفي داخلي قلت:

-هل يمزحون معي هنا أم ماذا؟

جلست بيتسي على عرض السجادة وفتحت كتابها، ثم قالت:

-والآن سوف نذهب مرة أخرى بناءً على رغبتنا، لا تقلقي يا آيمي، ربما لن يحدث لكِ الشيء ذاته مطلقًا، لم يكن هنالك من قبل قافز في الكتب قد بدأ التدريب وهو في مثل عمرك، ربما فات الأوان على ذلك بالنسبة إليك على أي حال.

قال جلين وهو يشجعني بابتسامة:

-حسنًا، سنكتشف ذلك خلال لحظة، أليس كذلك يا آيمي؟

هزت بيتسي كتفيها ووضعت كتابها الذي كُتبت فيه الأسطورة مفتوحًا على وجهه، بعد لحظة قصيرة اختفت هي أيضًا، وكل ما تبقّى هو حفيف الصفحات وهي تهبط وحدها على الحصير؛ ما جعل لعابي يجفّ تمامًا من المشهد الذي رأيته.

همست:

-القافزون في الكتب؟ هل قفزوا حقًّا في الكتب؟

بدا لي ذلك كله كقصة سخيفة للغاية، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقةً بأي حالٍ من الأحوال.

قال جلين:

-نعم، والآن حان دورك، فقط افتحي الكتاب عند الصفحة التي تريدين القفز فيها، وحاولي أن تفعلي مثلها بالضبط.

قلت له:

-لا أعرف في الواقع.

ثم فكرت هل هذه هي مجرد خدعة غبية أم طقوس للقبول في جماعة سرية؟ هل يختبئ كل من ويل وبيتسي مثلًا في الأدغال ويصوراني بكاميرا هاتف محمول أثناء خداعي كحِيَل الكاميرا الخفية؟

فسَّر جلين تردّدي بشكل مختلف تمامًا عن أفكاري فقال:

-سوف تتمكنين حتمًا من فعل هذا، لا تخافي من الفشل، أنا لا أعتقد أن بيتسي على حق، بالرغم من كل شيء، فأنت سليلة لينوكس، بالإضافة إلى ذلك، يمكنك العودة فورًا إذا كنتِ خائفةً، كل ما عليك فعله هو العودة إلى الصفحة التي قفزت فيها بدءًا.

تمتمت بلا حول ولا قوة وكأنني أهذي:

-لكن كيف... وإلى متى؟ وماذا يفترض أن...

لم أكمل جملتي وأنا مقتنعة أن كل ذلك كان جنونا محضا! لا يمكنك أن تختفي بين لحظة وأخرى ثم تعاود الظهور كشخصيّة من كتاب!

تنهّد جلين عندما رآني لا أتحرك وقال:

-لا يمكنني أن أشرح لك ذلك أيضًا يا آيمي بشكلٍ عملي ما لم تجرّبي، لكن عائلتك كانت تفعل ذلك منذ قرون، إنها تجربة تحدث بكل بساطة على نحو ما.

ثم أضاف مبتسمًا:

-حتى الآن قد عاد الجميع إلى الواقع من رحلاتهم في الكتب، لا داعي للخوف، حتى إن والدتك قد حرصت على تحقيق أول قفزة

لك من خلال قصة آمنة تمامًا، جرّبيها، وألقي نظرة حولك، وعودي بعد ذلك إلى النقطة التي انطلقت منها عندما تشعرين بأنكِ اكتفيت من التجربة اليوم، وسنرى إذا ما كنت ترغبين في مواصلة القفز في الكتب أم لا.

نظرت أولًا إلى السجادة الموجودة في الممرّ ثم إلى جلين، بحثًا في عينه السليمة عن دليل على أنه كان يكذب، لكنني لم أجد هذا الدليل المرجو، هل كان جادًّا حقًّا بشأن ذلك؟ هل يحصل أفراد عائلتي بالفعل على تلك الهبة الخاصة؟ هل أنا أيضا لديَّ القدرة حقّا على السفر في الأدب؟ كانت الفكرة سخيفة ومغرية في الوقت نفسه. لقد زُرت حتى الآن عالم القصص التي فتنتني كثيرًا في مخيلتي، ولكن ماذا إذا كانت هناك طريقة للدخول إليها فعليًّا؟! وبالفعل بدأت أتحسّس بأصابعي الجلد الأحمر الناعم في يدي والمسافات بين الكلمات البارزة الدقيقة حيث نُقش العنوان: كتاب الأدغال.

لم أكن قد توغلت في أي أدغال في حياتي من قبل، خاصة في وجود الدّبّ المسمّى بالو، فتسللت ابتسامة إلى شفتيَّ تبعت التخيُّل.

أومأ جلين برأسه وهو يقول:

-فقط حاولي.

ثم أشار إلى الحصير.

استلقيت عليها كما فعل الآخرَان، رأسي أسفل القوس الحجري، من الصعب تصديق أنني فعلت ذلك حقًّا، لقد كان تمام الجنونَ، ووجدت نفسي أضحك بعصبية، ومع ذلك فتحت الكتاب

ودفعته إلى وجهي، انزلقت الورقة برفق على وجنتي وظَهْر أنفي وغطت بصري، بلغت مني الحروف قُربًا منعني من قراءتها، ثم طُمست في دوامة من حبر الطباعة أمام عيني. دارت الحروف بعضها حول بعض وأصبحت مشوهة، الكلمات تلتوي وترقص حتى تحولت إلى ما يشبه الشجيرات والنباتات المتشعبة، ثم بدا الأمر كما لو أنها كانت تُمطَر عليَّ، وكان ذلك مطرًا من الكلمات يتساقط عليَّ.

بعد برهة قصيرة، وجدت نفسي بين جذور شجرة في غابة، انفجرت كل درجات اللون الأخضر حولي، تناثرت النباتات المتسلقة حول جذوع الأشجار، وانتشرت نباتات السرخس بينها. كان الهواء دافئًا ورطبًا ورائحته عطرة تشبه رائحة الزهور البرية الغريبة على أنفي، رنّ صوت ضحك الأطفال بجواري.

جلست وأزحت نملة كبيرة الحجم عن ركبتي، ثم زحفتُ عبر الأدغال باتجاه الأصوات، كان الغطاء النباتي كثيفًا، لكن بعد بضعة أمتار رأيت مجموعة من الذئاب بين السراخس، بالمعنى الدقيق للكلمة، كان هناك حيوانان ضخمان ذوا فراء رمادي فضي يتحدثان بهدوء، ومجموعة كاملة من الجراء عند أقدامهما، تلعب بسعادة مع طفل بشري عارٍ لا يمكن أن يكون عمره أكثر من عامين. ماوكلي!

كانت هذه بداية كتاب الأدغال، كانت عائلة الذئب قد وجدت ماوكلي وحيدًا في الغابة وقرَّرت تربيته، وكنت في منتصفها تمامًا! أُصِبت بالدوار، لم أقرأ الكتاب بعد، لكنني أعرف القصة من نسخة ديزني. عندما كنت طفلةً، كان هو أحد أفلامي المفضلة، هل كان النمر باجيرا على وشك الظهور؟ أم بالو الدّب؟ هل يغنّي كما في

الفيلم؟

هل نذهب معًا إلى مدينة القردة الغارقة؟ هل أستطيع أن أفهم لغة الحيوانات وأتحدث معها؟ يا للهول! لقد قفزت حقًّا في كتاب! تسابقت أفكاري عندما اقتربت من عائلة الذئب وماوكلي، على عكس ماوكلي الخاص بنسخة ديزني، كان لدى الأخير شعر مجعّد ولم يكن يرتدِي سروالًا للسباحة لونه أحمر.

ولكن بينما كنت على وشك أن أخرج من بين الشجيرات لأحيِّيَ الذئاب بقول مرحبًا، كيف حالكم؟ اصطدم بي شيء ما فجأة على ظهري، لقد تجمدت حركتي؛ لأن هذا الشيء كان ثقيلًا وليّنًا ودافئًا فانتابتني الريبة السابقة للذعر، إنه كنوع من الكفوف، استدرت بالحركة البطيئة و...

... وجدت أحد الحيوانات آكلة اللحوم يحدّق بي، إنه النمر شيرخان، ثُبِّتت عيناه اللتان تشبهان عيون القطط الصفراء على وجهي، وخطر لي فجأة أن القصة تدور في الأساس حول هذا النمر الذي يصطاد ماوكلي ويريد أن يأكله؛ لأنه يخاف الناس وبنادقهم، ولأنه كان نمرًا والنمور تأكل الناس في البرية كالعادة.

كشف شيرخان عن أنيابه، فاصطدمت أنفاسه بوجهي، لقد فهمت الآن سبب إصرار أليكسيس على كتاب أطفال غير ضار من أجلي، لكن لسوء الحظ لم تكن تلك الحيوانات على ما يبدو غير ضارة تمامًا. إذا صرخت طلبًا للمساعدة، فهل تمكن الذئاب من إنقاذي؟ أخذت نفسًا عميقًا، لكن قبل أن أتمكن من إحداث أي صوت، وضع النمر مخلبًا على شفتيه.

هل قلت حقًّا:

-«وضع مخلبًا على شفتيه»؟

همس شيرخان:

-يجب عليكِ ألا تُحدِثي أي تغيير في الأحداث، أيتها القارئة.

كان صوته أكثر بقليل من خرخرة منخفضة وهو يستطرد:

-إذا رأتك الحيوانات فلن تُبقي على الطفل البشري، وستحملين الذنب طوال حياتك في رقبتك، ستذهب قصتنا بأكملها إلى البالوعة.

حدَّقت في النمر مذهولة من أنه يمكنه التحدث وقلت:

-يا للصاعقة!

أمال النمر رأسه العظيم وهو يهمس لي:

-ليس بصوت عالٍ، لقد شرحت لكِ ذلك للتو! والآن تعالي معي.

بدأ الكائن الذي ينتمي إلى فصيلة القطط الكبيرة في التحرك وبعد لحظة تبِعْته عبر الغابة، كم كان حجمه هائلًا!

هل من المحتمل أن يكون شيرخان قد استدرجني بعيدًا عن أطفال الذئب الهائج، لكي أتحول إلى طعامٍ مريحٍ له في مكان ما في الغابة؟ هل كان من الممكن أن أموت في القصة أم أنني كنت محصّنةً بما أني زائرة من الخارج؟ تحت المعطف الطبيعي المخطط الذي يرتديه النمر بدت العضلات المفتولة مثيرة للإعجاب، في حين أنه كان يتسلل

دون أن يُحدث أي صوت، وعلى عكسه تمامًا كانت خطواتي تتسبب في انبعاث أصوات هي خليط من تكسير الأغصان وحفيف أوراق الشجر، وكنت بعيدةً تمامًا عن التشبُّه برشاقة رفيقي. إذا كان سيهاجمني حقًّا، فلن تكون لدي أي فرصة للنجاة.

لكن مع كل خطوة كان خوفي يذوب قليلًا تحت مظلة الغابة، جعلني أكثر هدوءًا التفكير في أن شيرخان كان من الممكن أن يقتلني منذ فترة طويلة، لكنه لم يفعل ذلك بعد، إلى جانب ذلك، لم أستطع تخيُّل أن يأكلني كائن كنت أتحدث معه للتو.

قادني النمر إلى أرض خالية حيث ترقد شجرة ساقطة، فجلست عليها. استلقى شيرخان بجواري، ورأسه على قدمه الأمامية، يلعق ذيله ذهابًا وإيابًا بين السرخس.

قال لي:

-أنا شيرخان.

عرّفت نفسي بدوري قائلة:

-وأنا آيمي، أعتذر إليك، لم أدخل إلى كتابٍ من قبل وليس لديَ فكرة عن...

قال النمر:

-لا بأس، أريد أن أخبرك الآن أن هذا هو قانون الغاب، ولكنه ينطبق على عوالم الكتب كلها: لا يجوز للقرَّاء التدخل، تحت أي ظرف من الظروف، عليك دائمًا البقاء على الحافة، بين السطور.

سألته:

-في الحبكة الهامشية، إذا جاز التعبير؟

أومأ شيرخان برأسه.

قلت:

-حسنًا.

ضربتني موجة جديدة من الإثارة الآن بعد أن أصبحت واثقةً من أن النمر لن يؤذيني.

وأكملت:

-ما هي أفضل طريقة للقيام بذلك؟ بالمناسبة، أنا سعيدة جدًّا بلقائك، هل تعرف أين يمكنني أن أجد بالو وباجيرا؟ في أي اتجاه تكون مدينة القردة؟ هل أنت حقًّا تخاف من النار بشكلٍ هائل؟

تنهّد النمر وزفر زفيرًا حارًّا ثم أجابني:

-من الأفضل طرح أسئلتك على شخص ما في عالمك الخارجي، خلال صفحتين سيَقْدُم ماوكلي إلى مجلس الذئاب، وسأجلس في الغابة مطالبًا بتسليمه، بهذه الطريقة يعود إلى قطعة الأرض وإلى الشجرة التي ستعيدك إلى المنزل.

بعد تلفُّظه بتلك الكلمات القليلة الأخيرة، كان قد دخل بالفعل في مجموعة النباتات المتشابكة.

جلست على جذعي للحظة، هل يجب أن أتبعه وأعود إلى سترومساي؟ أم...

حملتني قدماي في الاتجاه المعاكس كما لو كانتا تسيران وحدهما، كانت هذه الرحلة مثيرة للغاية حتى إني لم أرغب في أن تنتهِي، لقد تحدثت إلى النمر شيرخان! كان كل شيء لا يصدّق، عظيمًا بشكل لا يصدّق! ربما سأتمكن قريبًا من الركض خلف سلحفاة مومو كاسيوبيا، كما تخيلت دومًا، وبينما كنت أشق طريقي أعمق موغلةً في الغابة، كان هناك الكثير من القصص التي أردت تجربتها وكنت أتوق إلى التعرف على العديد من الشخصيات، لكن في الوقت الحالي، كان من الممكن أن يكون الرقص في مدينة القردة كافيًا بالنسبة إلي.

بالطبع لم تكن هنالك طرقات في الغابة؛ ولذا فقد تسلَّقت جذوع الأشجار العملاقة والصخور وشققت طريقي بين السرخس والنباتات المتسلقة حتى تضاءل الغطاء النباتي تدريجيًّا، وبدلًا من أن أرى مدينة غارقة أو قرية سكان محلّيّين، أفسحت الأشجار الطريق عن منظر طبيعي مختلف تمامًا.

أصبح الهواء أكثر برودة وجفافًا في لحظة واحدة، وبدا لي أن طريقًا رمليًّا يمرّ بين الحقول والمروج. ومن بعيد، رأيت طاحونة هوائية وفارسًا كان يركض نحوها ورأسه منخفض، كان أمامي مفترق طرقات تتوسطه لافتة على شكل سهم يشير إلى الاتجاه الذي أتيت منه، وقد كُتِب عليها بحروف مزخرفة «كتاب الأدغال»، ثمّ بانت المزيد من الطرقات المتفرّعة، سهم يشير إلى اتجاه دراما أخرى لشكسبير، وسهم الى دونكيشوت، لافتة لأَليس في بلاد العجائب،

وتفرّع يؤدّي إلى الحالة الفريدة لدكتور جيكل والسيد هايد.

هذا إذًا نجاح باهر! من الواضح أنني وصلت إلى حافة كتاب الأدغال ويمكنني الآن تحديد القصص التي سأنتقل إليها بعد ذلك.

كنت على وشك القيام بزيارة للقاتل المصاب بالفصام جيكل-هايد عندما اكتشفت سهمًا آخر، لقد كان أقصر من الآخرين وقد كتب أحدهم عليه كلمة واحدة، على نحو مرتجل، كما لو أنها تعرّضت لمحاولة محوٍ، كانت هذه الكلمة «سطر»، لم أسمع عن هذا العنوان من قبل، أي مؤلف جدّي قد يسم كتابه بسطر؟

الطريق الذي يجب أن يؤدي إلى هناك بالكاد يستحق هذا الاسم، لقد كان أقرب إلى مسلك محفور بين الصخور منه إلى طريق، كانت الأنقاض في كل مكان، ولكن مهلًا، على الأقل كنت قد زحفت عبر الغابة حتى تجاوزتها، وأنا الآن أشعر بالفضول الشديد. دون مزيد من اللغط، بدأت التسلق، كان العنوان الغريب يطاردني عندما أحرزت تقدمًا جيدًا ومدهشا، بل يمكن أن يكون مثاليا بالنسبة إلى واحدة مثلي تعوّدت على التعثر في المشي، أو الانزلاق على الصخور غير المهدة، لكن يبدو أن هذه الأنقاض الأدبية كانت تعني لي شيئًا مميّزا.

سرعان ما أدّت الصخور إلى ممرّ ضيّق، قمت بالتسلق إلى قمته، كان التراب المتحجّر يتفتّت تحت قدمي فيتردَّد صدى خطواتي على الجدران الصخرية. في مرحلة ما ظننت أنني سمعت أصواتًا بعيدة، هل كنت أقترب من القصة التالية؟ منذ متى وأنا على الطريق؟ هل مرت خمس دقائق على حديثي مع شيرخان أم ساعة؟ فقدت القدرة على قياس الزمن.

وأخيرًا تحول المسار، ورأيت رجلًا عند آخر الطريق، رغم تأكُّدي من وجوده، كان عليَّ النظر عدة مرات لرؤيته؛ إذ كان يرتدي جوارب حريرية مع حذاء بكعب عالٍ وشعره مربوط في جديلة بشريط مخملي، أخفى وجهه خلف ركبتيه ولف ذراعيه حول رأسه لحماية نفسه من النساء الثلاث الأكبر سنًّا اللائي كُنَّ يُحلِّقن حوله في عباءات ممزقة ترفرف، استمررنَ في حكِّ ذراعيه بأظافر طويلة.

صرخت إحداهن:

-السلام عليك أيها الشاب فيرتير.

صاحت الثانية:

-ستجد السعادة مع لوت.

وقالت الثالثة:

-ستتزوجها قريبًا.

تقوقع الرجل أكثر حول ذاته، وأصبحت كتفاه ترتجفان تحت السترة المطرَّزة، اختلط النحيب بعواء النساء العجائز اللائي يُحِطنَ به، حتى قال بصوتٍ مختنق:

-اذهبنَ بعيدًا عني.

لكن هذا لم يُثِر انتباه المحيطات به، قالت الأولى مرة أخرى وهي تقترب منه أكثر وكأنها تحلِّق حوله:

-السلام عليك.

رن صوتها عبر الوادي؛ ممّا جعل الجدران الصخرية تهتز، فتناثر

الغبار وفتات الصخور هنا وهناك. لقد جعلت ضحيَّتهن يبدو أصغر ممّا هو عليه، ولم يحاول حتى مواجهتها.

ومرة أخرى قالت الأولى:

-السلام عليكِ يا عروسي الشابة.

لقد كنتُ مفتونةً جدًّا بالمشهد حتى إنني نسيت الانتباه إلى الطريق وانزلقت قدمي على إحدى الصخور الكبرى، بعدها تعثَّرت بالقرب من الرجل المتذمر ومعذِّباته، ولكن تمكنت من تدارُك نفسي. صمتت النسوة العجائز على الفور وبدلًا من الاستمرار في مضايقته حدَّقن بي بعيون دامعة. كان شعرهنَّ يخرج من تحت عباءاتهن الممزقة وكأن لهذا الشعر حياة خاصة به.

ازدردت لعابي متوترة، وقلت شيئًا ما بدا لي غامضًا على غرار «مرحبًا»، ولكنني ابتلعت الكلمة. نظرت العجائز الثلاث إليَّ في شكل تهديد، وبكى الرجل. الآن بعد أن أصبح الاهتمام مُصوَّبًا نحوي، شعرت نوعًا ما بأنني مضطرة لمساعدة الرجل المسكين على جانب الطريق، وقلت متردِّدة:

-ألا... ألا ترون أنه ليس على ما يرام؟ اتركْنَه لحال سبيله أفضل.

ابتسمت أكبرهن عمرًا ابتسامةً لعوبٍ وقالت:

-أنت شجاعة حقًّا!

بينما زمجرت الثانية وعادت الأولى تقول:

-هل أنتِ قارئة؟

قلت وأنا أهز كتفيَّ:

-نعم، ومن أنتن؟

ضحكن بشدة، حتى صرخت الثالثة:

-هل تريدين أن تعرفي حقًّا، هل أنتِ واثقة؟

ثم ارتفع صوتها أكثر وهي تقول:

-هيا يا أخواتي، حان وقت جرعتنا.

كُن ما زِلن يضحكن وهنَّ يرتفعنَ بأنفسهن في السماء وينطلقن.

رفع الرجل رأسه من بين مرفقَيه وغمهم:

-شكرًا لكِ.

أجبته:

-لا عليك، أتمنى ألا أكون قد تسببت في تغيير أحداث القصة بتدخلي هذا.

فقد حذَّرني النمر العملاق للتوِّ من التدخُّل في مجرى القصة، عضضت شفتي وأنا أفكر في ذلك.

لكن الرجل لوَّح لي نافيًا:

-لا، لا، هذه أرض محايدة لا تخص أحدًا، كنت في طريقي إلى قصتي عندما وجدنني، هن في الأساس غير ضارات خارج كتبهن، إنهن يستمتعن فقط بتذكيري بمعاناتي، كما تعلمين.

-لماذا؟

-اممم، لأنني فريسة سهلة، على الأرجح هذا هو السبب.

وقف الرجل وهو محرج على ساقيه المدعومتين وأخذ منديل دانتيل، كان وجهه أصغر مما توقعت، مسح أنفه بالمنديل ونظر إليَّ من تحت رموش عينيه الطويلة ثم قال:

-معذرة، لكن هل أنت آنسة آيمي؟

-نعم هي أنا، كيف عرفت اسمي؟

-لأكون صادقًا، نصف القصص الخيالية تبحث عنك، يقال في العالم الخارجي إنهم يخشونَ أنك لن تعودي من قفزتك.

وضعت شعري خلف أذني وأنا أقول:

-إذًا من الأفضل أن أثبت أنهم مخطئون.

بعدها قفزتُ مرة أخرى من الغابة العملاقة الخاصة بي، وهبطت مرة أخرى في الدائرة الحجرية، كانت تعبيرات بيتسي وجلين المقلقة تنتظرني بالفعل هناك، فقط ويل كان يقف على حافة التل، بدا شاحبًا بشكل لافت للنظر، ويداه تمسكان بكلب باسكرفيل بإحكام شديد إلى درجة أن أحد الأوردة كان يبرز من تحت جلده، ذهبت نظرته إلى مسافة بعيدة، ولا يبدو أن قفزتي وعودتي قد لفتت انتباهه على الإطلاق.

ومع ذلك، اندفع الاثنان الآخران نحوي على الفور.

قال جلين متلهفًا:

-أخيرًا عُدت، أنتِ على ما يرام؟ هل أنت مصابة؟

وراح ينظر إليَّ من أعلى إلى أسفل.

-في الواقع أنا، أنا...

قاطعتني بيتسي موجِّهة حديثها إلى جلين:

-لقد فات الأوان بالنسبة إليها، إنها أكبر سنًّا من أن تبدأ بالتدريب، قد ينجح في ذلك ماكاليستر، لكن لينوكس...

استوقفها جلين قائلًا:

-لم يفُتِ الأوان يا بيتسي... فقط تأجل أوانها.

-على أي حال، لن يستفيد أي شخص بأي شيء إذا علقَتْ عند نقطة قفزت إليها لساعات ولا تستطيع حتى التحرك منها. كيف يجب أن تتعلم التحدث إلى الشخصيات؟ دعها تقضي عطلتها هنا هي ووالدتها ثم تعودان إلى ألمانيا، لا يمكنك تغيير الواقع بأي شيء.

قلت وأنا ألتقط كتابي من على السجادة:

-بالمناسبة أنا لست عالقةً، بل تحدثت أولًا إلى النمر شيرخان، ولكن لأنه اضطر إلى العودة إلى الأحداث أصبحت وحدي، وفي وقت ما توقفت الغابة ووجدت علامة و...

صرخ جلين بسرعة:

-هل تركت كتاب الأدغال؟

امتعضت بيتسي وهي تحك أنفها وتقول:

-لا يُسمح للطلاب القيام بذلك أبدًا.

كان يُومض في عينيها شيء ما أعرفه جيدًا، رأيته أيضًا في زملائي في

ألمانيا؛ إنه الحسد والغيرة، لكنها حاولت إخفاء ذلك.

عقد جلين ذراعيه على صدره وتمتم:

-حسنًا، يبدو أنك موهوبة بالفعل، ومع ذلك يجب أن أتفق مع بيتسي في هذه النقطة؛ من المبكر جدًّا والخطير جدًّا بالنسبة إليك أن تستكشفي عالم الكتب خارج كتاب التمرين.

أومأت بيتسي برأسها بلهفة موافقة، بينما نظر ويل إلينا وقد أخذ يراقبني باهتمام.

بدأ الوحش، بحجمه الهائل، يتسلّل خارج كهفه.

بهدوءٍ تام، بهدوءٍ شديد.

ولم يلاحظ أحد.

(3)

علكة لأوليفر تويست

كان الكوخ في المستنقع صغيرًا جدًّا، يتكون من غرفة واحدة، كبيرة بما يكفي لاستيعاب الأريكة الإسفنجية والموقد المشتعل، وصل سقفه المصنوع من القش إلى الأرض تقريبًا، ظهر العفن بين سيقان القش سامحا للمطر بدخول الكوخ بمجرد أن يبدأ في الهطول. وعندما تكون العاصفة في أشدها، كانت الرياح تتدفق عبر ألواح النوافذ المتصدعة، وبالرغم من كل ذلك ما يزال ويل مغرمًا بحب منزله.

الحقيقة أنه لم يكن منزله، بالطبع؛ كان ويل هو ابن شقيق ريد ماكاليستر (لورد سترومساي)، وكانت العائلة تقيم دائمًا في قلعة ماكاليستر، تلك القلعة الواقعة في شمال الجزيرة. لم يكن الأمر أقل خطورة، ومع ذلك، عندما عادت بيتسي ومربيتها العجوز مرة أخرى وأخبرتا ويل إلى أي درجة وصل السوء الذي أحدثته الأسرة بوالده، وجَّه ضحكة مكتومة اختلطت بزئير الموقد الصغير، ثم بدأ بالتذمر أمام المدفأة بوضوح وأمام قاعة الفارس في القلعة.

لقد أحضر كل كنوزه إلى هنا منذ زمن ، احتفظ بكتبه المفضلة في

صندوق، وجعله محصورًا بين الأريكة والحائط، الكتب ومعها الألبوم الذي يحتوي على صور من زمن غابر، كانت ذكرياته غامضة مثل شذرات حلم باهتة، كان في الخامسة من عمره عندما غادر والديه، لقد مرَّ اثنا عشر عامًا حتى الآن.

لكنه اليوم لا يريد أن يتذكر الماضي البعيد، كان يكتفي بأن يحصل على تفاصيل كافية عن الأمس فقط ليستطيع إنعاش ذاكرته؛ لأن شيئًا ما حدث بالأمس، ربما كان شيئًا فظيعًا.

ثبَّت بصره على الحائط الملطخ فوق الموقد، كان الأحمر متورّدا بشدّة على الجبس الطيني، كانت بضع قطرات قد سالت مثل الدموع التي لم تجف بالسرعة الكافية، لكن هذا اللون لم يكن مصنوعًا من الماء، وهو لا يريد أن يفكر ممّا صُنع حقًّا.

شُكلت كلمات يُمكن قراءتها على الحائط، لونها بنّيّ عند الحواف، الكلمات هي:

لقد استيقظت

فجأة بعد ظُهر الأمس كانت هذه الكلمات هناك بالفعل، بعد أن أخذ ويل قيلولة قصيرة على الأريكة اكتشف وجودها عندما استيقظ، هل يجب أن يكون تحذيرًا؟ أو نوعًا من التهديد؟ من يا ترى كتب هذه الكلمات هناك؟ هل كانوا هناك قبل أن يستلقي؟ ماذا يقصدون؟

ركض ويل إلى الدائرة الحجرية وجلب أفضل صديق له.

إنه هولمز بالطبع!

كان ذلك ممنوعًا عليه، لكنها لم تكن المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك.

وبدا أن لدى هولمز شكًّا ما، راح يحدق في الكتابة لفترة طويلة وتمتم أخيرًا:

-لم يكن هذا موريارتي، لا.

ثم خرج إلى العاصفة، ربما لتنظيم أفكاره، لم يَرَهُ ويل مرة أخرى منذ ذلك الحين، ظل هو والكلب يبحثان عنه طوال المساء واستسلما في النهاية لاختفائه. كان يأمل أن يكون شيرلوك قد عاد إلى المنزل ليعزف على الكمان، أو يجرب أدوية التخدير، أو أي شيء آخر يحبه.

لكن اليوم، عندما قفز أثناء المحاضرة مع جلين، وجد ويل الكتاب فارغًا، ما زال لا يصدق أن هولمز لم يعد إلى عالم الكتب، لكن يبدو أن المحقق الرئيس قد اختفى في الهواء.

ولهذا كان ويل جالسًا هنا الآن، يحدق في الحائط.

قالت السيدة مايريد:

-تفضلي واحدة أخرى يا آيمي.

ثم أضافت وهي تدفع صفيحة البسكويت بالقرب مني:

-تم خبزه منذ فترة نسبيًّا، ولكن عندما تضيفينه إلى الشاي الخاص بك، فإن مذاقه يكاد يكون مثل المخبوزات الطازجة.

كلانا يعرف أنها كانت تكذب، كان البسكويت الذي تُقدمه ضخمًا، وليس البسكويت كما عرفته في ألمانيا، ولكنه قطع جافة بسُمْكِ

سنتيمترات، بحجم كف يدي، وعلى الرغم من أن القطعة الأولى التي تناولتها كانت بالفعل كحجر في معدتي تسحبها إلى أسفل، أخذت قطعة ثانية. منذ رحلتي إلى كتاب الأدغال، كانت السيدة مايريد ودودًا للغاية في تعاملها معي وكنت مؤدّبةً للغاية حتى إني لم أستطع ازدراء معجناتها. انتشرت سحابة من الغبار في فمي وأنا أحاول أن أقضـم قطعة.

ابتسمت جدتي بارتياح واستندت إلى كرسيها، جلسنا نتناول الشاي بعد الظهر في الحديقة الشتوية، حيث تناولنا الإفطار أيضًا. قط كبير اسمه ماكبث كان متكوّرا في حضن السيدة وكان يموء، قالت جدتي وهي تحكُّ أذنَي ماكبث:

-للأسف، لم نعد نذهب للتسوق كثيرًا كما اعتدنا، لكن الشيء المطلوب هو أن تحصلي على شيء لائق لنأكله، يبدو أن نظام أمك النباتي لا يناسبكِ بالمرة.

قالت ذلك وهي تقيس بيدها قُطر معصمي النحيف.

كنت أرغب في الرد عليها بأنه لم يكن المطبخ النباتي هو المسؤول عن شخصيتي وليس هو ما لا يناسبني، بل الطبيعة الشريرة من حولي. لكن البسكويت المليء بالغبار ثبّت لساني في سقف فمي وأصبح في تلك اللحظة يندفع بشكل مهدد نحو قصبتي الهوائية بينما كنت أحاول البلع. على الرغم من أنني تمكنت أخيرًا من بلعه بكوبين من الشاي، فإنني سعلت لمدة دقيقة كاملة بعد ذلك.

في هذه الأثناء، كانت السيدة مايريد تتحدث مرة أخرى عن المكتبة

السرية، حيث يعمل جلين وزميلاه الآخران، اللذان قابلتهما في طريق العودة إلى الفصل الدراسي، وهما ديزموند وكلايد، وكانا يرتبان فوضى الكتب. هما أيضًا كانا يرتديان رداء الراهب ولديهما الندوب ذاتها على وجهيهما.

قام كلايد بفهرسة المقتنيات، بينما كان ديزموند يقوم بالاعتناء بأغلفة الكتب، وكان أكبر مني ببضع سنوات فقط، عمره عشرون على الأكثر، هكذا حدست.

قالت لي السيدة مايريد وهي تبتسم:

-يا للذكريات! كانت تلك الأيام عندما كنت صغيرةً، لقد قفزت إلى مئات القصص، موهبة عائلتنا ثمينة للغاية يا آيمي، نصيحتي لكِ أن تستخدميها لأطول فترة ممكنة.

سألتها حين تمكنت من فتح فمي أخيرًا والتحدث مثل البشر:

-هل كان حادثًا؟

رفعت السيدة مايريد حاجبيها وقالت:

-ماذا؟

-أقصد أمناء المكتبة، عين جلين والإصابات في وجهه.

نظرتْ في فنجانها بينما رفع ماكبث رأسه ونظر إليَّ، ثم قالت:

-أها... هذا ما تقصدينه؟ نعم.

ولأن جدتي لم تتخذ أي خطوة لتقول المزيد، تناولت قضمة أخرى من البسكويت، والتي بدا أنها تتضخّم أثناء مضغها

بدلًا من التقلص. كان هناك هجوم آخر من الاختناق يلوح في الأفق، لكنني كنت غبيةً أيضًا حين واصلت تناولها، حتى إن فكَّيَّ قد شعرا بالحيرة.

كما لو كان يعلم أنني بحاجة إلى الإمدادات على نحو عاجل لغسل فتات البسكويت، دخل السيد ستيفنز إلى الغرفة وقدَّم قدرًا من الشاي الطازج، بينما استرخى القط مرة أخرى وارتاح في مكانه.

كنت بمزاج جيد في طريق العودة إلى منزل لينوكس، وكنت لا أستطيع أن أصبر على إخبار أليكسيس بما عايشته، حتى إنني عبرت المستنقع بسهولة وكأنه قد طار للتو من تحت قدمي، التقيت بأليكسيس في القصر عند المدخل، كانت تلتف في وشاح ومعطف. تدفقت مني الكلمات على الفور بكل حماس:

-لقد قفزت في كتاب الأدغال، حتى إن شيرخان تمكن من...

لكنها قاطعتني منهية سيل الكلمات الذي أراد التدفق من بين شفتيَّ قائلة:

-أنا ذاهبة في نزهة للسير يا آيمي، لنتحدث عن ذلك لاحقًا.

وفي الثانية التالية خرجت من الباب، منذ ذلك الحين وأنا أنتظر عودتها.

تحققت من ساعة يدي أثناء صب السيد ستيفنز الشاي مرة أخرى، كانت أليكسيس قد أصبحت في تلك اللحظة في الخارج لمدة ثلاث ساعات تقريبًا، لم تكن الجزيرة بهذا الحجم على كل حال ليتنزه فيها المرء لثلاث ساعات، فكرت: أتكون قد دارت حول الجزيرة عدة

مرات؟

قالت ليدي مايريد وهي تنظر في عينيّ:

-ليس من السهل على والدتك أن تقفزي في الكتب.

هززت كتفي وأنا أقول:

-لقد وافقتْ على المجيء إلى هنا بدايةً، وعلاوة على ذلك، أنا لا أفهم ما الذي تخشاه من القفز في الكتب، أعتقد أنه أمر رائع.

مرارًا وتكرارًا تذكرت المواجهات مع النمر والشاب والعجائز الثلاث، اللائي بعد أن فكرت في أمرهن افترضت الآن أنهن ساحرات. لقد دخلت عالمًا جديدًا تمامًا، عالمًا أفضل، حيث تتحقق الأحلام. وقد أزعجني في الأمر أنني لم أستطع إخبار أقرب المقربين لي بكل ما يدور في خلدي. عندما حاولت السيدة مايريد استجوابي بمجرد وصولي إلى القصر، هززت كتفيَّ فقط ولم أُطِل الحديث، على الرغم من كل شيء، أردت التحدث مع والدتي عن تجربتي أولًا.

قلَّبت السيدة الحليب في فنجان شايها وقالت لي:

- أعتقد أن أليكسيس قد قمعت لسنوات عديدة حقيقة أنّك أنت أيضا تتمتّعين بتلك الميزة، حتى كادت تصدق أنكِ حتمًا لا تملكينها، إنها خائفة ممّا قد تواجهينه في عالم الكتب.

-ولكن لماذا كل هذا الخوف؟

قالت جدتي بهدوء، كما لو أنها لا تريد أن يسمعها أي شخص آخر:

-حسنًا، لم تكن تجربتها الخاصة كقافز في الكتب هي الأفضل.

اعتدلت في جلستي وقلت:

-هكذا إذًا، ثم؟

-هل تعرفين رواية آنا كارنينا؟

قلت:

-أعرفها ولا أعرفها في الوقت ذاته، فأنا لم أقرأها حقيقةً، لكنني أعلم أن الأمر يتعلق بامرأة ينتهي بها الأمر بإلقاء نفسها أمام قطار.

أومأت السيدة برأسها وهي تستطرد:

- اختارت أليكسيس القصة كتابا للتدريب و...

قطع حديثها في تلك اللحظة دخول أليكسيس الحديقة الشتوية فالتزمت السيدة مايريد الصمت التام.

قالت أليكسيس دون أن تجلس:

-أردت فقط أن أخبرك أنني عدت وأحتاج إلى الاستلقاء، أعتقد أنني مصابة بالصداع النصفي.

ثم ذهبت مرة أخرى.

لكن قررتُ في هذه المرة ألا أتركها تفلت من الحديث معي بهذه السهولة.

وضعت الجزء المتبقي من البسكويت في جيب سروالي قائلة بسرعة:

-سأتناوله لاحقًا.

ثم أسرعت عدوًا خلف أليكسيس إلى الرواق.

كانت تسبقني بنصف مسافة الدَّرَج، وعندما اقتربت منها كانت تميل بجبهتها نحو النافذة وتنظر إلى المستنقع.

سألتها:

-هل أنت بخير؟

تلاشى غضبي من غيابها عني فجأة ولبضع ساعات، فاسحا المجال للقلق.

جفلت أليكسيس كما لو كنت قد ضبطتها تفعل شيئًا غير قانوني بل وتلعثمت:

-أوه، نعم، آيمي، نعم، لدي صداع فقط.

اقتربت منها خطوة، بدت شاحبة بالفعل، وكانت هناك ظلال داكنة تحت عينيها لم ألاحظها في ذلك الصباح، ربما لأنها كانت مخبأة بطبقة من المكياج، وبدت ذراعاها منزوعتي الطاقة على جانبيها بلا حراك، حتى رداؤها المحبوك ذو الألوان الزاهية بدا كما لو أن حجابًا رماديًا فوقه، لم تكن تبدو على ما يرام أبدًا، يا لغبائي! بالطبع لا! كيف نسيت؟

تركها دومينيك منذ ثلاثة أيام فقط، لقد انهار عالمها مثلما انهار عالمي ليلة الأربعاء حينما كانت جولينا قد وضعت الصور على الإنترنت. عالم تهاوى فقط لأنني قضّيت ساعتين في حلم لم يُغير من هذا الواقع في شيء.

وضعت ذراعي حول كتف أليكسيس وهمست لها:

-سوف ننسى كل شيء، لهذا السبب تحديدا جئنا إلى هنا، ستساعدنا سترومساي في ذلك.

بقيت أليكسيس صامتة.

في تلك الليلة حلمت مرة أخرى بالصور التي نُشرت لي وأنا عارية، لكن هذه المرة لم يتم إرسالها من هاتف خلوي إلى هاتف خلوي، ولكن تم تعليقها مثل ملصق إشهاري على جدار المكتبة السرية، بدلًا من جولينا وبول والآخرين من صفي، وقف كل من بيتسي ويل وجلين أمام الصور، سقط ويل من الضحك بينما تناقش كل من جلين وبيتسي حول صوري.

قال جلين بكل جدية:

-من المؤكد أنها لا تبدو هكذا حقًّا، لا بد أن الصور قد خضعت إلى الكثير من التعديلات، لا يوجد إنسان عادي يشبه تلك.

أجابته بيتسي:

-هراء! لقد التقطتُ الصور بنفسي قبل أيام في غرفة تبديل الملابس لحمّام السباحة، هي من عائلة لينوكس، ماذا كنت تتوقع؟ انظر فقط إلى الشكل الذي ترسمه أضلاعها البارزة، لا يمكنها أن تصبح قافزة في الكتب، فهي ليست أكثر من غُصَين جاف.

تعالت ضحكات ويل أكثر فأكثر، بينما بدأ جلين في الابتسام أيضًا.

أضافت بيتسي مشيرة إلى مكب نُفايات صغير كان ينمو فجأة في ركن من أركان الفصل:

-أود أن ألقي بها في سلة المهملات.

قال جلين وهو ينزع الملصق عن الحائط:

-نعم.

أثناء قيامه بذلك، لاحظت أنني لا أقف خلف الثلاثة، كما افترضت للتو، ولكنني موجودة داخل الصور، يبدو أنني كنت سجينة داخلها.

تابع جلين:

-علينا أن نشرح للسيدة أن آيمي لا تستحق التدريب.

مزَّق الصورة إلى قطع صغيرة ومزقني أنا داخلها أيضًا. في البداية شطر وجهي إلى نصفين، ثم جسدي ويدي وأصابعي، صرخت لكن لم يسمع صرختي أحد، تحوَّل الملصق إلى قطع أصغر وأصغر، وتحولت ذراعي ورجلي إلى قصاصات ورق. تشقق رأسي، ما تبقى مني انتهى به المطاف في الأوساخ النتنة.

صراخي أيقظني.

الملاءة عالقة بجسدي مبللة بالعرق، حدقت في ظلام سماء الفراش فوقي لاهثة، ألم يحدث ذلك حقًّا؟ لا أحد في الجزيرة – باستثنائي أنا وأليكسيس – يعرف أي شيء عن قصة الصور، لقد أخذني اللاوعي مرة أخرى إلى هناك، لقد كان مجرد كابوس سخيف، وقد حدث هذا

كثيرًا مؤخرًا.

ومع ذلك، فقد استغرق تنفسي بعض الوقت حتى يهدأ، لم أجرؤ على إغلاق عيني مرة أخرى، من كان يعلم أي هراء كنت سأحلم به بعد هذا؟ بدلًا من ذلك، مددت يدي لأخذ القارئ الإلكتروني الخاص بي وقمت بتشغيله، الضوء المنبعث من الإضاءة الخلفية كان يريح أعصابي.

قمت بالتجول عبر قائمة الكتب ووجدت فرصة لاستعارة كتاب أوليفر تويست لتشارلز ديكنزإلكترونيًّا من المكتبة الوطنية في ألمانيا؛ كنت قد قرأته بالفعل حتى النهاية تقريبًا، لكنني الآن عدت مرة أخرى إلى بداية الكتاب وتصفَّحت بضع جمل عن حياة أوليفر في ملجأ الفقراء دون الالتفات حقًّا إلى المحتوى. وها أنا قد عرفت مؤخرًا أن هناك طريقة أخرى للتمتُّع بالأدب غير القراءة وحدها، طريقة أكثر إثارة في الواقع، كيف سيكون الأمر لو قفزت في قصة أوليفر تويست؟ ماذا لو عشت معه حقًّا كل المغامرات في لندن القديمة؟ وكيف ستكون الرحلة هناك؟ وكيف سيمر الوقت في براثن عصابة اللصوص، خاصة أنني لم أذهب إلى لندن من قبل؟

وضعت القارئ الإلكتروني بعناية على وجهي، ولم يكن الأمر بهذه السهولة. قبل كل شيء، لم يكن هناك أي التواء، وكان هناك جانب واحد فقط يجب أن يكون متوازنًا على الأنف والجبهة، تخيلت كيف كان الوضع ظُهر اليوم، وكيف قفزت من الدائرة الحجرية إلى عالم الكتب، وكيف تشوهت الحروف ببطء أمام عيني، فكرت في كيفية

توسع لون الكلمات وتقلصه، وكيف تم دمج الجمل معًا، فكرت في الأمر بشدة إلى درجة أن الخطوط الموجودة على القارئ بدت فجأة وكأنها تتحرك أيضًا.

في البداية تمددت، ثم ركضت الحروف في قطرات عبر الشاشة، يتسرب بعضها إلى بعض، اختلط اللون البني مع درجات الخط الرمادية، كان لون الطاولة بُنيًّا من الخشب الخام.

فجأة كنت جالسةً تحت تلك المنضدة، محشورةً بين حشد من سيقان الأولاد الهزيلة في سراويل مرقعة، ركضت أطراف أصابعي عبر لوح الأرضية المتسخ، في حالة عدم تصديق، ورائحة العرق والأجساد غير المغسولة تفوح منها.

قال أحدهم في مكان ما فوقي:

-أنا على الدوام جائع جدًّا.

أوضح ولد آخر:

-بالطبع، جميعنا مثلك، فمن الذي يصبح شبعانَ بثلاث ملاعق من العصيدة فقط!

فقال ثالث:

-إذا استمر هذا الوضع، فلا يمكنني ضمان أي شيء، ربما سآكل واحدًا منكم أثناء نومي الليلة.

-هذا زائد عن الحد حقًّا! سأسأل إذا ما كان بإمكاني الحصول على حصة ثانية.

-أنت لا تجرؤ على القيام بذلك على أي حال.

-لا، ولكن على أحدنا أن يفعل ذلك وإلا فسنموت هنا.

-نعم، أنت محق.

-قبل أن نموت.

-من الأفضل أن نذهب الآن.

شكوكي الأخيرة حول سؤال «أين أنا؟» اختفت في الهواء، يجب أن يكون هذا ملجأ الفقراء الذي كان يعيش فيه أوليفر تويست! زحفت بين سيقان الطاولة ووجدت مكانًا أدفع نفسي فيه إلى أعلى على أحد المقاعد الطويلة. كان الأولاد مشغولين بالتبارز فيما بينهم ولم يلاحظوني، ثم صُدمت لأن وجوههم كانت غارقة في البؤس حتى إنهم بدَوا وكأنهم ليسوا في مرحلة الصبا، على الأقل ليس مثل الأطفال. امتدت بشرتهم على عظام وجناتهم، وكان معظم شعرهم الدهني يتدلى أشعث على جباههم وأعينهم، كل واحد منهم كان لديه وعاء فارغ أمامه.

لم يكن هذا الصف من الطاولات هو الوحيد في الغرفة، بالمناسبة، كان هناك ثلاثة صفوف أخرى مليئة بالأطفال النحيفين، ولم أرَ أي طفل منهم يأكل أي شيء، على الرغم من أنه في أحد الأركان كان هناك رجلٌ تبدو عليه القذارة يحرك قِدرًا متسخةً من الواضح أن البخار كان يتصاعد منها.

همس الأولاد من حولي:

-أوليفر تويست، أوليفر عليه هو أن يسأل لنا.

فتى صغير بعيون يقظة واسعة، كانت أصابعه رقيقة تقريبًا مثل أعواد الثقاب المكسورة التي كانوا يمسكون بها.

قال صبي ذو أسنان بارزة:

-تعالَ يا أوليفر، هيا! سنموت جوعًا في التو واللحظة إذا لم تفعل.

لكن الصغير تردد، كان هناك خوف في عينيه، ارتجف وهو ينهض ببطء.

نظرت إلى القِدر القذرة والرجل الذي يقف خلفها، نظراته القاتمة كانت ستبعدني أيضًا، لماذا لم يعطِ الأولاد القليل من دقيق الشوفان اللزج الرمادي الذي كان يدسه في القدر؟ غدًا فقط ربما سيكون من الممكن صنع كعكات الغبار، بالطريقة التي تحبها السيدة مايريد.

قام أوليفر بتحريك ساقه على المقعد وجفل عندما نظر الطباخ في اتجاهنا. لحسن الحظ، لم يرني.

قلت له:

-انتظر؛ لأن فكرة خطرت لي للتو؛ إذا كنت جائعًا جدًّا، فربما يمكنني... أن أساعدك.

تحول ثلاثون رأسا نحوي، بينما حدق بي أوليفر تويست على أمل.

ثم همس أحدهم:

- إنها قارئة.

تردد صدى كلمة قارئة أسفل الطاولة، ثم جملة:

-من العالم الخارجي.

-وماذا في ذلك؟ ما دام لديها ما يمكن تناوله!

تمتمت:

-أعطوني فقط لحظة، ستنتظرونني هنا، أليس كذلك؟

عُدت إلى أسفل الطاولة وزحفت إلى النقطة التي كنت قد وصلت منها، في اللحظة التالية وجدت نفسي في فراشي ذي الأعمدة الأربعة في سترومساي، فكرة أنني قفزت بالفعل في كتاب من غرفتي انفجرت في رأسي مثل الألعاب النارية... صنعته بنفسي ثم زرت أوليفر تويست في منتصف الليل! لا أصدق أنـ...

لا، سيكون لديَّ وقت لأتطلع إلى ما حدث لاحقًا، الآن كان عليَّ أولًا مساعدة الأولاد نصف الجوعى في ملجأ الفقراء. على المنضدة الموجودة بجوار فراشي وجدت طبق البسكويت الذي أرسلته لي السيدة مايريد في ذلك المساء (يبدو أنها أرادت التخلص منه، شيء هزلي، لا مشكلة بالنسبة إلي!) وضعت البسكويت في جيوب المنامة، ثم سرعان ما أخرجت علبة علكة من حقيبتي. بعد دقيقة، أعدت القارئ الإلكتروني إلى وجهي.

قفزت مرة أخرى إلى تحت الطاولة وسحبت أحد سراويل الأولاد.

انحنى أوليفر تويست نحوي.

قلت:

-تفضل.

وأنا أسلمه البسكويت والعلكة ثم أضفت:

-هذا كل ما يمكن أن أجده الآن، هذا بسكويت وهذه علكة، يمكنك مضغها حتى تحصل على شيء تأكله مرة أخرى، لكن لا تبتلع العلكة، ربما ستساعد قليلًا في الشعور بالشبع.

تمتم:

-شكرًا.

بعد ذلك بقليل تم تقسيم كل شيء فوقي إلى أجزاء متساوية.

ما يزال بإمكاني سماع أحدهم يقول:

-لكن غدًا سيتعين على أوليفر أن يسأل عما إذا كانوا سيعطوننا مثل هذه الأجزاء الصغيرة مرة أخرى.

ثم عدت مرة أخرى للاستلقاء في فراشي في القرن العشرين.

قالت الأميرة:

-أنا اخترتكَ أنت، هيا اركع!

نفَّذ الأمير الأمر.

-هل تقسم على اصطياد الوحش وقتله وعدم الشعور بالراحة حتى أكون أنا، أميرتك، بأمان مرة أخرى؟ هل تقسم بحياتك؟

نظر الفارس إلى وجه الأميرة، وأنفها الرقيق، ومنحنى حاجبيها، ووجنتيها الورديتين، كان جمالها مثاليًا، وكان يعتقد أنه سيكون سعيدًا، إذ لم يكن عليه أن يرى أي شيء سوى هذا الوجه حتى وفاته. كان الأمر أشبه بلقاء ملاك، لن يُسمح لهذا الملاك أن يعاني من أي ضرر.

قال:

-أقسم بحياتي.

(4)

بين السطور

بدأت محاضرة الصباح التالي على نحوٍ مخيب للآمال، فقد كنت آمل أن أعود إلى كتاب الأدغال، وبدلًا من ذلك، قدَّم لنا جلين حديثًا لمدة ساعتين عن عالم الكتب، تحدث عن مهمتنا بصفتنا قافزين في الكتب لحماية الأدب، وهو شرف وعبء في الوقت نفسه، كما تناقش حول حقيقة أنه كان ممنوعًا تمامًا – إلا في حالات الطوارئ – اصطحاب الشخصيات إلى العالم الخارجي، على سبيل المثال لإنقاذهم من كارثة، وأنهم سيعودون بعد ذلك إلى قصصهم بأنفسهم. وأوضح أيضًا بالتفصيل أن بين جميع الكتب حدودًا مثل الحدود بين الدول، وهي توجد في مكان ما، كما أن هناك مسارات بين القصص، يمكن من خلالها للمرء أن ينتقل من قصة إلى أخرى، وإذا كان أحدهم محظوظًا، فإنه يصل أيضًا إلى ما يسمى الخط، وهو مكان بين السطور تحب العديد من شخصيات الكتاب التمسّك به عندما لا يكونون في خضمّ مسرح الأحداث. وقد روى لنا خلال ذلك الشرح حكايات عن بعض أعمام أجدادنا الذين ارتكبوا بعض الأخطاء الغبية. حذَّرنا على وجه السرعة من عواقب التغييرات التي ستظهر على الفور في أي

نسخة مطبوعة من القصة.

اندهشت مفكرةً: في كل نسخة مطبوعة؟! لا بد أن بيتسي وويل قد سمعا كل هذا الحديث مرات لا تُحصى، بينما كان ويل يحدق في غلاف كتابه «كلب عائلة باسكرفيل» في حالة من الملل (هل كان وهمًا محضًا من طرفي أم أن الكتاب بين عشية وضحاها أصبح أخف كثيرًا؟)، بدا أن بيتسي تشعر بأنها مضطرة للتأكيد على كل كلمة يقولها جلين، استمرت في الإيماء أو قول أشياء مثل: بالضبط، نعم، هذا صحيح، وربما هذه المعلومات ما زالت مبكرة على آيمي وستفهمها مع الوقت.

كانت شفتاها لامعتين بشدة اليوم، كما لو أنها قد وضعت علبة ملمع شفاه كاملة، أو كما لو أنها أكلت علبة سردين مليئة بالزيت على الإفطار. وسط أفكاري أكمل جلين:

-السيدة مايريد، على سبيل المثال، منذ سنوات عديدة حين كانت في ماكبث، عندما كانت صغيرة...

ثم قطع حديثه قائلًا:

-آيمي، ماذا تريدين؟

كنتُ قد رفعت يدي لأطرح سؤالًا فأنزلتها حين انتبه، وقلت:

-لديَّ سؤال، هل من الممكن أن يُحدث المرء مشكلة إذا قفز من مكان آخر غير الدائرة الحجرية؟

عبس جلين وقال:

-كيف؟ ماذا تعنين؟

-حسنًا، لقد قلتَ بالأمس إنه لا يمكنك القفز في الكتب إلا من خلال الدائرة الحجرية، لمَ هذا؟ هل ستكون مشكلة إذا... دعنا نقُلْ: إذا كنت لا تزال تقرأ في السرير في المساء ثم...؟

منذ أن استيقظت هذا الصباح، كان يؤنبني ضميري، وأصبح صوته داخلي أعلى وأعلى خلال محاضرة جلين، فأنا دون التفكير في عواقب ما أقوم به، قفزت إلى أوليفر تويست، بل والأدهى من ذلك أني تدخلت في مسار التاريخ عن طريق المساعدة بإعطاء بسكويت الغبار والعلكة. كلما استمعت إلى جلين لفترة أطول، اتضح لي أنني لا أعرف شيئًا عن عالم الكتب، وأنه ربما لم يكن من الذكاء تمامًا العبث به كما يحلو لي، هل يمكن لشيء كهذا أن يسبب مشاكل؟

تابعتني بيتسي بعينيها وتنهدت بهدوء:

-اممم، آيمي.

بدت لئيمة للغاية كما كانت في كابوس الليلة الماضية تقريبا.

من ناحية أخرى، هز جلين رأسه وهو يقول:

-لا، لا توجد أي مشكلة، إنه فقط مستحيل، موهبتكم تتمكن من العمل حصريًّا داخل الدائرة الحجرية فقط.

قلت:

-حقًّا؟

ثم نظرت إلى ويل وبيتسي وتابعت:

-هل سبق لكما أن حاولتما القفز من مكان آخر؟

قالت بيتسي:

-لدي أشياء أفضل لأفعلها من أن أخدع نفسي في أوقات فراغي. معذرة، أنا ذاهبة إلى الحمّام.

بعدها أخرجت حقيبة مكياج وهرولت، بينما نظر ويل إليّ بالفعل لأول مرة في ذلك اليوم، كان لا يزال شاحبًا كما لو أنه قد رأى شبحًا، وكان شعره يبرز من رأسه بخشونة كما كان بالأمس.

نظر إليّ قائلًا وهو يبتسم أخيرًا بزاوية فمه اليمنى:

-بالتأكيد، حاولت مرات عديدة عندما كنت طفلًا، لكنني لم أنجح قط.

-اممم، فهمت.

فكرت في احتمال أنني قد أكون تخيلت رحلتي إلى أوليفر تويست؟ هل كان مجرد حلم آخر؟

واصل جلين محاضرته لساعة ونصف أخرى ثم قادنا إلى التل، قفزنا واحدًا تلو الآخر في كتب التمارين: ويل، الذي لم يتبقَّ من كتابه في الواقع سوى بضع صفحات، وعليه الآن أن يبحث عن تفسير. بيتسي، التي كان من المفترض أن تواصل التفاوض مع القزم حول بيع الآيس كريم ولهذا السبب وضعت المزيد من الكحل في عينيها. وأنا، التي لم يكن لدي أي فكرة عن أي شيء وهذا ما ترك لي مساحة واسعة من الفضول.

بدأ الأمر بمجرد أن دفعت الكتاب على وجهي، ضربني هواء الغابة الدافئ الرطب مرة أخرى، وانفجرت الحروف في النباتات أمام عيني، ومرة أخرى سمعت ماوكلي وجراء الذئب وهم يطوفون بعضهم حول بعض، تأوهت جذور الأشجار العملاقة بهدوء عندما هبطتُ بينها، لكن هذه المرة تسللت بعيدًا عن الأصوات.

استقبلني شيرخان، الذي كان رابضًا في الغابة:

-ها أنتِ ذي مرة أخرى.

أومأتُ إليه بالموافقة، أعطاني جلين مهمة اليوم، وهي الحصول على لمحة عامة عن تاريخ ماوكلي، لكن ألم يعرف كل طفل يمكنه مشاهدة التليفزيون ما الذي يحدث في كتاب الأدغال؟ تركت النمر ورائي ودنوت من حافة الغابة.

كانت العلامة الفاصلة ما تزال في مكانها، وكذلك المرتفعات حيث قابلت الشاب المتذمر الذي كان يعاني من مشكلة الساحرات أمس. اليوم ومع وجود المرتفعات، تمكنت على نحو مدهش من تسلق الصخور، حتى إني كدت أضحك وأنا أتذكر تعثري بالأمس خاصة عندما أصبح المسار أوسع وأكثر استقامة. وما تزال منحدرات الوادي الشديدة ترتفع إلى اليسار واليمين، لكنها كانت تتحرك أكثر فأكثر، في النهاية شكّلت ما يُشبه المرجل، ومدينة عالقة في قاع هذا المرجل.

لم تكن مدينة كبيرة، بل كانت في الواقع شارعًا واحدًا فقط، لكن

كان هذا الشارع مكتظًا بالمحالّ التجارية والدكاكين الصغيرة والأكشاك والحانات ومحالّ الوجبات السريعة، على واجهة إحدى الصيدليات كان هناك ملصق للدعاية عن عقار للجمل الفعلية، بينما نادت امرأة سمينة تحمل صينية شيءٍ ما وقالت إنه مسحوق معجزة يُفترض أنه يمكن استخدامه لإنشاء نهاية سعيدة في ثوانٍ إذا لم يكن لديك واحدة في متناول اليد. في أحد أكشاك السوق، وجدت نقاطًا وفواصل وعلامات استفهام يمكن للبائع وزنها بنفسه (وثلاث علامات اقتباس معروضة بسعر اثنتين). كان المتجر المجاور له يعرض عباءات وسيوفًا وعصيًّا، وكُتب فوق الباب: (ملابس الأبطال، من الدراما القديمة إلى ملحمة الخيال العلمي، نحن نوفّر أيضًا أزياء الشخصيات الثانوية).

كانت هناك أيضًا شخصيات ترتدي ملابس من عصور مختلفة، على سبيل المثال رجل يرتدي سترة ويقف في منتصف حشد من الفتيات ذوات التنانير الضخمة والأطواق المكشكشة. سار الجنود بمسدسات الليزر أمامهم، وسحرة بقبعات زاهية الألوان، وسيدات أعمال بملابس رسمية أو سراويل، وعفاريت بوجوه مشوهة. الجنيات بأجنحة اليعسوب تتطاير في تواتر. إوزة — كان صبي صغير يركبها — تنقر على النهايات السعيدة الفورية، وكانت تخاف من الصوت العالي القادم من ناحية المرأة السمينة.

تابعتُ قطًّا منتصبًا على قدمين وهو يرتدي حذاءً يسير خلال الزحام، ثم اختفى داخل حانة تُسمى «إلى المِحبرة»؛ نظرًا لأنني لم أشعر برغبة في شراب كوكتيل الحبر الذي تم الإعلان عنه على مدخل

الحانة، فقد أردت الاستمرار، ولكن قبل أن يُغلَق باب الحانة مرة أخرى مباشرة، لمحت وجهًا مألوفًا ينحني فوق كوب في البار.

دخلت وجلست بجانب الشاب الذي ترك انطباعًا لا يقل إثارة للشفقة عمّا كان عليه عندما التقينا بالأمس وقلت له:

-أما زلت لا تشعر بتحسن؟

عندما رفع رأسه عن كأسه ونظر إليَّ، كانت الدموع تتلألأ في زوايا عينيه المحمرَّتين:

-أوه، آنسة آيمي، يسعدني رؤيتك مرة أخرى.

-وأنا أيضًا سررت لرؤيتك، هل أزعجتك العجائز مرة أخرى؟

قال:

-لا، لا...

ثم أفرغ نصف كأسه الممتلئة في جوفه بجرعة واحدة. من خلال نظرته الزجاجية الزائغة، يمكنني الحُكم أنها لم تكن كأسه الأولى.

تمتم وهو يترنح في حركة عنيفة والكأس في يده، حتى كاد يصطدم بالقط الجالس بجواره على البار:

-أنا حزين ليس إلا، كئيب من الحياة، هل تعلمين ما أقصده؟ من العالم ومن الحب والقدر، القدر التعيس! أوه، آلاف المشاعر عاصفة في صدري!

كان صوته يرتفع رويدًا رويدًا مع كل كلمة.

في تلك اللحظة جلس القط بعيدًا، بينما قلت:

-نعم، أنا أفهم ما تعنيه.

ليست عبارات مفيدة جدًا ولكن وجدت نفسي لا أجد على لساني إلا كلمات مكررة على غرار الشراب ليس حلًا، لكنني ابتلعتها ونهضت بدلًا من ذلك قائلة:

-لم أكن هنا من قبل ولا أعرف أحدًا غيرك في هذا المكان، هل يمكنك أن تكون لطيفًا جدًّا وترافقني في جولة استكشافية؟

نظر الرجل بحزن إلى قاع الزجاجة الفارغة، ثم أومأ برأسه وقام، في البداية تمايل وترنح، لكنه سرعان ما استعاد توازنه.

قال لي:

-لا يمكنني رفض طلب سيدة شابة جميلة.

ثم أعاد قميصه إلى داخل سرواله من الخلف، وخصلات الشعر منسدلة من تحت القبعة المخملية التي يتدلى منها ما يشبه الذيل عند مؤخرة رأسه، ثم أشار إلى صدره وكادت تلك الحركة تجعله يسقط قائلًا:

-إذا كان لي أن أقدم نفسي، فاسمي فيرتير.

بأحرف متوهجة اشتعل في رأسي عنوان مرّ عليّ خلال درس القراءة الذي درسناها العام الماضي : «أحزان الشاب فيرتير» لجوته، فجأة فهمت الكثير؛ لذلك اتجه الرجل للشراب إذن، إنّه غير سعيد في الحب، وغير سعيد إلى درجة أنه انتحر في الكتاب، وكانت أولئك الساحرات الغريبات قد عذّبنه بنبوءة مفادها أنّ لحبّه المستحيل فرصة أخرى ليصبح

ممكنًا، المسكين!

قلت له وأنا أمد يدي للمصافحة:

-أها، مسرورة جدًّا بالتعرف إليك.

التقط يدي ولكنه لم يهزّها مصافحًا، إنما طبع قبلة عليها، فابتسمت رغمًا عني، ثم سألته:

- الحقيقة، يبدو المكان هنا جميلًا جدًّا.

أومأ فيرتير برأسه ولم يرد، في الواقع. كان هناك المزيد والمزيد من الشخصيات تشق طريقها عبر الباب، وتجمَّع معظمها حول طاولة في الزاوية حيث اجتمعت رؤوسهم وراحوا يتهامسون فيما بينهم.

سمعت رجلًا يسأل:

-كم قطعة ذهبية مفقودة؟

قال راكب الإوزة الصغير لامرأة ذات ذيل سمكة ظلت تسكب الماء من إبريق على وجهها:

-لقد قُتلوا بهذه الطريقة، كان الإسطبل كله مليئًا بالدماء، وذلك لحُسن الحظ وبصرف النظر عن المؤامرة.

وهمس رجل ذو بشرة رمادية بحقيبة تحت ذراعه:

-وهل سمعت ذلك من أليس؟

سحبني فيرتير للخارج، وهناك أخذ أنفاسًا قليلة لكنّها عميقة مع تدفق المزيد من الناس من أمامنا إلى الحانة، وقال:

شيء ما يحدث، إن مطحنة الإشاعات تغلي منذ بضع

ساعات، هناك شيء ما يحدث بشكل خاطئ في عالمنا.

تسارعت نبضات قلبي وسألت:

-في أوليفر تويست؟ هل اختلطت القصة؟

دلك فيرتير جسر أنفه بإبهامه وسبابته وهو يقول:

-ماذا؟ لا... من المفترض أن الذهب قد سُرق من إحدى حلقات ألف ليلة وليلة، وتفيد الشائعات أن أَلِيس فقدت أثر الأرنب الأبيض هذا الصباح؛ ومن ثَمَّ لم تستطع أن تجد طريقها إلى بلاد العجائب. لا أعرف أي تفاصيل أخرى، لقد كنت مشغولًا خلال الساعات القليلة الماضية...

-مشغولًا بالشراب؟

ثم حاولت أن أعدِّل من وقفته حتى لا يسقط؛ لأنه كان يتمايل ببطء.

صحّح لي:

-لا بل بالتفكير، على أي حال، الناس غاضبون؛ لأنه لم يحدث شيء مثل هذا هنا من قبل، أليس لم تفقد الأرنب أبدًا طوال هذه السنوات، هل تفهمينني؟ هذا لا يمكن أن يحدث، من المؤكَّد أنها ستلوم نفسها.

-هل هذا يعني...؟ هل يمكن أن يتسبب تغيير طفيف واحد في سلسلة من كل هذه التغييرات؟

فكرت في أنه إذا كانت كل القصص مترابطة بطريقة ما، فهل يمكن

أن يكون لعلبة علكة غير ضارة في بيت أوليفر تويست مثل هذا التأثير؟

قال فيرتير الذي أصبح لونه شاحبًا أكثر:

-يبدو الأمر أشبه بتدخّلات رئيسة وهادفة في القصص.

ثم انحنى ووقف أمام لافتة وأغمض عينيه.

عرضت عليه:

-سأحضر لك بعض الماء.

لكن فيرتير هزَّ رأسه رافضًا، أخرج منديل دانتيل وضغطه على فمه وأنفه، وقال وهو يتلعثم:

-لا، شكرًا.. لكن... ربما يمكنني بشكل أفضل غدًا... أعني أن أصحبك في جولة، وأشرح لكِ، كنتِ كريمة معي كثيرًا.

ثم تقيأ في صندوق به علامات تعجب جديدة، شعرت بالاشمئزاز، فقررت أن أعود.

في فترة ما بعد الظهر، أشرقت الشمس بالفعل فوق سترومساي محدثة نوعًا من التغيير وذكَّرتنا بأننا في شهر يوليو، استفادت أليكسيس من تحسّن الطقس بنزهة أخرى وتسلَّلت إلى الخارج أيضًا. بعد تصفح أوليفر تويست لفترة من الوقت، والبحث دون جدوى عن التغييرات في القصة (على ما يبدو أن أوليفر طلب ببساطة حصة ثانية من العصيدة بعد يوم واحد). قمت بحزم مستلزمات الرسم والتلوين الخاصة بي، لم أتمكن من أخذ الكثير معي، فقد بقيت

دهانات الأكريليك في المنزل وانتصرت عليها الكتب، تمامًا مثل فُرش الرسم والمحامل واللوحات القماشية التي لا يمكن وضعها في الحقيبة على أي حال. لكن رغم ذلك كان لدي لوحة رسم وأقلام رصاص مختلفة في جيبي، وكأنني مسلحةٌ بها. تجولت في المستنقع وصولا إلى مقعد شكسبير، كانت المنخفضات شديدة الانحدار كما هي عندما وصلنا، منظورا إليها من أعلى، تبدو أطول وأكثر خطورة.

جلست على صخرة وبدأت برسم الحافة المتضخمة والبحر وراءها، كانت ألوان المياه اليوم هي ألوان الطيور وتدحرجت على مهل ضد أسس الجزيرة، مصحوبة باندفاع قديم، كما أصبحت الرياح أكثر هدوءًا في اليومين الماضيين، بالرغم من ذلك كانت ما تزال تتخلل خصلات شعري، لكن سُترتي أبقتني دافئةً. إنها رائحة الملح والحرية، وأشعة الشمس ترقص على أصابعي. بضربات سريعة، رسمت حركة الأمواج ونمط السحب القليلة التي انعكست على ظهورها. الآن ندمت على عدم جلب جميع الألوان حين غادرت ألمانيا، فقد كان هذا المنظر أجمل ما رأيت في حياتي.

شعرت وكأنني كنت جالسةً في آخر مكان من العالم، إذ لم يكن هناك إرسال لهاتف خلوي أو استقبال للإنترنت في هذا المكان، ولا يهم ما نشره أي شخص في أي مكان على أي منصة تواصل اجتماعي، وكانت جولينا بعيدة. الشيء الوحيد الذي كان مهمًّا هو لون السماء الأزرق الدخاني، والذي امتد بعيدًا فوق الجزيرة وداعب البحر في الأفق. لم أشعر أبدًا بمساحة شاسعة من حولي على هذا النحو، مساحة للتنفس، مساحة للتفكير، تحاوطني النباتات

الأرجوانية المنحنية بخفة فوق الصخرة ووصلت إلى أعماق المياه.

وبينما كنت أرسم الزهور الصغيرة، سقط ظل على الورقة، وقال أحدهم من خلفي:

-جميل جدًّا.

تركت القلم الرصاص وتركت سحر المكان للحظة، ثم تنهدت واستدرت:

-مرحبًا.

كان ويل يقف أمامي ويشير إلى الدفتر الذي أرسم فيه على ركبتي وقال:

-لم أكن أعلم أنكِ ترسمين.

رفعت حاجبي وقلت:

-ليس عجيبًا أنك لم تكن تعرف، أليس كذلك؟ أنت لا تعرف أي شيء على أي حال.

بدت كلماتي أكثر سخافة ممّا كنت أودّ قوله حقًّا.

قال ويل:

-على الأقل أعرف اسمك بالفعل، أعلم أيضًا أنه يجب أن تكوني قافزةً موهوبةً؛ لأنك وصلتِ بالفعل إلى حافة الرواية في زيارتك الأولى لعالم الكتب.

تراجعت إلى الخلف وأنا أقفل دفتر الرسم قائلة:

-اممم، على كل حال هذا ليس أمرًا صعبًا للغاية.

-أنتِ على حق.

عادت الريح لتتخلل شعري عندما أخرجت قلم رصاص ذا سنّ أنعم لتظليل الأمواج.

كان ويل لا يزال يقف بجانبي، يعاين ما أفعله، ويراقبني وأنا أتأمل السماء، بعد برهة ازدرد لعابه وقال:

-ولكن يبدو أنكِ تريدين أن نبقى على هذه الحال، لا مشكلة، يمكنني التفهم.

ثم استدار للاتجاه الآخر وأضاف:

-إذًا سأتركك الآن وشأنك وأغادر مرة أخرى، حسنًا؟

حافظت على صمتي، لقد كان على حق، لقد تجنبت كل كلمة غير ضرورية حتى الآن، وعادة ما كنت أتجاوزه هو وبيتسي في الفصل. لم تكن رغبة منّي في عدم تكوين صداقات جديدة، إنّما فقط كنتُ حذرة للغاية، وانتقائية إلى أقصى درجة.

بصرف النظر عن ذلك، لم يتكلف زملائي الجُدد الكثير من العناء أثناء الترحيب بي، بل لم يُظهِروا ترحيبًا كبيرًا أصلا، ولكن في معظم الأوقات، بدا ويل على وجه الخصوص وكأن عقله في مكان آخر.

لكن بالنسبة إليه، ربما كان ترددي هو الجواب الكافي؛ لأنه استدار ليرحل. كانت قدماه محشورتين في حذاء جلدي بالٍ، وشعره الأشعث متكدّس خلفه، الآن فقط أتذكر المكان الذي رأيت فيه مثل هذا الشعر الباهت.

قلت عندما كان قد بلغ الطريق المؤدي إلى المستنقع تقريبًا:

-لقد كنت هنا الليلة الماضية، أليس كذلك؟

قال:

-نعم.

-لماذا كنت بالخارج في تلك العاصفة؟ وأي نوع من الكلاب العملاقة كان معك؟

عاد وجلس بجانبي على الصخرة وأجابني:

-كنت أبحث عن شخص ما، إنه صديق... وكان معي كلبه.

-هل وجدتَه؟

-للأسف لا.

وضع رأسه بين كفيه وهو يقول:

-قلبت الجزيرة بأكملها رأسًا على عقب، لكنه رحل بكل بساطة.

-رحل إلى العالم الآخر؟

-نعم، إذا جاز التعبير.

نظرنا إلى البحر، ثم سألني ويل:

-ألا تريدين الاستمرار في الرسم؟

كان رسمي على وشك الانتهاء، لكنني وضعت الدفتر وأقلام الرصاص على العشب ونظرت جانبيًّا إلى ويل بدلًا من ذلك. كان لأنفه حدبة صغيرة، كما لو كان قد كُسر من قبل، وكان وجهه صغير

الزوايا فلا تشوبه شائبة، ولكن كان هناك وضوح في لون عينيه الرمادي المُزرَق الذي كان قريبًا من لون السماء فوق ستر ومساي، كانت عيناه سماويتين حقًّا.

سألته:

-هل عرفت ما هو السبب الذي جعل كتابك يصبح خفيفًا قليل الأوراق فجأة؟

خافضًا صوته إلى حد الهمس أجاب:

-نعم عرفت، يحدث هذا لأن شيرلوك هولمز لم يعد هناك.

قلت مندهشة:

-يا للهول! هل هو في كتاب آخر؟ هناك عدد غير قليل من روايات شيرلوك هولمز، أليس كذلك؟

تنهد ويل:

-نعم، وبالرغم من ذلك لم يره أي من الشيرلوك الآخرين.

-حسنًا، سمعت اليوم أن الذهب قد سُرق وأن هناك سوء تفاهم في «أليس في بلاد العجائب».

قال ويل، الذي يبدو أن كلماتي لم تصل إليه:

-إنه أفضل أصدقائي، منذ أن كنت في الخامسة من عمري، لقد فكر دائمًا معي في الألغاز والحالات التي تصيبني، كنت قد أخرجته من أحداث كتابه، إنه هو من قام بتربيتي فعليًّا.

-والآن أنت تبحث عنه في ستر ومساي أيضًا؟

كنت في حيرة من أمري بسبب التداخل المفاجئ بين العالم الأدبي والعالم الحقيقي.

-لماذا يجب أن يكون في العالم الخارجي؟

أمال ويل رأسه إلى الوراء وأغلق جفنيه في ضوء الشمس، ألقت أهداب عينيه بظلالها على جلده الذي بدا وكأنه أقمار داكنة، لكنه لم يكن مرتاحًا كما كان، لاحظت أن شفتيه مضغوطتان معًا بشدة، وقد غرس أصابعه في خصلة من العشب.

-أحضرته إلى هنا، أليس كذلك؟

-شيء من هذا القبيل ممنوع.

-هل فعلت أم لا؟

-إنه ممنوع يا آيمي، أوضح جلين ذلك طويلًا وشرح لكِ على نحوٍ موسع هذا الصباح.

-لقد أعطيت أوليفر تويست بسكويتًا وعلكة.

فتح عينيه وقال:

-حقًّا؟

تسللت ابتسامة على وجهه، تأملني للحظة، وكأنه يتساءل عما إذا كان يمكن الوثوق بي، تمتم:

-آيمي لينوكس، عائلتانا لا تحبّان بعضهما بعضًا كثيرًا، هل تعلمين ذلك؟

فكرت في تعليقات بيتسي وأنا أقول:

-نعم، لقد لاحظت بالفعل.

ابتسم ابتسامة عريضة في وجهي، تشكلت غمّازة على خدّه الأيمن، ثم قال:

-حسنًا، سأبحث الآن عن صديقي مرة أخرى في القرية وعلى الشاطئ، ربما يختبرني هولمز وأنا بحاجة فقط للعثور على الدليل الحاسم، أو يمكن أن يكون في الحانة يسكر. هل تريدين أن تأتي معي؟

أومأت بالموافقة، كان لدي ما يكفي من شخصيات الكتاب في حالة سُكر لهذا اليوم، لكن لا حرج في المشي، خاصةً أنني شعرت أن مصاحبته ستكون ساحرة للغاية.

امتدّ الشاطئ على طول الساحل الشرقي للجزيرة حتى قلعة ماكاليستر، لم يكن شاطئًا رمليًّا أبيض، ولم يكن شاطئ استحمام لامعًا من كتالوج الرحلات، كان شاطئًا به حصى وشظايا متجمعة عليه، إلى جانب أشياء أخرى مكسورة، على سبيل المثال، قطع معدنية ضخمة صدئة تبرز من المياه الضحلة، بطلاء أخضر داكن ومقشّر، أوضح لي ويل أنها بقايا غواصة أسطول تم نسفه خلال الحرب العالمية الثانية، مات جميع الركاب وتجمع الحطام على الشاطئ لعدة أيام في سترومساي، حيث حُفر في عمق الطمي.

لم يكن هولمز في أي مكان يمكن العثور عليه فيه.

الحقيقة، كان من الممتع بالرغم من ذلك مجرد ترك الأمواج تلعق نعل حذائي الرياضي. راح ويل يلمّ الأعشاب البحرية برأس عصا

مدبب، ثم يجمعها في كيس بلاستيكي، ومع ذلك، لم نعثر على أيّ أثر للمحقّق. كنّا كلما اقتربنا من قلعة ماكاليستر، إلاّ وأصبحت خطوات ويل أبطأ. في هذه الأثناء، نمَت أبراج القلعة أعلى وأعلى في السماء أمامنا، وفي مرحلة ما من سيرنا، كنا على بعد أمتار قليلة من بوابة حجرية مهيبة، توقف ويل تمامًا.

قلت له:

-منزل جميل.

رحت أنظر إلى رمز عائلة ماكاليستر فوق البوابة، كان عليه رسم لتنين على أرضية خضراء، كتب كانت تُنفث من أنفه بدلًا من اللهب.

ألقى ويل العصا في البحر بقوة فطارت بعيدًا فوق الأمواج وقال وهو يبتسم:

-ليس عندي شك في ذلك، وإذا كنت تسألينني عن رأيي فهو سؤال غير مريح.

-لكنه بالتأكيد عظيم بالنسبة إلى فتاة أن تعيش فيه.

-أيمكنك تخمين ماذا تفعل بيتسي طوال اليوم؟

-نعم، امم، طوال اليوم تضع مستحضرات التجميل، أليس كذلك؟

ضحك مرة أخرى وقال:

-هذا صحيح مرة أخرى.

ثم عاد إلى جدّيّته على الفور وهو يقول:

-على أي حال، لقد بحثت في المربّع القديم عدة مرات، أقترح أن نجرّب القرية بعد ذلك.

قلت وأنا أحك رأسي:

-حسنًا، يبدو لي أنّك لا تحب منزلك على نحو خاصّ.

لم يُجِرْ جوابًا على كلامي.

بعد خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى مجموعة المنازل التي مررت بها أنا وأليكسيس عندما وصلنا، والقرية التي لا تستحق هذا الاسم. الآن، في وضح النهار، أدركت أن جميع الأكواخ تقريبًا كانت فارغة، بدت متهالكة، مع كسور في معظم النوافذ. كانت العوارض الخشبية بارزة مثل الهياكل العظمية من الأسطح المقبّبة، والأبواب مغطاة. منزلان فقط في المكان كلّه بدا عليهما أنهما صالحان للسكن.

كان أحدهما صغيرًا ورثًّا، تحاوطه سيقان نباتات متسلقة طولية وغير معتنى بها، ربما كانت جدران الكوخ الطينية بيضاء في السابق، لكنها الآن مغطاة يدويّاً بغلاف من الطين.

هنا وهناك نبت نوع من الأشجار متخلّلا الجص حتى جعله ينهار. جلس صبي على الدَّرَج المكسور المؤدي إلى الباب الأمامي وشفتاه تتحركان في صمت، هل كان من المفترض أن أقول رجلًا؟ كان جسده قويًّا ويرتدي سروالًا أزرق، وكانت كتفاه عريضتين، كما كان وجهه مغطًى بلحية غير منتظمة، ولكن من النظرة الأولى ستشعر أنه طفل بائس يجلس بمحاذاة الماء، حيث كان هناك رصيف رملي مليء بالأجسام الرمادية.

حيَّاه ويل أثناء سيره عائدًا وهو:

-مرحبًا بروك.

لم يستجب الصبي، واصلت شفتاه تكوين الكلمات، وقطَّبَ حاجبيه كما لو كان عليه التركيز، ثم فجأة نادى:

-سبعة عشر!

جفلت:

-أستميحك عذرًا؟

لكنه واصل تأمُّل الرمال مرة أخرى وكأنه لم يسمعنا، فُتح فمه وانغلق كما لو كان يتحدث إلى شخص لا يراه إلا هو.

دفعني ويل برفق وهو يهمس لي:

-إنه يعدّ كلاب البحر، هذه هوايته.

-هواية عدّ كلاب البحر؟

-بروك وُجد عند الشاطئ هنا عندما كان طفلًا صغيرًا منذ عشرين عامًا، نشك في أنه تعرّض لصدمة هائلة في ذلك الوقت.

أكمل ويل وهو ينقر على جبهته:

-لا بدّ أنه ظل ينجرف وحده في البحر لفترة طويلة في قارب النجاة.

قشعريرة زحفت أسفل رقبتي.

كان المنزل الثاني هو المنزل الذي اختفى فيه ربّان المركب ليلة وصولنا بحثًا عن الكحول، كان أكبر من منزل بروك وأجمل، كان

المسند على ظهر المقعد عبارة عن سبورة كتب عليها أحدهم بالطباشير أنهم يبيعون الطوابع والخس وورق التواليت، ستائر مزركشة معلقة في النوافذ، رن الجرس تلقائيًا عندما دخلنا.

كان هناك بالفعل بار في الداخل وثلاثة مقاعد أمامه، ومع ذلك، كانت الجدران مغطاة برفوف وبكرات من الخيوط إلى جانب المناديل والذرة المعلبة، كان هناك عُدّة بستاني وعكازٌ ومضربَا تنس الريشة كلّها معلّقة على حامل المظلاّت.

سألته:

-هل هذه حانة أم متجر؟

قال رجل وسط كلّ هذه الفوضى حتى إني لم ألاحظ وجوده:

-كلاهما.

كان يجلس على طاولة في الزاوية، يملأ غليونه. كان شعره أحمر. أضاف:

-وهنا أيضًا مكتب البريد المحلي، مرحبًا بكم في متجري، أنا فينلي.

بطريقة ما بدا الرجل مألوفًا بالنسبة إلي، قلت:

-مرحبًا، أنا آيمي.

قال الرجل والغليون بين أسنانه:

-وأنا أعلم من أنتِ، الأخبار تنتشر بسرعة هنا، أنا خالك.

ثم أشعل عود ثقاب، قلت مندهشة:

-هكذا إذًا.

لم أعرف ماذا أقول وقضمت شفتي السفلية، لم تذكر أليكسيس قط أن لها أخًا.

تجوّل ويل في الغرفة، وراح يبحث تحت الطاولات ويحدّق خلف الرفوف، ثم سأل:

-هل كان أحد هنا اليوم؟

رفع فينلي حاجبيه، تمامًا كما تفعل أليكسيس دائمًا وأجاب:

-لا، لماذا تسأل؟

سحب ويل إحدى معدّات الحفر المعلقة على محمل المظلاّت وعاينها بيده وكأنه يزنها لأنه يفكر في شرائها، ثم تمتم:

-أمر غير مهمّ كثيرًا.

ما زلت لا أعرف كيف أتفاعل مع حقيقة أن هذا الرجل قد ادعى أنه خالي، لماذا لم تذكره لي أليكسيس قط؟ من ناحية أخرى... لقد احتفظتْ بكل شيء تقريبًا عن عائلتنا سرًّا ولم تكن تخبرني الكثير، فعلى سبيل المثال، رفضت دائمًا إخباري من هو والدي. في الأساس، لا ينبغي أن أتفاجأ بوجود المزيد من أقاربي هنا، الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو سبب إبقاء أليكسيس معلومة أن لها أخًا سرًّا.

بدأت بسؤال ويل عندما عاودنا الخروج مرة أخرى تحت أشعة الشمس:

-كم عدد الأشخاص الذين يعيشون هنا بالفعل؟ أعني في جميع أنحاء الجزيرة؟

فكرت في أنني عليَّ أن أكتشف ذلك بنفسي.

أجابني ويل:

-عدد ليس كبيرًا، هناك السيدة والسيد ستيفنز في بيت لينوكس وبروك وفينلي ورجل يدعى هينك يعيش أيضًا هنا في القرية وبيتسي ومربيتها ميل، واللورد في قلعة ماكاليستر، وبالطبع أنا والآن أنتِ وأمّك أيضًا.

-لقد نسيت جلين وكلايد وديزموند.

-إنهم يعيشون في المكتبة.

-حسنًا.

إذًا العدد أربعة عشر شخصًا، لم يكن الأمر قليلًا فحسب، بل كان أقل من أي تصور لديَّ، ربما كان عدد الأشخاص في أي بناية كبيرة في ألمانيا وحده خمسة أضعاف. كانت هذه الجزيرة بالفعل في نهاية العالم ويبدو أنها كانت تُحدث شيئًا ما في عقول ساكنيها، شيئًا يبقيهم هنا بلا حراك أو يبعدهم فارين منها مثل أليكسيس، شيئًا لم أفهمه تمامًا بعد. نظرت إلى حذاء ويل، وجيوب سرواله المحشوة، والسترة القديمة التي كان يرتديها، لم يكن يمكنني في أيّ حال أن أتخيّله وهو بهذا المظهر يسير في مدينة مثل بوخوم، سألته:

-هل سبق لك أن زرت البرّ الرئيس؟

ضحك وقال:

-بالطبع، غالبًا.

السّمّ الخاص بالوحش سريع المفعول، وقال المستشار الملكي: إنه يسبّب تقلّصات في أحشاء ضحاياه؛ ممّا يجعلهم بلا حول ولا قوة، ومعظمهم يموت بعد ذلك.

ارتجفت الأميرة من التفكير.

(5)

في رحلة البحث عن الأرنب الأبيض

عندما قفزتُ مرة أخرى إلى كتاب الأدغال أثناء المحاضرة في اليوم التالي، كان فيرتير ينتظرني هناك بالفعل، كان يرتدي معطفًا إلى الركبة من المخمل الأحمر وقبعة قديمة الطراز. غرس نبات متسلق أشواكه في أحد جواربه الحريرية ومزق جزءًا منه، كان يقاتل من أجل التحرّر من النبتة عندما هبطتُ.

استقبلني قائلًا:

-مساء الخير يا آنسة آيمي، أنا أعاني بشدة في حياتي.

قلت:

-أنا أعلم ذلك وأصدقك، أنا أعرف روايتك.

-لكن هذا اليوم سيء على نحوٍ خاص، فقد شعرت بجمجمتي وكأنها تُدهس بحوافر حصان يعدو بأقصى سرعته، أعرف أن البار في المحبرة هو السبب في ذلك، لن تطأ قدماي ذلك المكان مرة أخرى، لقد كدت أتخلّف عن حضور مشهد انتحاري الليلة الماضية.

ثم صرخ بسخط:

-هل يمكنك تخيل ذلك؟

اعترف بعدم فهمي الكامل قائلة:

-لا يمكنني التخيل حقًّا، لكن هل أنت بخير اليوم بما يكفي لتأتي معي؟

قال فيرتير، وهو يتحرّر من الأشواك:

-بالكاد.

كانت جواربه في حالة يرثى لها، وكشفت عن ساقه الشاحبة المرقّطة ببقع حمراء، ثم استطرد:

-لكنني أحتمل عن طيب خاطر ألف معاناة من أجل سيدتي الصغيرة.

توغل شيرخان في الجوار.

قلت لفيرتير:

-هذا جيد، أشكرك، لأنني كنت أفكر في أنني قد رأيت الخط بالأمس، لهذا السبب أفضل اليوم زيارة أليس في بلاد العجائب، أود أن أعرف إذا ما كان كل شيء على ما يرام هناك، هل توافق على ذلك؟

قدّم لي ذراعه كي يتأبط ذراعي قائلًا:

-طلبك أمرٌ بالنسبة إلي.

ومع ذلك، كان من المستحيل تقريبًا التحرّك ذراعًا بذراع عبر الغابة

الكثيفة، ولهذا السبب بدأت في التخلي عنه على الفور، لكن قبضة فيرتير على ذراعي كانت صلبة للغاية. كرجل نبيل حقيقي، أصرّ على مرافقتي لقطع التضاريس الوعرة؛ ولذا تعثرنا على نحو محرج بالجذور والنباتات واضطررنا إلى التلاصق حتى ضغط كلٌّ منّا على الآخر أثناء عبورنا مسارات ضيقة وملتوية، وداس كلٌّ منَّا أصابع الآخر. وصلنا أخيرًا إلى حافة القصة، عند التقاطع المرفوق بالإشارات، استدرنا يسارًا.

لم يكن علينا السير طويلًا قبل أن يتحول الطريق الرملي إلى ممرّ حديقة مصنوع من ألواح حجرية تقود إلى مرج، على يسارها ويمينها كانت هنالك أسِرَّة مليئة بالزهور الملونة، رائحتها كأنها بعد ظهر يوم من أيام الصيف. في مكان ما أمامنا كان هناك رذاذ خفيف، خطوت أنا وفيرتير عبر ممرّ مملوء بالورود المتسلقة، انتهى الممر خلفنا فجأة كما بدأ. كان ثمّة جدول ماء يقسم الحديقة وعلى ضفّته فتاتان جالستان، كانت إحداهما تقرأ كتابًا ولا يبدو أنها لاحظت وصولنا، ارتدت الأخرى عدة أكاليل من زهور الأقحوان على شعرها وانفجرت بالبكاء عندما رأتنا.

انتحبت بشدة بينما كانت القطة في حضن الفتاة الأخرى تتأرجح على نحوٍ مفزع وقالت:

-لقد ضاع مني أثره مرة أخرى، الأرنب الأبيض لم يعد يمرّ من هنا مطلقًا، أو هو يمرّ فقط حين لا أكون هنا بحثًا عنه.

قال فيرتير وهو يخرج لها منديله:

-لكن، يا عزيزتي الآنسة الصغيرة أليس...

فمسحت الصغيرة أنفها.

سألتها أنا:

-ألا يمكن أن يكون الأرنب مريضًا؟ هل بحثتِ عنه جيّدًا في كل مكان حتى الآن ؟

هزت أليس رأسها، وكانت الأقحوانات تتحرك معها وهي تجيبني:

-لا يمكنني فعل ذلك، لا بد لي من البقاء هنا حتى يأتي هذا الأرنب، وإلا فإن القصة بأكملها ستختلط.

انهمرت الدموع على وجنتيها وسقطت على ظهر القطة وهي تستطرد:

-ماذا لو لم أجد طريقي إلى بلاد العجائب مرة أخرى؟

قالت الفتاة الأخرى:

-إذًا يمكنك قراءة كتابي معي.

أدارت لها أليس وجهها وقالت:

-ولكنه كتاب ممل للغاية، حتى إنه لا صور فيه ولا ألوان، أفضّل أن أصنع بضعة أكاليل من الزهور، أليس كذلك يا دينا؟

كانت تحدث القطة وتداعب أذنيها، ثم انحنت إلى الأمام لاختيار المزيد من الأقحوانات.

التفتُّ إلى فيرتير وقلت له:

-علينا أن نجد الأرنب الأبيض، ربما بعد ذلك سنكتشف الخطأ الذي يحدث هنا.

قدّم لي ذراعه مرة أخرى، وقال:

-نعم، من الأفضل أن نقلب بضع صفحات إلى الأمام.

-هل هذا مقبول؟

قال فيرتير شارحًا:

-بما أنّك قارئة، يجب أن تعرفي كيف يمكن ذلك، أم أنكِ تقرئين فقط صفحة واحدة في المنزل؟

-بالطبع لا.

-حسنًا، سنتقدّم بضع صفحات الآن.

سار مباشرة إلى أحد أحواض الزهور وسحب زهرة الأقحوان.

انهار العالم من حولنا، مالت السماء جانبيًّا، ما كان أفقًا للتو، صار حديقة وجدولا معلّقين في الهواء والماء يتدفق إلى أعلى. أدرت رأسي إلى الوراء لأرى إلى أين يتّجهان، لكن فيرتير دفعني إلى الأمام وهو يرتعش قليلًا. تعثرنا ونحن نعبر جدار المرج كما لو كان به ضباب، وانتهى بنا المطاف في كهف مع خزائن مطبخ ورفوف معلقة بين الجذور، لم يكن كهفًا في الواقع، بل حفرة عملاقة. انفتحت هاوية تحت أقدامنا وسقطنا فيها، تذكرت القصة بغموض لأن فترة لا بأس بها قد مرت منذ أن قرأت الكتاب، لكن في البداية، كما أتذكر، سقطت أليس في حفرة يعيش فيها أرنب منذ فترة طويلة. على الرغم

من عدم وجود أرضية صلبة تحتي لأميال، فإن الترقُّب غمرني، ما زلت لا أصدق أنني كنت في الواقع داخل رواية، كانت هبة عائلتي فريدة جدًّا ومدهشة إلى درجة أنني لم أتخيل أن أحصل على مثلها في حياتي رغم شغفي بالخيال، ربما أجد نفسي الآن أتجول حقًّا في أرض العجائب الحقيقية على الفور!

عندما فتحت جفوني بعد عدة لحظات لاحقًا، تحول الكهف إلى رواق طويل مليء بالأبواب، وفي نهايته رأيت شيئًا أبيض يندفع بعيدًا.

صرختُ، مشيرةً إلى باب صغير نصفه خلف ستارة:

-هناك، هناك! لقد هرول من هناك.

لسوء الحظ، انغلق الباب المذكور على كاحلي وأصبح بعد ذلك مغلقًا، فقلت لفيرتير بسرعة:

-علينا أن نتبعه بطريقة ما، هل يمكنك قلب الصفحة؟

هز فيرتير رأسه يمينًا ويسارًا قائلًا:

-نعم، ولكن يجب أن نكون حريصَينِ على عدم تضييعه من بين أيدينا، يجب علينا أيضًا تغيير حجمنا لنقدر على البقاء في القصة.

كان يدلك رأسه وكأنه يفكر وينظر يمينًا ويسارًا، فقلت له:

-أوه! نعم، صحيح، لقد خطر لي الآن أيضًا أنه بينما كانت أليس تسافر عبر بلاد العجائب كانت تأكل أو تشرب شيئًا يجعلها تطول أو تقصر.

أعطاني فيرتير قارورة زجاجية بدت وكأنها تحتوي على شراب

السعال وقال لي:

-اشربي.

قلت، وأنا آخذ رشفة:

-حسنًا، هذا رائع.

لأكون صادقةً، لم يكن بهذا السوء، يشبه إلى حد ما كعكة الغابة السوداء... ولكن قبل أن أفكر في الأمر أكثر من ذلك، شُدَّت ساقاي كما لو كانتا أشرطة مطاطية، وقصُرت ذراعاي، وأصبحت يداي صغيرتين جدًّا حتى إنّني لم أعد أستطيع حمل الزجاجة، لقد تقلصت. قبل وقت قصير من إفلاتي للزجاجة، استعادها فيرتير وشرب منها هو أيضًا بدوره.

تمتم:

-آمل أن يساعد ذلك في شفائي من مرضي أيضًا.

دوَّى صوته في الكهف، لقد أصبح بالنسبة إلي عملاقًا.

في هذه الأثناء كنت بحجم جندب، كانت أطراف أحذية فيرتير مرتفعة أمامي مثل التلال وتراجعتُ قليلًا حتى لا يدوسني عن طريق الخطأ. لحُسن الحظ، بدأ هو أيضًا على الفور بالتقلّص.

بعد ذلك بوقت قصير، سحب فيرتير مقبض الباب الصغير فسقطنا في زاوية الكهف، هذه المرة قلبنا ذهابًا وإيابًا، أولًا من خلال مجموعة من الحيوانات تستحم في بحيرة، ثم فجأة أصبحنا في منزل، وبعد ذلك مباشرة خرجنا مرة أخرى، في مكان ما بين الصفحات،

كان فم القط جرينج معلقًا وابتسم ابتسامة عريضة بينها أصبح باقي فمه غير مرئي، لكننا لم نرَ الأرنب الأبيض في أي مكان أيضًا.

أخيرًا وقفنا أمام فطر كانت عليه يرقة زرقاء سمينة ممسكة بنوع من النرجيلة بين أذرُعها العديدة، وتناثرت سحب من الدخان في الهواء فوقها. كان عليَّ أن أقف على رؤوس أصابع قدمي لأُلقي نظرة على حافة الفطر، حدَّقت فينا اليرقة لفترة من الوقت، كان وجهها متجعّدًا عندما كانت تمصّ فم أنبوب النرجيلة.

سألتها متردّدة:

-اممم، يرجى المعذرة، هل توقف الأرنب الأبيض هنا مؤخّرًا؟

تفث اليرقة حلقة من الدخان فوقنا، ثم صرخت فجأة:

-من أنت؟ أين أليس؟

انحنى فيرتير للتحية:

-أوه، سامحيني، اسمي فيرتير وهذه السيدة الصغيرة آيمي، يسعدنا أن نتعرف إليك.

أوضحت لها:

-أَليس لا يمكنها أن تأتي لأنها قد فقدت أثر الأرنب الأبيض مرة أخرى، نحن نحاول معرفة السبب.

أزعجتني النظرة التي نظرت بها اليرقة إلينا من فوق، ولكنني رغم ذلك استطردت:

-إذًا هل رأيته هنا أو هناك؟

زحفت اليرقة عن الفطر، وغلفتنا رائحة التبغ وهي تتسلل من بيننا عبر العشب، ثم قالت:

-نعم، لقد وصل من فترة إلى هنا، لكن يبدو أنه كان في عجلة من أمره.

-أي طريق سار منه؟

قالت اليرقة وهي تختفي في الغابة:

-أعتقد أن لديه موعدًا لتناول الشاي مع صانع القبعات وأرنب مارس.

تنهّد فيرتير ووضع رأسه بين يديه ثم قال:

-أود أن أستريح لحظة، أشعر الآن بدقّ الحوافر على جبهتي المسكينة من الداخل.

وضعت يدي على ذراعه برفق وقلت:

-أعلم، لكن لا يمكننا أخذ قسط من الراحة الآن، جئنا للحاق بالأرنب، علينا أن نذهب إلى صانع القبعات.

أومأ فيرتير بالموافقة وهو يقول بحزن:

-هذا يعني أن علينا أن نبتلع بعضًا من هذا الفطر لنحصل على الحجم المناسب.

مدّ يده أعلى من رأسه وكسر قطعتين من أعلى الفطر، بمجرد أن أكلناهما، كبرنا قليلًا، بالحجم الذي يكفي لنكون قادرين على شرب الشاي بشكل مريح مع أرنب.

كان فيرتير يقلّبنا بالفعل ذهابًا وإيابًا عبر صفحات أليس في بلاد العجائب، الألوان والمناظر الطبيعية والأشكال، انتقلت إلينا كلها في تتابع سريع، رأيت عينَي القطّ جرينتج. ملكة ترتدي فستانًا منقوشًا على شكل قلب راحت تصرخ بمجرّد أن تجاوزناها مسرعيْن:

-أين أليس؟ أين أليس؟ يجب قطع رأسها!

أخيرًا وصلنا إلى منزل صغير في الغابة، حيث أعدّتْ طاولة الشاي طوليًّا، في آخرها كان هناك أرنب وحيوان المرموط ورجل صغير بأسنان بارزة، عند أحد طرفي الطاولة كان هناك أسطوانة وُضعت عليها اللافتة التي توضح ثمن المنتجات الجديدة.

بينما كان صانع القبعات وأرنب مارس يشربان الشاي، كان المرموط يغطّ في نوم عميق بينهما وكأنه بلا رأس إلى درجة أنه لم يلاحظ أن الاثنين الآخرَين يريحان مرفقيهما عليه.

قال صانع القبعات وكأنه لم يلاحظ وجودنا أصلاً:

-قل لي، ما هو القاسم المشترك بين الغراب والفارس؟

حدست قائلة:

-كلاهما يشترك في حرف الألف في المنتصف؟

تجعّد أنف صانع القبعات وقال:

-امم، هذا يمكن أن يكون صحيحًا، ماذا تقصدين؟ وأنت يا أرنب مارس ما رأيك؟

قال أرنب مارس:

-لا أرى إلا أن ساعتي توقفت مرة أخرى، على الرغم من أنني وضعت أفضل زبدة فيها، أقسم لك إنها كانت حقًّا أفضل زبدة على الإطلاق.

ثم وجّه حديثه لنا وقال:

-ولماذا تجلسان على أي حال؟ لم نقدّم لكما أي مكان، ولم يسمح لكما أحدٌ بالجلوس!

بقيت أنا وفيرتير جالسَين على أي حال، قال فيرتير، الذي كان سعيدًا جدًّا بالكرسي المجنّح الذي جلس عليه:

-أتوسل إليكم، هناك مساحة كافية هنا لنا جميعًا.

راح أرنب مارس يتشمّم الجوّ قليلًا وهو يقول:

-كلاهما يشترك في حرف الألف في المنتصف، هذا جيد! قد يكون هذا هو الحل! هل ترغبان في شرب الشاي؟

قبل أن نتمكن من الإجابة، سكبه لنا، كما وضع كعكة الكريمة على طبقين لكلّ منّا، ثم قال:

-تفضَّلا.

قلت بتهذيب:

-شكرًا لك.

بدت الكعكة لذيذة للغاية، لكن علينا الانتظار قبل أن ننهمك في التهامها، سألتهما:

-نحن نبحث عن الأرنب الأبيض، هل رأيتماه هنا أو هناك؟

تبادل صانع القبّعات وأرنب مارس نظرة لم أفهم مغزاها، ثم قال أرنب مارس:

-إنه لا يعمل على نحوٍ جيّد.

قال صانع القبّعات:

-لقد تغيّر تمامًا.

-هل كان هنا إذا؟ ما هو الطريق الذي سار منه؟

-ليس إلى أي مكان.

فتح صانع القبّعات إبريق الشاي وأدخل ملعقة، ثم أخرجها وبها أرنب أبيض سابقًا، تقاطر الشاي من ساقيه في خطوط بنية، وكان ينظر بقلق حوله.

رفعت حاجبي وصرخت:

-هل هذا هو الأرنب الأبيض؟ يبدو... عاديًّا جدًّا.

تجعّد أنف الأرنب وكأنه يشعر بالإهانة.

فجأة قال أرنب مارس:

-لقد جرّبنا الزبدة أيضًا، لكنها لم تنجح، لم يعد بإمكانه الكلام، واختفت ساعته وسترته أيضًا، لكنه يزحف دائمًا إلى إبريقنا القديم للاختباء.

تمتم فيرتير:

-غريب! يبدو لي أن فكرته قد تلاشت.

سألته:

-فكرته؟

فأوضح لي:

-فكرة المؤلف بضرورة الحديث عن الأرنب الذي يحمل ساعة جيب وسترة في هذه القصة التي تقود أليس إلى بلاد العجائب، ربما شخص ما لديه... لا، لا يمكن أن يكون ما أفكر فيه صحيحًا.

-ماذا تعني؟

-حسنًا، يبدو أن شخصًا ما قد سرق الفكرة.

-هل يمكن أن يحدث ذلك؟ من إذًا يمكنه أن يفعل مثل هذا الشيء؟ الأهم من ذلك كله: لماذا؟

لم أستوعب أن يكون لأحدهم القدرة على محو فكرة ما من كتاب.

يبدو أن لا أحد على الطاولة لديه إجابة.

أضفت وأنا حائرة:

-هل هذا يعني أننا لا نستطيع إصلاح القصة؟ ماذا نفعل الآن في هذه الحالة؟

هزّ فيرتير كتفيه وقال:

-من يدري!

قام صانع القبعات بإعادة حشر الأرنب في إبريق الشاي، وربما نسي في اللحظة نفسها أنه كان موجودًا، حيث قال:

-كلاهما يشترك في حرف الألف في المنتصف، أليس هذا

رائعًا؟ هيا، تناولا كعكتكما، اشربا الشاي.

لسوء الحظ لم يكن مذاق الكعكة جيدًا على الإطلاق كما بدا لي في البداية من مظهرها، استقرّ طعم مرّ على لساني بمجرد أن أخذت أول قطعة، تدحرجت إلى سقف فمي وأسفل حلقي، سعلت وأخذت رشفة من الشاي لإبعادها، لكن الشاي لم يساعد للأسف.

ظل الطعم المرّ لفترة طويلة في فمي حتى بعد أن قفزت مرة أخرى إلى سترومساي، لقد تأكدت من أنني لا أستطيع النزول للغداء، وبدلًا من ذلك شربت أكواب الماء كوبًا تلو الآخر. ظلت جدّتي تنظر إليّ بطرف عينها في محاولة لفهم ماذا ألمّ بي، لكنني تجاهلت نظراتها المتسائلة، إنها عاصفة رعدية ما ألمّ بي؛ لأنني دخلت قصة غريبة دون إذن، لن أستطيع حقًّا قص ذلك الآن. زحفت أخيرًا إلى سريري المحاط بأربعة أعمدة وحدقت في القماش فوقي، كنت أتنفس بسطحية قدر الإمكان، في هذه الأثناء شكّل الطعم كتلة في حلقي انزلقت إلى أعلى وإلى أسفل مثل كرة مطاطية لزجة، في الوقت نفسه انعقد شيء ما في معدتي، واندفع وكأنه يصطدم بنتوء فولاذي وقرقر بصوت عالٍ. شهقت، وكأن الكرة في حلقي أصبحت لولبية، أغمضت عيني للحظة، ثم قفزت واندفعت إلى الحمام.

لقد تمكنت من استخراجه لحسن الحظ في الوقت المناسب.

بعد ثلاث ساعات، وجدتني أليكسيس على حصير الحمّام، أحضرت لي وسادة وبطانية بينما كانت الجدران مقلوبة؛ ممّا سمح للحوض والمرحاض بالرقص حولي وأنا في حالة دوار

شديد، جثمت أليكسيس بجانبي ومسحت جبهتي بقطعة قماش.

تمتمتُ: أشعر بأنني لست على ما يرام.

شفتاي كانتا مشققتين وجافتين وأنا أستطرد:

-الكعكة في بلاد العجائب كانت فاسدة فيما يبدو.

-كنتِ في أليس في بلاد العجائب؟

-نعم.

أردت أن أتحدث عن مقابلتي لفيرتير وبحْثِنا عن الأرنب الأبيض، لكنني كنت ضعيفةً للغاية.

قالت أليكسيس وهي تداعب شعري:

-كنت أذهب إلى هناك أيضًا في الماضي، لقد لعبت الكروكيت مع ملكة القلوب وأليس، لقد كان هذا رائعًا.

-لقد اعتقدت... اعتقدت أنك...

حاولتُ التنفس بعمق، كان الورم في حلقي يهدد بالتحرك مرة أخرى، وفي النهاية قلت واهنة:

-اعتقدت أنكِ تكرهين العالم الأدبي.

قالت أليكسيس:

-هذا هراء، على العكس تمامًا، لقد أحببته، بل لسوء الحظ أحببته كثيرًا.

بدت كلماتها غير مفهومة، وكأنني سمعتها من خلال جدار من الصوف القطني.

همست بينما كان الحمّام يدور أسرع وتسللت سحب داكنة إلى حواف مجال رؤيتي:

-حقًّا؟

-نعم حقًّا، لكن الرحيل كان السبيل الوحيد، خاصة بعد أن عرفت بوجودك أيتها الطفلة الزرافة، أنا كنت...

كان الأمر كما لو أن شخصًا ما كان يخفض الصوت في المذياع، ثم سقط ستار أسود على عيني.

في المرة التالية التي فتحت فيها جفوني، وجدت نفسي مستلقية على الفراش، انحنت أليكسيس فوقي وحاولت أن تصبّ لي الشاي الفاتر بينما كانت جدتي تسير في الغرفة، والقط ماكبث غافٍ على حافة النافذة.

قالت السيدة مايريد:

-لا أفهم كيف حدث هذا، لا يمكن للطعام الأدبي أن يسبِّب التسمّم ولا أن يَفسد! إمّا أن يكون فاسدًا بالفعل لأن المؤامرة تتطلب ذلك، وإما أنه صالح للأكل، ولكن لا يوجد شيء متعفّن في رواية، القصص لا تنتهي صلوحيّتها بسرعة.

اقترحت أليكسيس:

-ربما أراد لها أحدهم أن تمرض.

-ولماذا يحدث ذلك أصلا؟ لقد بدأت آيمي في القفز للتو.

ثم مطّت السيدة مايريد شفتيها وهي تقول:

-تذهب ببساطة إلى أليس في بلاد العجائب! آمل أن تدرك أن هذا كان انتهاكًا صارخًا للقواعد، وآمل بشدة ألا يحدث ذلك مرة أخرى، يمكنك أن ترَي ما يمكن أن يحدث، ومع ذلك علينا التعامل معها الآن.

وضعت يديها على جانبيها واستدركت:

-على أي حال، لن يتمكن أي شخص في عالم الكتب من قلب أليس في بلاد العجائب رأسًا على عقب بطريقة تجعل كعكة غير صالحة للأكل تنتهي على مائدة الشاي التي يجلس إليها أرنب مارس وصانع القبعات.

قالت أليكسيس وهي ترفع رأسي وتضغط الكأس على شفتي:

-اممم.. أنت بحاجة إلى مزيد من السائل.

ارتشفت المشروب وأجبرت نفسي على ابتلاع بعض منه، عادت لمحة من الطعم المرّ إلى حلقي. فكرتُ – فقط حين أكون في الجانب الآمن – أنه ربما يجب أن أشق طريقي إلى الحمّام، فجلست، وعلى الفور بدأت الغرفة في الدوران من حولي.

سألت أليكسيس:

-هل تشعرين بالسوء مرة أخرى؟

أومأت برأسي أن «نعم»، ثم هززت رأسي أن «لا»، ومع ذلك كنت أضع ساقي على حافة السرير وتعثرت بضع خطوات فوق السجادة، كانت ركبتاي ترتجفان، وبالرغم من ذلك، خمد الغثيان مرة أخرى وسقطت على حافة النافذة بجوار ماكبث.

أسرعت أليكسيس ورائي مع فنجان الشاي وحبة دواء في راحة يدها:

-اشربي رشفة أخرى وتناولي معها هذه.

قلت بصوتٍ واهن:

-لاحقًا سأتناولها.

ونظرتُ إلى المستنقع، كانت هناك ثلاث شخصيات تمشي، امرأة ترتدي مريلة وغطاء رأس أبيض قديمًا تدفع رجلًا على كرسي متحرك عبر التضاريس الوعرة. بدا كلاهما متجهّمًا، ربما لأن عجلات الكرسي كانت تنزلق باستمرار، على الرغم من أن شخصًا ثالثًا ساعدهما على حمل الكرسي فوق أكبر الأحجار والبرك. في البداية اعتقدت أنه سيكون ويل، لكنني تعرفت بعد ذلك على الرداء الرمادي والشعر الأشقر لمجلد الكتب الصغير مع الندوب على وجنتيه، لا يبدو أن وزن الكرسي المتحرك يزعجه.

تنهدت السيدة مايريد التي تابعت نظرتي وعلقت:

-ميل وديزموند يحضران اللورد الى بيتنا، أوه! لا، نسيت أن أقول للسيد ستيفنز أن يعدّ وجبة خفيفة.

حشرت أليكسيس نفسها بيني وبين ماكبث لتصبح على حافة النافذة وتركت حبيبات الدواء بجواري، قالت لي حبيبات الدواء بصوت عالٍ:

-خذينا يا آيمي، سنجعلك تتحسنين مرة أخرى، نحن سحريات.

ابتسمت وأجبتهن:

-كيف يمكنني أن آكل شيئًا يخاطبني؟

-نعم، نريد أن نموت.

ثم قالت أليكسيس متذمرة:

-هيا من فضلك يا آيمي! خذي الدواء.

التقطت الكريّات البيضاء الصغيرة من يد أليكسيس، ووضعتها في فمي قائلة:

-هل أنتِ راضية الآن؟

قالت أليكسيس وقد عاد صوتها إلى طبيعته:

نعم، هذا جيّد، سأكون أكثر سعادة إذا أتبعتها بهذا الشاي.

مستحيل!

مجرّد التفكير فيه جعل المطاط في حلقي ينتفخ مرة أخرى.

كانوا لا يزالون في زحفٍ دؤوب، وكلما اقتربوا كانت النظرة الكئيبة على وجهَي المرأة والرجل على الكرسي المتحرك تزداد.

سألت:

-ما الذي يفعله اللورد هنا؟ اعتقدت أن العائلتين لا تحب كلٌّ منهما الأخرى.

أجابتني أليكسيس:

-هذا حقيقي، ولكن هذه هي الحال؛ لأن تلك العائلات هي

الوحيدة في العالم التي لديها موهبة القفز في الكتب، وعلينا تشارك هذه الجزيرة ومكتبتها، وهناك ترتيبات معينة ضرورية، لهذا السبب يجتمع أرباب العائلات مرة في الشهر لمناقشة إدارة المكتبة وتمويلها أو أي شيء آخر مستحق، ربما يتعيّن على جدّتك اليوم أن تبرّر سبب إرسالك إلى الفصل دون تقديمك أوّلًا للجميع على الجزيرة.

نظرت في عينَي أليكسيس مباشرة وقلت:

-لخالي، على سبيل المثال؟

تحوّل وجه أليكسيس إلى اللون الأحمر وقالت:

-أوه! أيتها الطفلة الزرافة، لم أكن أعرف أنه في يوم من الأيام سنذهب معًا إلى هذه الجزيرة الملعونة، اعتقدت أنه إذا لم تتعرفي قَطُّ إلى أي منهم، فلا داعي من معرفة أي شيء عنهم. ولكي نكون صادقين، يمكنك فعلًا الاستغناء عن بعض المعارف، اللورد على سبيل المثال. كما تعلمين، يعتقد أنه يستطيع التحكم في أي شخص وفي كل شيء يحدث على هذه الجزيرة، لطالما اعتقدت عائلة ماكاليستر أنها أفضل عائلة، يدَّعون أنه قبل فترة طويلة من وجود لينوكس عاشت عائلتهم في سترومساي، وأن عائلتنا ولدت للتو من سلالة منشقة، لكن لا يوجد دليل على ذلك.

-حسنًا، تبدو قلعتهم أقدم قليلًا من هذا المنزل...

-هذا لأن ماكاليستر قاموا ببناء قلعتهم قبلنا بعدة قرون.

-أها..

أومأت أليكسيس وأضافت وهي تلوّح فجأة:

-عائلة مجنونة، معظمهم كانوا ولا يزالون أغبياء، كل هذا الشجار حول المكتبة وهِبَتِها أكثر حماقة.

ثم ابتسمت ابتسامة متهكمة وقالت:

-الأسوأ دائمًا هو العيد السنوي في أغسطس، حيث يتعيّن على الجميع التظاهر بأنهم يحبّون بعضهم بعضًا.

وصل اللورد إلى الحديقة وكان ينظر إلينا، ثم جعَّد أنفه عندما رآنا.

قضّيت معظم عطلة نهاية الأسبوع في القراءة، بالمعنى التقليدي، دون القفز في عالم الكتب، رغم أنّ الرغبة في ذلك تأكلني، لكنني بالتأكيد ما زلت أشعر بضعف شديد إلى درجة أنّني لن أستطيع التسلق في الغابة أو مطاردة أرنب أبيض أو حتى قضاء يوم في مدرسة داخلية سحرية. لم أقفز رغم أنني بالكاد أستطيع المقاومة: لم أكن في حالة تسمح بتجربة المغامرة.

لحسن الحظ، بينما كنت أعاني من الدوار ومن الشعور بأن ركبتيَّ قد تحولتا إلى قطعتيْ حلوى، إذ بالمرارة تخفت في فمي. تناولت طبقًا من حساء الدجاج يوم السبت، وبعد ظهر يوم الأحد تجرأت على الخروج.

كان ضوء الشمس هو اللون الرومانسي المثالي والراقص على ظهر حفنة من الأغنام ترعى على حافة حديقة منزل لينوكس. نقر أحد الحيوانات ثقبًا غير سويّ في إحدى الشجيرات المقلّمة وفق شكل هندسيّ واحد، وجربت بقية الحيوانات بضعة أزهار.

لن يكون السيد ستيفنز سعيدًا، بالأمس فقط رأيت من النافذة كيف زحف عبر المرج بمقص وقطع حواف العشب. ادَّعت أليكسيس أنها لا تستطيع النوم عندما لا تكون الحديقة دائمًا في حالة بريطانية مثالية للغاية.

تركت الأغنام تتناول وجبتها الخفيفة وسارت قليلًا عبر المستنقع، بينما ارتدّ الضوء الآن فوق كتفي أيضًا، ثم سلكت الطريق المؤدي إلى الشاطئ. أصبح الطقس أكثر برودة على الفور، مزَّقت الريح شعري المشدود على شكل ذيل حصان والوشاح الذي كنت أرتديه. تجولت في حطام البواخر وشظايا ما تبقى منها على ساحل الجزيرة وتنفست الهواء المالح الذي تغلغل في كل مسامّ جسدي كي أتخلّص من آخر ما تبقى من ذكريات الطعم المرّ.

من بعيد، استطعت رؤية ويل، وكان معه كائن عملاق، إنه الكلب (من باسكرفيل؟) الذي ألقى له ويل كرة التنس فوق الأمواج، ثم هرع الكلب بعد ذلك بحماس لالتقاطها.

ولأأن قدميَّ كانتا في زوج من الأحذية المطاطية الخضراء الداكنة الخاصة بجدتي، خلعتهما ودخلت أيضًا إلى البحر. تركت الأمواج تتدحرج فوق كاحلي، ثم اتجهت نحو حطام أسطول الغواصات، كان المعدن قديمًا وكان الطلاء مُقشَّرًا. من بعيد، بدت القطع حادة ومدببة، لكن الزمن كان يطحن أسنانها منذ فترة طويلة. اتكأت على أحد أطنان الحطام التي دفعتني الشمس إليها. الآن ألقيت نظرة فاحصة على ويل والكلب، اللذين كانا ما يزالان يمرحان ويبدو أنهما لم يلحظَا وجودي بعد.

أحضر الكلب الكرة للتو وأسقطها عند قدمَي ويل، ثم هز فراءه الأشعث ونفض الماء عنه قبل أن يقفز إلى أعلى وإلى أسفل أمام ويل، وهو يهز ذيله، راح ويل يضحك ثم رمى الكرة مرة أخرى، فاندفع الكلب من جديد.

الآن فقط نظر ويل في اتجاهي، رفعت يدي لألوِّح له، لكن تركتها تسقط مرة أخرى لأنني لاحظت شيئًا من زاوية عيني لم ألاحظه من قبل، استدرت جانبًا إلى حيث كان البحر المفتوح، استمرت الأمواج في التدحرج، وكسَّرت بقايا السفن الحربية. كانت ترفع شيئًا ما عليه، إنه شيء كبير عالق بين القطع المعدنية.

لقد كان إنسانًا.

صرختُ:

-ويل!

ثم مرة أخرى:

-ويل! تعالَ إلى هنا فورًا!

كان الشخص طافيًا ووجهه إلى أسفل، وقفاه كان ملفوفًا بالطحالب البحرية، أمّا حذاؤه الجلدي فكان يرتطم برفق ببعض الحطام.

صاح ويل وهو يضحك وما يزال بعيدًا:

-مرحبًا، آيمي!، هل أنت بصحة جيدة مرة أخرى؟

حدَّقت في الطحالب التي شكّلت عُشًّا في الشعر الغامق المبلل،

حيث دُفن فيه واستقر، يبدو أنه أراد الاستمرار في هذا المكان، ورقة واحدة فقط من أوراق ذلك النبات استقرت بعناية على طوق القميص من ناحية عنق الرجل، ربما لمحاولة معرفة نوع الجزيرة الغريبة التي استقر عليها.

نادى ويل وهو يسير عبر الماء نحوي:

-ما الأمر؟

كان للسترة الطافية نمط غريب والسروال بدا قصيرًا ومبقعًا من ماركة معروفة بالنسبة إلي، عدت إلى تأمل الطحلب مرة أخرى.

كان ويل بجانبي حين شهق بحدّة قائلًا:

-تبًّا! تبًّا! اللعنة!

حاولت أن استجمع هدوئي، ذهني فقط كان بطيئًا للغاية في محاولة استيعاب ما تراه عيناي، كنت أخجل من مجرد التفكير فيما هو واضح: كان هناك رجل طافٍ وكان ميتًا.

أمسك ويل بكتفيه وسحبه إلى الشاطئ، انزلق أنبوب من أحد الجيوب الداخلية للسترة وسقط في الماء، أخرجته وتبعت ويل على الشاطئ، حيث أدار الجثة على ظهرها، ففقدَتِ الطحالب قبضتها وانزلقت، أمسكت الأنبوب.

كان وجه الرجل شاحبًا ومنتفخًا، وعيناه تبدو فارغتين تمامًا من أي معنى، كان يرتدي سترة تحت سترته وقميصًا تحتها، كلاهما بدا باليًا وقديمًا بعض الشيء، وكلاهما كان مغطى ببقعة حمراء انتشرت من

ثقب في صدر الرجل.

جلس ويل على ركبتيه بجانب الجسد المسجَّى، ويداه تحفران بعمق في رمال الشاطئ. أغمض عينيه، وقال بصراحة وكأنه بلا روح:

-شيرلوك، إن هذا هو شيرلوك.

انحنى الفارس أمام الأميرة قائلًا:

وعدٌ مني، يمكنك الاعتماد عليّ.

سأضع له حدًّا.

ستكون نهاية رهيبة ومرعبة.

نهاية بطيئة ومؤلمة للغاية.

نهاية واحدة ولكن أسوأ من ألف ميتة أخرى.

وسأضحك وأفكر فيك يا أميرتي.

(6)

النار المشتعلة الضخمة

غرق عالم ويل في ضباب تام، تسللت غيوم كثيفة من البحر، ووُضعت بثقل على صدره. محت كل شيء آخر، كل شيء ما عدا الوجه الثابت لصديقه الأقرب، ترددت كلمة واحدة في رأسه: ميت!

ميت! فكر ويل، ميت! ميت! مات شيرلوك!

وفجأة أصبح في الخامسة من عمره مرة أخرى وكان يقف في غرفة في شارع بيكر، جاء عبر النافذة المفتوحة صوت قعقعة الخيول والشتائم العالية من شخص كان على ما يبدو في عجلة من أمره وصرخ بأنّ عليه أن يصل إلى الطرف الآخر من لندن اليوم. على المكتب الضخم في وسط الغرفة، كانت البطاقات والمفكرات مكدّسة فوق أطباق قذرة وأجهزة قياس غريبة مليئة بالتروس، ووُضِع أنبوب وفتات شيء بنّي على السجادة الشرقية، ثم أطلق أنبوب اختبار على رف الموقد رائحةً نفاذة.

كان ويل هنا للمرة الأولى وكان بالكاد يستطيع رؤية حافة المكتب، لم يكن يعرف لمن هذه الغرفة أو كيف وصل إلى هناك في المقام

الأول، يجب أن يكون لها علاقة بموهبته التي أخبره عنها اللورد، هبة لا يمكن أن تفهمها، هبة يمكنها أن ترسله إلى أماكن غريبة...

كان يحب العدسة المكبرة الضخمة، كان الزجاج المستدير المقطوع بشكل غريب يتلألأ في ضوء الشمس وهو يسحبها من على المكتب، كانت أثقل ممّا كان يعتقد، رقصت خطوط قوس قزح على الجدران وهو يديرها في كل الاتجاهات. جلس ويل القرفصاء على السجادة الشرقية، التقطت العدسة المكبرة الضوء وحوّلته إلى نقاط ملونة انطلقت عبر الغرفة، أم كانت تلك النقاط جنّيات صغيرة؟

وفجأة ظهر بجواره ساقان في سروال طويل.

قال الشخص الذي بدا ضخما من فوق:

-هذه عدستي المكبرة، أيها الرجل الصغير.

قال ويل وهو يترك النقاط الخيالية تحلّق حوله وكأنها تصنع غطاءً:

-كنت أنظر إليها فقط، انظر ماذا يمكنني أن أفعل!

كان هناك سترة فوق السروال وفوقها رأس طويل مائل وأنف وعينان زرقاوان، قال صاحب الرأس ضاحكًا:

-أوه! حسنًا، هذا يبدو وكأنه اكتشاف علمي.

نظر له ويل، كان هولمز الذي أمامه لا يضحك كما ظن.

لن يضحك مرة أخرى.

كأنه من بعيد، سمع نفسه يتكلم ويقول:

-علينا الحصول على المساعدة.

كرّر صوته وهو يشاهد جسده يقف ويلتفت إلى آيمي:

-نحن بحاجة إلى المساعدة.

بينما كان الكلب ملتفًا بجانب هولمز دافنا أنفه في ثنية رقبته.

أجابت آيمي قائلة شيئًا ما، لكنه لم يفهم.

ثم ركضوا عبر المستنقع.

بعد ذلك، بالكاد يتذكر ويل كيف وصلوا إلى المكتبة السرية، وكيف اندفع جلين وديزموند وكلايد إليهم، وكيف شرح لهما ما حدث، وكيف عادوا جميعًا إلى الشاطئ معًا، ثم مشهد ديزموند وجلين يساعده في حمل هولمز إلى الدائرة الحجرية، حيث أعاده إلى روايته، حتى تتمكن الشخصيات الأخرى من دفنه. مع سيّده الميت، اختفى الكلب مرة أخرى في القصة.

بعد كلّ ما حدث، كان ويل جالسًا على الأريكة الممزقة في مقصورته، متسائلًا عما إذا كان كل هذا قد حدث بالفعل: هل مات هولمز حقًّا؟ وقد زحف الليل وظهر ظلامه من خلف النوافذ المتصدعة، واندلعت طقطقة من الموقد في الزاوية.

قال هولمز:

-أنا محقّق.

فسأله ويل وهو يجعل النقاط الخيالية تنزلق أسفل أرجل السروال المنقوشة:

-ماذا تعني كلمة محقّق؟

-أنا أحل القضايا الجنائية، في معظم الأحيان تكون ألغازًا صعبة ويجب أن أفكر كثيرًا حتى أجد لها حلًّا.

رفع ويل العدسة المكبرة متسائلًا:

-هل هذه هي الطريقة التي تحلّ بها الألغاز؟

-نعم هي تفيدني أيضًا، يمكنك مساعدتي إذا كنت تريد، في الوقت الحالي، أبحث عن كلب كبير جدًّا.

-أنا أحب الكلاب.

-أتريد شرب بعض الشاي؟

أدار ويل رأسه، حملت له آيمي كوبًا كبيرًا من الشاي المطهو على البخار، كانت بعض خصلات شعرها قد انفصلت عن تصفيفة ذيل الحصان وتعلقت في حالة من الفوضى على جبهتها، لم يرَ ويل قط أي شخص جميل جدًّا هكذا، دون أن يكلف نفسه عناء محاولة إبراز جماله.

قال وهو يأخذ منها الشراب:

-شكرًا لك.

جعلته حرارة الكوب يشعر بالارتياح، أعادته إلى الواقع بشكلٍ ما ليعرف أين هو.

سكبت آيمي لنفسها أيضًا شيئًا ثم جلست بجانبه على الأريكة ثم قالت:

-هل تعيش هنا؟

قال:

-لا، حسنًا، في الواقع نعم.

أومأت آيمي برأسها متفهمة ثم غمغمت:

-بالمناسبة، ورق حائط مثير للانتباه.

حرّكت ذقنها باتجاه الحروف الحمراء فوق الموقد ثم أضافت:

-ولكن ماذا يعني، لقد استيقظت؟

أجاب وهو يهزّ كتفيه:

-ماذا؟ حسنًا! في الحقيقة لا أعرف.

ثم أضاف وهو يتلعثم:

-أنا... لا أعرف، أنا...

قاطعته آيمي قائلة:

-عفوًا، لم أقصد أن أكون فضوليةً.

ثم ضمّت ركبتيها إلى صدرها ووضعت ذقنها عليهما وهي تلفّهما بذراعيها النحيفتين. تأملته بعناية بعينيها الكبيرتين اللامعتين وهي تفكر في أنه حقًّا أمر مروّع أن تفقد مثل هذا الصديق الطيب.

شعر ويل فجأة بثقل في رأسه صاحبه دوار.

فسألته آيمي مترددة:

-هل عليَّ... هل عليَّ الذهاب من هنا؟

قال بسرعة وهو يرجّ آخر نقاط من الجنيات في ذهنه:

-لا لا، أنا... أشكرك على صنع الشاي.

-حسنًا.

ارتشفا كوبيهما في صمت.

سألته آيمي:

-هل تعتقد أنه كان حادثًا؟ هل سقط من الجرف أثناء العاصفة؟

-هل رأيت الفتحة في صدره؟

- نعم.

بدا وهو يفكر باردًا للغاية ثم قال:

-وكأنه شيء آخر، أليس كذلك؟

همست آيمي:

-إذًا شخص ما... قتله؟ لكنه كان شخصية كتاب! من يمكنه أن يفعل ذلك؟ لماذا يمكن أن يفعل شخص ما مثل هذا الشيء؟

هزّ ويل كتفيه وقال:

-ربما لأنه وجد شيئًا، ما كان له أن يكتشفه؟

-ماذا تقصد بالتحديد؟

فأشار إلى الكتابة الملطخة على الحائط وقال:

قبل اختفائه، كان قد عاين هذه الكتابة.

قالت آيمي:

-هكذا إذًا.

أخذ رشفة طويلة من الشاي الذي كان ساخنًا جدًّا، أحرقت حلقه، لكنه لم يهتم، لم يهتم بأي شيء، لقد كان يعرف شيرلوك معظم حياته، كان المحقق الرئيس بالنسبة إليه أكثر من مجرد شخصية في كتاب، لقد كان صديقه وأقرب الناس إليه ومستشاره في كل أمور حياته، ومع ذلك كان ويل مسؤولًا عنه؛ كانت وظيفته حماية قصة شيرلوك. والآن، هل يجب ألا يكون المحقق الرئيس العظيم موجودًا؟ لقد فشل ويل فشلًا ذريعًا. ألقى فنجانه بكل قوته على الأرض، حيث تحطم إلى قطع لا حصر لها، وتناثر الشاي على أرضية الغرفة، قال غاضبًا:

-كان ينبغي أن يكون أكثر حذرًا! ما كان يجب أن أُحضره إلى العالم الخارجي!

تمتمت آيمي، دون حتى أن تحرّك جفنها:

-ربما كان حادثًا فحسب، علاوة على ذلك، لا يمكنك أن تعرف أن شيئًا كهذا سيحدث، أليس كذلك؟ حتى الآن، لم يترك هذا الشيء المسمى القفز في الكتب عندي انطباعًا خطِرًا على نحو خاص، إنه مثير جدًّا، نعم، لكنه ليس خطِرًا.

قال ويل:

-إنه ليس خطِرًا في الواقع، الكتب هي عالم رائع حتمًا، لكن ذلك الذي حدث مع شيرلوك ما كان يجب أن يحدث أبدًا وهي غلطتي كذلك، لقد أحضرته إلى هنا.

ثم ركل طاولة القهوة المتهالكة، التي انهارت مع صوت مدوٍّ.

وضعت آيمي يدها على ذراع ويل، لكنه لم يستطع تحمل اللمسة، لم يكن يستحق أي عزاء، بدلًا من ذلك، تكمّش جسده في أقصى نهاية الأريكة وسحب نسخة بيتر بان الممزقة، ظهرت تشققات وأصفرت الصفحات، ألقى بها إلى آيمي قائلًا:

-هذا أول كتاب قفزت فيه على الإطلاق.

من هنا بدأ كل شيء، كل هذا أدى الآن إلى النقطة التي مات فيها صديقه المقرب على الشاطئ في سترومساي، فكَّر بمرارة: ربما يجب أن يحرقها، نعم، يجب أن يضعها في الفرن الآن!

مسحت آيمي بأصابعها على غلاف الكتاب المصنوع من الكتّان وهمست:

-إنه جميل للغاية.

-على الرغم من أنني أستطيع القفز، فقد قرأته مئات المرّات بالطريقة التقليدية.

وفكر لماذا لم يترك الأمور تسير على هذا النحو؟ لماذا كان عليه أن يقفز ويفسد عالم الكتاب؟

وقالت آيمي:

-هناك قصص من هذا القبيل، هذا ما أشعر به مع كتاب مومو والكبرياء والتحامل، لأكون صادقةً، أحب الشخصيات فيها أكثر من الأشخاص الحقيقيين من حولي.

كانت تقول ذلك بينما هي جالسة هناك وركبتاها إلى صدرها، محتجزة بينهما رأسها، والكتاب بين يديها الرقيقتين، تُذكِّر ويل بفراشة حاول أحدهم أن يقطع جناحيها.

سألها ويل:

-هل صحيح أن والدتك لم تخبرك عن هبة عائلتك؟ وأنكِ عشت هذه التجربة لأول مرة بمجرد عودتكما مرة أخرى إلى هنا؟

قالت آيمي:

-اممم، أريد تصحيح شيء، نحن لم نعُد، نحن هنا لمجرد قضاء عطلة قصيرة.

أصبحت نظرته أكثر قتامة بعد سماعه لحديثها.

-أليس من الغريب أن تظهرا هنا فجأة و... وفورًا مات شخص ما بعد ذلك مباشرة؟

عقدت آيمي ذراعيها أمام صدرها وقالت:

-هل تقصد أنني أنا وأليكسيس من...؟

قاطعها قائلًا بسرعة:

-لا، أنا لم أقصد شيئًا من هذا القبيل، أنا فقط... أنا...

تنهدت:

لا بأس... اليوم ليس يومًا جيدًا على كل حال.

أخذتْ نفسًا طويلًا حتى انقشعت بقية الظل عن خديها، ثم فتحت الكتاب وبدأت في قراءة الجمل الأولى لبيتر بان بصوت

واضح، حتى ويل رأسه على الأريكة وأغمض عينيه واستمع إلى سيل الكلمات التي رويت عن بيتر والأولاد الضائعين والكابتن هوك الشرير والجنية تينكربيل؛ تينكربيل التي كان غبارها سحريًّا.

كان منزل لينوكس لا يزال في الظلام عندما تسللتُ إلى غرفتي بعد منتصف الليل بقليل، كنت قد تركت ويل نائمًا في كوخه، والآن أنا بحاجة إلى من يريحني أيضًا. كانت الأيام القليلة الماضية مليئة بالأحداث الغريبة، لكنَّ وفاة شيرلوك هولمز تجاوزت حتى خبرتي في عالم الكتاب بنسبة لا تصدق، لا أكاد أستوعب أننا وجدنا جثة المحقق على شاطئ سترومساي حقًّا، سواء أكان هذا حادثًا أو جريمة قتل، كان الأمر فظيعًا، مات شخص، حتى وإن كان شخصًا وهميًّا، على الرغم من أنني كنت منهكة تمامًا، فإنني لم أفكر حتى في النوم، انزلقت إلى داخل منامتي وعبرت على الفور عبر الحمّام الصغير إلى غرفة أليكسيس.

أنا حقًّا بحاجة للتحدُّث معها حول هذا الموضوع، كانت صورة الطحالب في شعر الرجل الميت قد احترقت في ذاكرتي، وكذلك الصوت المتطاير الذي كانت الأمواج تُصدِره بدفع قدميه مرارًا وتكرارًا على الركام. أنا لم أكن قد رأيت قطّ رجلًا حقيقيًّا ميتًا من قبل، حتى اليوم، لم أكن أعرف الجثث إلا من روايات الجريمة، وفكرة أن كل الدماء التي أراها في الأفلام هي مجرد خيال قد جعلت في دماء الأفلام شيئًا مريحًا للغاية؛ إذ من المعروف مسبقًا أنها غير حقيقية، لكن البقعة الحمراء على صدر شيرلوك لم تكن من عمل فنان مكياج...

كنت أتجول في الغرفة وتعثرت بين الأثاث والملابس الملقاة على

سرير مغطى ذي أربعة أعمدة يشبه إلى حد كبير سريري، سحبت الستائر بعناية:

-أليكسيس؟

ثم همستُ في الظلام مرة أخرى:

-أليكسيس؟ إنها أنا آيمي، شيء ما سيء قد حدث، أنا حقًّا بحاجة إلى التحدث معكِ.

لم ترد أليكسيس.

حاولت بصوت أعلى:

-أليكسيس؟

شعرت بحافة السرير، يدي تتحسّس الملاءة، كان غطاء السرير منبسطا عليه وباردًا، انحنيت إلى الأمام وشعرت بالقماش يصل إلى الوسادة فتوقفت.

لم يكن هناك أحد أصلاً.

عُدت إلى الباب بثلاث خطوات سريعة، وعندما أشعلت الضوء بدت الغرفة فارغة أيضًا، أول ما فكرت فيه هو أن أليكسيس قد تكون غير قادرة على النوم؛ لذلك خرجت إلى القاعة وتجولت في المنزل لفترة، وتوقفت عند غرفة الرسم والحديقة الشتوية، وأخيرًا تمنيت أن أجدها تقرأ في مكتبة جدتي، ولكن حتى هناك لم أر أي أثر لأليكسيس. لسوء الحظ سيطرت عليَّ فكرتي الثانية، وهي أن الأمر بدأ مع هولمز أيضًا عندما اختفى.

لكن عندما تناولت الإفطار أخيرًا في ذلك الصباح بعد ليلة بلا نوم كنت أتقلب فيها يَمنةً ويَسرةً بقلق، كانت أليكسيس جالسةً هناك تتحدث إلى السيدة مايريد.

انفجرت قائلة:

-أين كنت بالأمس؟

هزت أليكسيس رأسها قائلة:

-صباح الخير، يا طفلتي الزرافة.

ثم أضافت:

-ماذا تقصدين بذلك؟ أين يمكنني أن أكون؟

-حسنًا، الليلة الماضية، بحثت عنك في غرفتك و...

رفعت السيدة مايريد حاجبيها أيضًا.

تظاهرت أليكسيس بعدم الانتباه واحتست قهوتها وقالت دون أن تنظر إلي:

-سمعنا للتو عن شيرلوك هولمز من السيد ستيفنز.

تمتمتُ وجلستُ:

-نعم.

ما خطب أليكسيس؟ بدت الحركات التي كانت تحضر بها شطيرة المربى متوترة، ثم دسَّت الطعام في فمها بقليل من المضغ، وبعدها قفزت عن الطاولة قائلة بسرعة وهي تلوك الطعام:

-أتمنى لك يومًا سعيدًا يا آيمي.

ثم خرجت من الباب مسرعةً، تبادلنا أنا والسيدة مايريد النظرات الغاضبة.

في المكتبة السرية أيضًا، لم يتحدثوا عن شيء سوى وفاة المحقق الشهير في ذلك الصباح، ألقى جلين محاضرة عليّ أنا وويل وبيتسي، وقد بدا تأنيبه لويل شديدًا، وظل يؤكد كيف أنه قد تصرف بطريقة غير مسؤولة عندما أخذ هولمز بالفعل عبر الدائرة الحجرية، ثم أعلن أخيرًا للمرة الثالثة:

-هذا يوم أسود لعشائر مُنشئي الكتب الموقرة، أنتم هناك لحماية عالم الأدب، يجب أن تتجنبوا الحوادث لا أن تسبّبوها بلا مبالاة.

كانت بيتسي تُومِئ برأسها طوال الوقت، ووضعت تعبيرًا أوضح على أنها كانت تريد فقط قول الشيء نفسه تمامًا قائلة:

-بالطبع، بالطبع.

أما ويل فقد جلس شاحبًا وظل على جلسته وهو يقرأ نص العقاب الصادر بحقه، تابع جلين:

-الشيرلوك الآخرون من بقية روايات هولمز سيتولون الآن المهام الموكلة إلى شيرلوك في كتاب «كلب عائلة باسكرفيل»؛ لذا فإن الأسوأ، وهو تدمير قصة بأكملها، بالكاد تم منعه، ومع ذلك، من الآن فصاعدًا سيتعين عليك العمل مرتين لتعويض خطئك، لقد فشل قافزو الكتب الآخرون من قبل، لكن موت شخصية أدبية كان وسيظل جريمة مروعة على نحو خاص، أتمنى أن تكون على علم بهذا.

قال ويل:

-بالطبع.

كانت تلك أول كلمة سمعناها منه في ذلك اليوم، ثم قام من مقعده وهو يفرد جسده وقال بصوت حازم:

-أنا أعرف كل ذلك، ولهذا السبب اتخذت قرارًا الليلة: سأستقيل، لن أقفز بعد الآن.

صرخت بيتسي:

-ماذا؟! لا، أنت... مدين لهبة عائلتك، لقد وُلِدتَ قافزًا في الكتب، لا يمكنك التنصل من ذلك.

-والداي استطاعا فعل ذلك.

بيتسي أيضًا غطت الحمرة وجنتيها من الانفعال وهي تقول:

-لقد تركاك والداك، تركا بكل بساطة طفلهما الوحيد وراءهما، ألم تعد تدرك هذه الحقيقة؟

-أتذكر جيدًا اليوم الذي غادرا فيه، أرادا اصطحابي معهما، لكنني بقيت.

-لأنك اخترت عائلتك! عليك أن تستمر يا ويل، أنت...

قال ويل، وهو يبحث عن سترته.

-مكثت لأنني كنت أعرف أنه الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله، كما أعرف الآن ماذا أفعل، لا توجد طريقة أخرى إذا أردت أن أنظر إلى وجهي في المرآة مرة أخرى.

وأضاف جلين:

-لن يوافق اللورد على ذلك.

هزّ ويل كتفيه غير مبالٍ، ثم غادر قاعة الدرس.

أرادت بيتسي الركض وراءه، لكن جلين أشار إليها بالتوقف، قال وهو يضع شيئًا ضخمًا على مكتبه:

-سوف يهدأ عندما يفيق من الصدمة، لكن لا شيء يمنعنا من الاستمرار في التركيز، أليس كذلك؟ هذا هو تاريخ عائلة لينوكس الذي نريد التحدث عنه اليوم.

تمتمت بيتسي وهي تشد عينيها:

-حسنًا، عظيم.

فتح جلين غطاء الشيء الموجود على مكتبه، وأخرج ما بدا أنه بطاقة وقال لنا:

تعاليا إلى هنا.

كلما اقتربنا، تيقنت أنها شجرة عائلة، إنها شجرة عائلة على شكل قرون الغزلان، يتوزّع أفراد العائلة على تشعّبات لا حصر لها على الورقة، ويتوهجون بالذهب ودرجات مختلفة من اللون الأخضر، لا بد أن شخصًا ما رسمها بفرشاة رفيعة جدًّا. في الوسط كانت هناك صور صغيرة مرسومة، كُتب اسم إيغون لينوكس، القارئ العظيم الأكبر، وتحته صورة رجل بلحية حمراء ورأس أصلع أسفل الجذع. من هناك، انبثقت الفروع نحو رونالد لينوكس، الذي بدا قاتمًا

ولوَّح بفأس فوق رأسه، وإلى أيدان لينوكس، الذي كان يرتدي رداءً طويلًا وتحته رداء آخر متلألئ. استمر الأمر مع عدد من الرجال والنساء ذوي الشعر الأحمر، حتى انتهى الجزء العلوي من الشجرة بصورة للسيدة مايريد الشابة الجميلة، هذا يعني... لا، لقد قلب جلين قطعة أخرى من الورق شوهدت عليها أليكسيس بالفعل بشعرها الرائع، منها فرع صغير أدى إلى صورة فتاة صغيرة ذات عيون كبيرة وشعر لامع، تحتها كُتب آيمي لينوكس بأحرف غامقة.

في الواقع، كانت اللوحة الصغيرة لآيمي وهي ترتدي بلوزتي الصوفية الزرقاء الداكنة!

قال جلين:

-اهتمّ ديزموند بالأمر بالأمس، هل أحببتِ صورتك؟

تلعثمت:

-نعم، بالطبع.

لقد صورّني ديزموند جيّدا، على كل حال. في الواقع، بدوت جميلة تقريبًا في اللوحة.

قال جلين:

-حسنًا، أريدك الآن أن تعرفي العواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب على ذلك إذا لم تأخذي دورك وصيّةً على الأدب بجدية كافية.

طوى البطاقة مرة أخرى وبدلًا من تصفّحها قلب حزمة صفحات

من قصة عائلتي، توقف عند فصل كان عنوانه «النار العظيمة».

بعد لحظة، كنت أنا وبيتسي مستلقيتين كل منّا بجانب الأخرى في الدائرة الحجرية الموجودة على التل، حاول كلانا الاحتجاج عندما أدركنا أنه علينا القفز معًا، لكن جلين كان مُصرًّا وقال:

-الخلافات الحمقاء بين عائلتيكما تسببت في كارثة كافية، لقد حان الوقت أخيرًا لكي تدركا أنه يمكنكما معًا تحقيق الكثير، هيا!

بهذه الكلمات، ألقى المجلد الثقيل الذي يحتوي على تاريخ عائلتي على وجهَينا، الرسائل غير واضحة أمام أعيننا، والتاريخ وصل إلينا، لقد اعتدت الآن على الشعور الغريب في لحظة القفز.

انتهى بنا المطاف في قبو قديم مقبّب، تسللت الرائحة الكريهة إلى أنفي وكنت لا أزال أحاول توجيه نفسي في الغرفة المعتمة عندما وقفت بيتسي على قدميها وقامت بإزالة الأوساخ عن فستانها القصير ذي اللون الأحمر الداكن، أنا أيضًا وقفت متمايلة.

سألتها:

-هل كنت هنا من قبل؟

وضعت بيتسي إصبعًا على شفتيها وهزت رأسها عابسة.

نظرنا حولنا، كان القبو مظلمًا جدًّا، وكان الضوء الوحيد الذي نراه هو المنبعث من النار في المدفأة، حيث كان خنزير رضيع يُشوى على سفّود، كان هناك أمامه كرسي ذو ذراعين منقوشتين يجلس عليه شاب ذو لحية حمراء.

كان الشاب غافيًا، وكان يرتدي كِلْتْ[1] من الطرطان عليه رمز عائلتي، وقميصًا من الطراز القديم، كما كان بجانبه زوج من الأحذية وهو يمدّ قدميه الحافيتين القذرتين نحو النيران، أبقى عينيه مغمضتين قليلًا وهو يوازن كومة من الكتب على بطنه.

كنّا على وشك الاقتراب عندما تحطم باب في نهاية الطابق السفلي، اندفع صبيّان بعيون داكنة وشعر أشعث إلى الداخل، كانا أيضًا يرتديان الكِلْتْ، ولكن بنمط مختلف، ربما كانا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، ويبدوَا مستائَيْن أيضًا.

ظللنا أنا وبيتسي في الظل بصمت.

صاح أحدهما:

-مالكولم لينوكس! ماذا كنت تعتقد أنك فاعل؟

انعكس لمعان النصل في وهج النار الراقص.

ذُهل الرجل الجالس على الكرسي وقال:

-سيليان! تيفين! من سمح لكما بالدخول؟ ما هذا السيف السخيف الذي تلوّح به يا سيليان؟

كان الصبيَّان قد وصلا إليه الآن وبدآ بجرِّه من قدميه، تفرّقت كومة الكتب على الأرض، قال سيليان واضعًا طرف سيفه على عنق الرجل:

-قم وقاتل مثل الرجال، أو مُت كالخاسر الفاشل!

1- اللباس الاسكتلندي الشعبي، وهو يشبه الإزار اليمني ويصنع من قماش صوفي يسمى طرطان.

قرّر مالكولم لينوكس الأول أن يقاتل ووجّه سلاحه أيضًا إليهما، فصارت الشفرات تصطدم بعضها ببعض، واصطك المعدن بالمعدن. وقف مالكولم وسيليان عبر الغرفة يتبارزان.

سأل مالكولم عرَضًا:

-هل لي أن أعرف لماذا تريد قتلي؟ هل أعطتك والدتك حمّامًا ساخنًا مرة أخرى؟

زمجر سيليان:

-كنت تغش، لقد فعلتها حقًّا، لقد أحضرتها إلى هنا!

-معذرة ماذا تقصد؟

بالكاد تمكّن مالكولم من تجنّب ضربة، فقط في اللحظة الأخيرة ردّ السيف بالسيف، ترنح بضع خطوات نحو المدفأة، ثم قال:

-أحضرتُ مَن؟ وإلى أين؟

صاح سيليان:

-لا تتصنّع الحماقة، نحن نعلم عن حوريات البحر!

ثم بصق عند قدميه وهو يتحدث:

-أنت تنوي القيام بذلك، تنوي احتلال الساحل! رأيناهن وأردنا إعادتهن إلى كتابهن، لكن الوحوش كانت سريعة جدًّا وسحبتهن بعيدًا منذ فترة طويلة.

-أعتقد أنكما كنتما ضعفاء جدًّا للقبض على السيدات، هل ضحكن عليكما على الأقل؟

قال الصبي الثاني من عائلة ماكاليستر، تيفين، الذي كان قد ظل في الخلفية سابقًا:

-هراء.

وفجأة أصبح يحمل خنجرًا في يده واندفع نحو مالكولم أيضًا، وصرخ:

-تجلب مخلوقات أسطورية إلى هنا، كيف يمكنك ذلك؟ يمكنها أن تكون في أي مكان الآن! سوف يراها الناس! وسيعتقدون أنها حقيقية.

ابتسم مالكولم قائلًا:

-حسنًا، إنهم حقيقيون فعلًا، أدبيون لكن بحبكةٍ متميزةً.

على الرغم من أن الصبيّيْن الآن هما اللذان يمسكان به، فقد يكون أكبر منهما ببضع سنوات فقط، لكن فنون الدفاع عن النفس الخاصة به تجاوزت بكثير تلك الخاصة بمهاجمَيه، دار في الغرفة، وتلاعب بهما، بدا نصله في كل مكان في آن واحد، لكن عائلة ماكاليستر لم تستسلم، لقد استمرًا في محاربة مالكولم بيأس يكبر أكثر فأكثر.

سخر مالكولم منهما وهو يقوم بالاندفاع والمراوغة بأناقة:

سوف يغضب اللورد إذا اكتشف أنك لست في مهدك في هذا الوقت من اليوم.

غضب سيليان وتيفين من السخرية، لكن فجأة اتسعت أعينهما في حالة صدمة، وبين ثانيتين، قاما بإنزال أسلحتهما.

ضحك مالكولم:

-هل تخشيان أن يوبّخكما اللورد؟ حتى إنّه قد يتخلى عن قصة ما قبل النوم عقابًا لكما.

لكنَّ فردَيْ عائلة ماكاليستر أشارا فقط بصمت إلى المدفأة، حيث كانت تحترق عدة كتب، لا بد أن مالكولم قد تسبب في ذلك أثناء لحظات اندفاعه.

هو أيضًا أسقط سيفه ملتاعًا وقال:

-لا لا بحق الرّبّ!

ووصل إلى ألسنة اللهب بيديه العاريتين، حذا الولدان حذوه بسرعة، ثم أخرجوا الكتب المحترقة كتابًا تلو الآخر وداسوا عليها بجنون لإخماد النار، كنت أرغب في الإسراع إلى الأمام ومساعدتهم، لكن بيتسي أعاقتني بقبضة حديدية وهي تقول بصوت مسموع بينما حاول أسلافنا على نحو محموم إنقاذ الكتب:

-أفهمتِ أي شيء عن أصول القفز أم لا شيء على الإطلاق؟ لم تفهمي، أليس كذلك؟ نحن لا نتدخل.مكتبة .. سُر مَن قرأ

في النهاية، لم يتبق سوى كتاب واحد في الجمر.

قام مالكولم بمدّ يديه المحترقتين للمرة الأخيرة في المدفأة، انهار الكتاب بالكامل تقريبًا وتحوّل إلى رماد، ولم يتبقَّ منه سوى القليل من الرماد، عندما أخرجه ووقعت عيناه على العنوان، بدأ يصرخ بصوت عالٍ ملتاع:

-يا للهول! إنها النسخة الوحيدة! إنها مخطوطة!

سيليان ماكاليستر:

-ماذا؟

ألقى تيفين ماكاليستر معطفه الذي اشتعلت فيه النيران أيضًا، هبط على كرسي بذراعين، حيث بدأ الفراء الذي كان بمثابة وسادة يتصاعد دخانه على الفور، كما خرجت بعض الأخشاب المتوهجة من المدفأة؛ مما أدى إلى اشتعال المفروشات ووقود المدفأة الخشبي.

لكن لم يعر مالكولم ولا الثنائي ماكاليستر أي اهتمام بالنار، حدَّق الثلاثة مصدومين في بقايا المخطوطة التي ما تزال ينبعث منها الدخان.

أخيرًا صاح مالكولم وهو ينطلق خارجًا:

-علينا أن نذهب إلى بوابة الدائرة الحجرية هذه فرصتنا الوحيدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أومأ الصبيان برأسيهما، في اللحظة التالية اندفع الثلاثة خارج الباب.

نظرت على نحوٍ محموم حول الغرفة وقلت:

-نحن بحاجة إلى شيء لإطفاء النار فورًا.

ورحت أفكر لماذا لا يوجد في الواقع دلو من الماء في أيّ مكان قربك عندما تحتاجه؟

صرخت بيتسي في وجهي:

-هذه قصة أيتها الحمقاء! هذا ليس حقيقيًّا، ألا تفهمين؟

رحت أتشمّم الدخان، في الواقع، حسب كل حواسي، شعرت أن الأمر برمّته حقيقي! حقيقي إلى درجة أنني كنت خائفة.

انتشر الحريق بسرعة، حتى إن العوارض البارزة هنا وهناك من الجدران أصبحت مشتعلة، ملأ دخان أسود كثيف الغرفة تمامًا وأدمع أعيننا، كل نفَس كان عذابًا، رحت أفتح جفوني وأغلقها إذ لم أكن أستطيع رؤية شيء. وشعرت أن بيتسي تدفعني إلى الأمام على ما يبدو. لسعال ولهاث، وتعثرنا بضع خطوات إلى أن هبطنا.

عندما تدحرجنا على السجادة المضفورة حيث الدائرة الحجرية في سترومساي بعد ذلك بوقت قصير، استغرق الأمر مني لحظة لالتقاط أنفاسي، استنشقت الهواء النقي بجشع وانتظرت حتى تتوقف عيناي عن الدمع، كانت رئتي مشتعلة.

أخيرًا، ساعدني جلين وبيتسي لأقف على قدمي مرة أخرى.

قالت بيتسي متذمرة مشيرة إلى فستانها الملطخ بالسخام:

-ألم يمكنك إخبارنا مسبقًا بارتداء الملابس القديمة؟

تغطى خدَّاها وشعرها أيضًا بطبقة داكنة من الرماد، وأعتقد أنني لم أكن أبدو أفضل حالًا، ومع ذلك لم أكن أهتم حقًّا وقتها.

سألته:

-هل كانت تلك هي النار التي أحرقت قلعة أسرتي؟

أومأ جلين برأسه وراح يشرح لي:

-لكن هذا ليس سبب إرسالك إلى هناك، إن خسارة القلعة مجرد مثال للمقارنة بما فُقد للأبد في تلك الليلة، كانت المخطوطة التي انتهى بها المطاف في النار هي السجل الوحيد الموجود للقصة، وعندما احترقت فقد تمّ محو القصة بأكملها معها إلى الأبد، لقد كانت كارثة أصابت الأسرتيْن بشدة. على الرغم من أنهم كرّسوا حياتهم لحماية عالم الكتب، فقد تسبب شجارهم في تدمير جزء من هذا العالم.

تذكرت بغموض أن جلين كان يخبرني شيئًا عن ذلك الكتاب المحروق في أول يوم لي في الفصل، فسألته:

-وهل وقَّعت الأسرتان منذ ذلك الحين على هدنة؟

ابتسم جلين:

-بالضبط هذا صحيح يا آيمي.

ومع ذلك، تنهدت بيتسي ضجرة وهي تقول:

-لقد سمعنا تلك القصة مائة مرة، لم يكن عليك حقًّا أن تدمّر تسريحة شعري من أجل ذلك، لست بهذا الغباء ولن أُلقِي – مهما حدث – ببعض المخطوطات في النار.

أوضح جلين:

-أردت أن تريا بوضوح مدى سرعة خروج الأمور عن السيطرة، حتى في ذلك الحين، لم يكن أحد بهذا الغباء، لم يكن ليخطر ببال ماكاليستر أو لينوكس تدمير أي قصة، ومع ذلك حدث ذلك بسبب الإهمال، كما أن الإهمال جعل من الممكن أن

يتعرض شيرلوك هولمز لهذا الحادث المروع.

قالت بيتسي باقتضاب:

حسنًا، لقد فهمت وجهة نظرك، ولكن عليَّ أن أستحمّ الآن، أم يجب أن ننتقل إلى قصة حريق لندن العظيم؟

قال جلين هادئًا:

-لا، انتهى الدرس لهذا اليوم.

هرعت بيتسي دون كلمة أخرى، بينما بقيت أنا وساعدت جلين في لف السجادة.

سألته باهتمام شديد:

-ما نوع القصة التي احترقت؟ هل تعلم؟

عبرت ابتسامة حزينة على وجه جلين وقال:

-لقد كانت قصة خيالية، قصة خرافية قديمة.

جاب الوحش جميع أنحاء البلاد، لم يكن يعرف الرحمة.

وحيثما ظهر كان يجلب الموت والخراب.

سرعان ما لم تعُد الأميرة وحيدة مع خوفها.

فقد خاف كل سكان المملكة الآخرين على حياتهم مثلها.

(7)

اكتشافات

خلال الأيام القليلة التالية، ظهر ويل في الصف الدراسي في المكتبة السرية، لكنه ما زال يرفض القفز في عالم الكتب، بدلًا من ذلك، جلس وحدق في سطح الطاولة أمامه بينما كان جلين يجعلنا نمل عن طريق إلقاء المحاضرات علينا حول قصة سترومساي والخلاف بين عائلتيْنا.

على الرغم من أن ويل كان يختفي دائمًا بسرعة كبيرة بعد الجزء النظري من تدريبنا، حتى إنني لم أستطع أن أسأله عن حالته، وفي فترة ما بعد الظهر لم يظهر أيضًا في أي مكان على الجزيرة؛ فقد تغير شيء بيننا منذ ذلك المساء في كوخه؛ لأنه في بعض الأحيان، عندما لا يلاحظ أحد، كان يرفع نظره عن سطح طاولته ويمنحني نظرة تقول إن كلا منّا يفهم الآخر.

بالطبع كنت قلقةً عليه، تمامًا مثل أي شخص آخر في الجزيرة، لكنني كنت أعرف أيضًا أنه بحاجة إلى وقت ليفيق من الصدمة، وكأن ويل قد تقوقع في صدفة التأنيب الذاتي والشعور بالذنب وسيستغرق

الأمر بعض الوقت قبل أن يخرج، كنت أعرف كيف هو شعور فقدان الأصدقاء؛ لذلك قررت أن أتركه بمفرده لفترة وأركز على عالم الكتاب بدلًا من الإلحاح عليه.

لأن ذلك العالم ما يزال يسحرني كثيرًا حتى أنني لم أستطع الحصول على ما يكفي من الزيارات هناك، لم تكن القفزات القصيرة التي أخذناها صباحا في الفصل قريبة بما يكفي لإرضاء فضولي؛ لهذا السبب كنت أقفز عادة في فترة ما بعد الظهر مرة أخرى من غرفتي سرًّا، بالطبع حتى لا يفكر أحد في منعي من الذهاب في رحلات دون مراقبة.

ومع ذلك، منذ وفاة شيرلوك، لم تكن هذه الرحلات ميسورة تمامًا كما كانت من قبل. لقد اعتقد الجميع الآن، على ما يبدو، أنه سقط بالفعل من الجرف في العاصفة، لكن كان لدي شعور غريب حيال ذلك، خاصة عندما فكرت في ثقب صدره، كان هناك شيء خاطئ في ذلك، وكان لدي انطباع بأن ويل يشعر بالشيء نفسه، حتى لو لم نتحدث عنه، لكني كنت مرتبكة أكثر بسبب ما اكتشفته أخيرًا في عالم الكتاب صباح الأحد، كنت أنا وفيرتير قد أُعجِبنا للتو بأحذية دوروثي الفضية في قصة «ساحر أوز»، وكنّا جالسَين في مكان ما في المحبرة عندما اندفع قطيع من الجنّيات عبر إحدى النوافذ المائلة. كانت المخلوقات الصغيرة بطول إبهامي أو أقصر، وكان جلدها مصبوغًا باللون الأزرق، وعظام وجهها تبدو بارزة من تحت الجلد، وأجنحتها تشبه أجنحة اليعسوب.

طار السرب إلى المنضدة واندمجت أصوات الجنّيات الصغيرات

محدثة طنينًا عندما طلبن قدحًا من رحيق الزهور، بعد ذلك مباشرة تشكلت سحابة الأجسام الزرقاء في يد أخذت الكأس مملوءةً بسائل ذهبي، على الطاولة المجاورة وضعن المشروب وبدأن في تغطيس رؤوسهن فيه أولًا، وهنّ يصفّقن بصوت عالٍ.

ارتجف فيرتير وهو يقول:

-يا للقرف! الجنيات بلا أخلاق.

ثم انحنى إلى الأمام ليشرب من الشفّاط الموضوع في زجاجة كوكاكولا، وقد أصبحت شرابه المفضل الجديد؛ لأنه على عكس كوكتيلات الحبر، ليس له آثار جانبية مزعجة. كان يحمل في يده قلم ريشة مهيبًا خدش به قطعة من الورق المصنوع يدويًّا. أحب فيرتير كتابة رسائل لشخصيات أخرى، في هذه الرسالة وجّه كلماته إلى صديق جيّد يُدعى فيلهلم، وكان فيرتير في طور الوصف بكلمات منمقة كيف أنه شرب مؤخرًا مع آلام العالم. الحقيقة، بدا لي بالطريقة التي قالها، كأنني أرى عملًا بطوليًّا تقريبًا.

قرأت عابرة الطاولة ببصري شيئا ممّا خطّه بكتابة مزخرفة عن روح الخوف والآلام في القلب، وأثناء انغماسه في الكلمات كان أحيانًا يتمكن من الالتفات، كان ذلك يعطيه مساحة من التأمل والوقت، ولكن يبدو الآن أن أصوات الجنيات على الطاولة المجاورة تمنع إبداعه. للحظة بقيت الريشة في الهواء فوق الحرف نصف المكتمل، ثم وضعها جانبًا وتنهّد، تمتم لي:

-وحوش مزعجة، إنهن يضعن أنوفهن الحادة الفضولية في كل

شيء، ثم يقمن بالطيران من أجل المتعة في القصص التي لا مكان لهنّ فيها.

ذكَّرته بحذر بينما كانت جاراتنا الجنّيات يتنافسن لمعرفة من يمكنها وضع أفضل لون أحمر ينفجر في رحيق الأزهار:

-ربما نحن أيضا سنفعل ذلك لاحقًا.

قام فيرتير بتدليك أرنبة أنفه ثم قال:

-هذا صحيح، ولكن على العكس، نحن نعرف كيف نتصرف.

بعد ذلك طوى الرسالة لأن الرحيق كان يتناثر في كل مكان بالقرب منّا.

وبالفعل مسحت قطرة متلألئة وقعت على وجنتي، وشعرت أنني قد وضعت إصبعي في مادة شديدة الالتصاق، وعلى الفور التصقت إصبعي السبابة بذقني، قلت محاولةً تحرير نفسي بهدوء:

-نعم، ربما معك حق.

استمرّ فيرتير في التذمّر وقال:

-الوحوش الفضولية.

بينما بقيت إصبعي حيث هي.

ومع ذلك، فقد أفرغت الجنّيات في هذه الأثناء أكوابهنّ وهنّ الآن مستلقيات على سطح الطاولة ببطون ممتلئة، بل وراحت بعضهن يتجشّأن من أعماقهنّ.

فكرت بعد هذا المشهد، فقلت:

-إذًا أنت تتسكع في كل مكان، كما أخبرتني؟

أومأ فيرتير بالإيجاب وهو ما يزال مركّزا على الجنيات:

-هؤلاء مصدر إزعاج حقيقي! لا أحد في عالم الكتاب هذا، أو أي مخلوق يحترم نفسه، يتعامل معهن.

قررت أن أقوم أنا بذلك، فقمت من مجلسي وسألت إحدى الجنيات المتجشآت:

-معذرة، هل يمكنني الجلوس معك للحظة؟

تفتّحت رموشها عن عينين خضراوين زادت المفاجأة في لمعانهما ثم أطلقت صفيرًا بشيء غير مفهوم.

سألتها مرة أخرى:

-معذرة؟

ثم بيدي التي لم تكن أصابعها ملتصقة ببعضها، سحبت كرسيًا.

استعدَّت الجنية واستيقظ باقي السرب مرة أخرى ليعود إلى التجول. قالت لي أكثر من مرة هامسة وكأنها تخشى أن يكون لصوتها صدى يتردّد في المكان:

-لماذا، لماذا تمسكين ذقنكِ هكذا؟

قلت لها وأنا أحاول تحرير إصبعي بلا جدوى:

-لأن إصبعي ملتصقة، لا أستطيع إبعادها عنه.

تنهّدت الجنية وقالت:

-أوه.

تلعثمت بينما كانت إحدى الجنيات تتأرجح بالقرب من وجهي، ممّا أربك كلماتي:

-أنا... آه... أردت أن أسأل عما إذا كنت... آه...

في اللحظة التالية شعرت وكأن رأس إبرة تنغرس في أطراف أصابعي؛ فصرخت من الألم، وضربت الجنية حتى إنها تأرجحت إلى أن ارتطمت سطح الطاولة.

تمتمت وهي تهزّ رأسها:

-آسفة، أردت فقط تقديم المساعدة لكِ.

عبست وأنا أقول:

-عن طريق قضم إصبعي؟

-لا لا، كنت أودّ لعق الرحيق فقط.

وبالفعل أتت جنية أخرى، وحطّت على إصبعي الملتصقة بذقني، دغدغ جناحاها وجنتي وهي تميل وبدأت تقضم القطرة اللاصقة.

راقبت الجنيات الأخرى المشهد بحزن درامي شديد.

سألتها بسرعة مستغلة الفرصة عمّا أودّ أن أعرفه:

-هل لاحظتِ أي شيء غريب مؤخرًا في رحلاتك عبر عالم الكتب؟

ابتعدت الجنّية عن معصمي فجأة، ثم اندفع باقي السرب أمامي، ركّز عدد لا يُحصى من العيون الخضراء المتوهجة عليّ، وقلْنَ

بصوتٍ واحد معًا في انسجام تام وكأنهنّ كورال غنائي:

-نعم، حدثت أشياء وأشياء، أشياء قبيحة، أمور فظيعة، شخص ذهب للصيد، وشخص ما ذهب ليخطف، شخص ما هو شخص سيء.

فكرت في الأرنب الأبيض من قصة أليس في بلاد العجائب، الذي فقد سترته وساعته وقدرته على الكلام، فتساءلت:

-هل هذا يعني سرقة المزيد من الأفكار؟

أومأت الجنيات بشغف، وتضخم طنين ضربات أجنحتهن مع أزيز أصواتهن عندما اقتربن مني. وكأنه نسيم جليدي يمسح أنفي، همسن جميعًا:

-الجميلة النائمة استيقظت في منتصف الأعوام المائة من النوم وترفض انتظار الأمير، لقد فقد دوريان جراي صورته، كما اختفى إرلكونيغ، ذلك يزيد الأمر سوءًا كل يوم، المزيد والمزيد من الأفكار تنعدم، وهي ليست مجرد أفكار.

أخيرًا انتهت الجنية من عض إصبعي وخلصتها من الرحيق فقلت لها وأنا أحرك إصبعي بعيدًا:

-شكرًا لك، ولكن ماذا تقصدن بأنها ليست مجرد أفكار؟

همست الجنيات الموجودات في الأسفل قليلًا واقتربت لتسكب الكلمات في أذني:

-إنها الأساسيات، إنها أفكار المؤلّف الأولى، الأفكار التي دونها

تنهار القصة، شخص ما يتسلل إلى عالم الكتب ويسرقها.

جلست أنا وفيرتير بعد فترة طويلة من رحيل الجنيات من جوارنا، ورحنا نتناقش ونحن في مكاننا ذاته، ماذا يريد أن يفعل اللص بكل الأفكار؟ كيف فعل ذلك؟ هل كان من الممكن منعه؟ من يكون أساسًا؟ لكن مداولاتنا جرت في دوائر مغلقة ولم نجد إجابة واحدة مرضية لكل هذه الأسئلة، وفي مرحلة ما استسلمنا. عاد فيرتير إلى روايته ليقتل نفسه مرة أخرى، وعدت إلى العالم الخارجي، حيث سرعان ما أعطاني الطقس أفكارًا أخرى.

في فترة ما بعد الظهر، كانت الجزيرة تغمرها أشعة الشمس الساطعة ووصلت درجات الحرارة إلى ارتفاع يقارب الصيف الذي أعرفه، بسطت بطانية في حديقة منزل لينوكس واستلقيت عليها، من هناك شاهدت السماء الزرقاء فوقي وقد اندهشت من ارتفاعها ووضوحها. في هذه الأثناء، كانت بشرتي تمتصّ كل شعاع من الضوء ودفَّأت الشمس كتفي وقدمي عندما سمعت فجأة صوت خطوات تقترب. في البداية اعتقدت أنه أحد الخراف التي تعرف أن العشب هنا غضٌّ وأطيب، ولكن بعد ذلك شق رأس مظلم طريقه إلى السماء الخالية من العيوب، يحاكي وجه ويل، كانت هناك ظلال عميقة داكنة تحت عينيه.

قال غير واثق من كلماته:

–مرحبًا.

جلست وأجبته:

-مرحبًا!

قال لي ويل:

-أريد النزول إلى الشاطئ وإلقاء نظرة أخرى على المكان الذي جرفته فيه المياه، أعتقد أنني قد أعثر على شيء آخر دليلاً على ما حدث.

-ازدرد لعابه ومدّ يده لي مضيفًا:

-هل تأتين معي؟

ولهذا كان هنا، لقد جعلته هذه الفكرة يخرج من قوقعة الحلزون التي وضع نفسه فيها بعد الحادث، كنت أعرف أنه سيخرج من عزلته لسبب ما! ابتسمت بتردّد كي لا أخيفه مرة أخرى فيتراجع عن طلب المساعدة. أمسك ويل بيدي لفترة أطول قليلًا ممّا كان ينبغي أن تكون عليه، وفجأة بدت سترومساي أكثر إشراقًا من ذي قبل. رسم الصيف أنماطًا زاهية على أكمام قميصي وجعل الزهور البرية في المستنقع تبدو أكثر دفئًا وزهوًّا، ويل فقط هو الذي استمرّ في الظهور باللون الرمادي وفي داخله الظلام، كما لو كان يسير تحت سحابة مطر خاصة به.

اتخذنا الطريق إلى الشاطئ، وبدأت الحديث قائلة:

-هل بحثت في المنحدرات أيضًا؟ إذا سقط حقًّا في البحر من هناك، فربما يكون هناك آخرون أيضًا.

قال ويل بينما كانت نظرته ثابتة على الحطام في مهب الريح:

-نعم فعلت ذلك.

وعلى يميننا، تدحرجت موجات البحر فوق الحصى في تموجات لطيفة وفوق شظايا حطام السفن. مشينا عبر الشاطئ واقتربنا بسرعة من بقايا أسطول الغوّاصات، وفجأة شهق ويل بجانبي وكأنه لا يستطيع التنفس جيدًا.

سألته:

-هل أنت بخير؟

أشار بصمت إلى الظل الموجود بين الأضلاع المعدنية، الذي بدا وكأنه جسم بشري، سرَتْ برودة في أوصالي، وعلى الرغم من أن الجو لم يكن باردًا، فإنني ارتجفت وشعرت بساقيَّ غريبتين، كأنهما لم تكونا ساقيّ يومًا، صارت لهما إرادة حرة فحملتاني وحدهما إلى الأنقاض، كما لو كنت مسحوبة بخيط غير مرئي، لا يمكن أن أصحبهما نحو شيء مروّع، كما في الحلم الذي تفضل فيه الهروب، لكن لا يمكنك تحقيقه.

كلما اقتربنا لاحت أكتاف إنسان تخرج من الماء، ثمّ بانت أكثر وضوحًا، كان الجسد ملفوفًا في سترة زهرية، وفوقها انتشر رأس يقطر منه الماء من الشعر الأحمر الداكن والمجعّد. انتشر الفراغ في داخلي، فجأة أصبحت الأفكار في رأسي ساكنةً جدًّا، جريت بسرعة نحو الأمواج. أردت أن أصرخ، لكنَّ صوتًا أجش فقط جاء من بين شفتي وأنا أقول:

-أليكسيس!

تعثرتُ بحافة معدنية وانقلبت في الماء، وعندما ظهرتُ على السطح، رأيت وجه أليكسيس المذهول.

لم تمت، بالطبع لا، غمرتني لحظة من الرعب حتى أدركت أن والدتي لم تكن وحدها، كانت يداها مشبوكتين بإحكام حولها، وُضعت أليكسيس على جذع وفوقها وجه به ندوب، كان وجهًا صغيرًا جدًّا، كان هو وجه ديزموند.

حدَّقت فيهما من واحد إلى الآخر بفمٍ فاغر، كان كلاهما مبتلاًّ، وكانت وجنتاهما محمرّتين، وملابسهما ملتصقة بهما، كما لو أنّهما قد استحمّا هنا في المياه الضحلة... يتبادلان القبلات؟

تمتمت أليكسيس، محاولةً بسرعة سحب أزرارها لإغلاق قميصها:

-مرحبًا، يا آيمي.

لم أرُدّ ولكن أحدثت خطواتي وأنا أحاول الاتزان بعض الأصوات.

التقط ديزموند خصلة من شعر أليكسيس ليعيدها خلف أذنها، مبتسمًا لها، كان ينظر إليها بعينين مشرقتين، كم كان عمر هذا الرجل؟ عشرون؟ تسعة عشر؟ ثمانية عشر؟ فتحت فمي صامتة وأغلقته مرة أخرى.

قالت أليكسيس:

-آيمي، يمكنني أن أشرح لكِ.

كانت لا تزال تتكئ على الـ... على صدر الصبي!

أخيرًا أطاعتني ساقاي مرة أخرى، استخدمتهما فورًا فاستدرت وركضت، تناثر الماء من حولي وقفز إلى عيني، تعثرت عند الضفة، منزلقة على المحار، وضربت الأرض بيدي وركبتي. على الفور نهضت من جديد ووقعت على الأرض، كان عليَّ الابتعاد من هنا فورًا، فقط الابتعاد!

نادت أليكسيس قائلة شيئًا بعد هروبي، وارتفع صوت ويل يوجه كلمات إليَّ أيضًا، ثم ديزموند، لكنني لم أفهم كلمة واحدة، كان الدم يخفق في أذنيّ ويسدّهما عن سماع أي صوت آخر؛ لذلك صُدمت عندما انزلقت يد شخص ما فجأة على كتفي، كانت يد ويل الذي أصبح يركض بجواري الآن.

شهق محاولًا التحدث:

-أعتقد أنك أخطأت في فهم حقيقة الأمر.

همست قائلة:

-المعذرة، نعم؟

وهل هناك مجال لعدم الفهم بعد كل ما رأيت؟! ثم أضفت:

-يمكنني عدّهم واحدًا تلو الآخر! أليكسيس تستطيع أن تتغلب على فشلها في الحب بسرعة رهيبة! هذا رائع بالنسبة إليها!

أفلتُّ من قبضته وتسلقت الكثيب، بينما بقي ويل في مكانه.

ركضتُ بعماء إلى المستنقع للاختباء في قوقعة الحلزون الخاصة بي. لفترة طويلة جُبت أرجاء السهل البري، تعلّقت الأشواك بأسفل

سروالي، وتناثرت الأوساخ على ملابسي، كانت أفكاري معقودة على شيء متوهج في رأسي، وكل القصص التي قرأتها كانت مشدودة إلى قدمي ثقيلةً مثل الإسمنت: قصص عن الأبطال، قصص عن أناس لم يكونوا كما تعتقد بالضبط، قصص عن الحب، قصص عن الحرب، قصص مثيرة، قصص مطمئِنَة وقصص حزينة، تمسكت القصص بي وهمست لي عن الحياة: كيف يجب أن تكون وكيف ينبغي ألاّ تكون.

لطالما كانت أليكسيس بطلةً بالنسبة إلي، لقد كانت قدوتي، والدتي التي اعتنت بي، أفضل صديقة لي، وهي التي يمكنني أن أخبرها بكل شيء، أي شيء، ولكن الآن ظهرت لي البقع الداكنة في مظهرها اللامع، رأيت اليوم أليكسيس وهي ترتبط بشاب بالكاد يكبُرني بعامين أو ثلاثة، رأيت أليكسيس التي يبدو أنها نسيت تمامًا حبّها الكبير لدومينيك في غضون أيام قليلة، كانت أليكسيس التي لم أكن أعرفها بعد.

ظللت أركض رغم أنني أُصِبت بوخزة في جانبي، كما ركض معي العرق على صدغي، ركضت رغم أن أنفاسي صارت صعبة، في البداية كان الغضب هو ما دفعني، ثم شعرت بالخجل من هذا الحب غير اللائق، لكن لا، في الواقع لم أكن أخجل من أليكسيس ولا كنت غاضبةً منها، ما قبض صدري وحاول أن يفجّر ذهني كان مخيّبًا للآمال لدى الجميع، كان هو الإدراك أن أليكسيس قد ابتعدت عني، وأنني لم أعد أفهمها، كانت أيام قليلة في سترومساي كافية لفتح هوّة عميقة بيننا.

في الوقت المحدّد لتناول العشاء، عدت إلى منزل لينوكس، كما أنا، متسخةً دون تغيير لثيابي، جلست إلى الطاولة حيث كانت السيدة مايريد وأليكسيس جالستين بالفعل، وهذه الأخيرة تجلس في ثوب جاف وتضع زهرة كبيرة في شعرها. رفعت جدّتي حاجبيها عندما رأت مظهري فقلت مبررة وأنا أهز كتفيَّ:

-لقد انزلقت فقط.

سارعت أليكسيس بتوجيه المحادثة إلى موضوع تنسيق الزهور في منتصف المائدة، حتى دخل السيد ستيفنز أخيرًا مع طبق فضّي كبير، وباحتقار لموت الكائنات الأخرى، قدّم لنا طبقًا فيه حيوان كامل مشوي، كان قد طهاه في الفرن بالبصل والجزر، كانت هناك أيضًا بطاطس نباتية مهروسة وفاصوليا خضراء، طعمها رائع بالنسبة إلي. في صمت حشرت أكبر قدر ممكن منها في حلقي، ثم اختفيت في الطابق العلوي، حيث استحممت وذهبت إلى الفراش.

عندما أصدر الباب صريرًا وهو ينفتح بعد ذلك بوقت قصير، وحين جلست أليكسيس على حافة السرير، تظاهرتُ أنني كنت نائمةً بالفعل.

في صباح اليوم التالي، دخل جلين الفصل الدراسي بتعبير جادٍّ وهو يقول:

-يجب أن أذكّركم أن القافزين في الكتب ممنوعون من القفز إلى عالم الكتاب خارج الفصل الدراسي ما لم يُتمّوا مرحلة التدريب، هذه واحدة من أهم القواعد على الإطلاق، ألم تتعلموا أي شيء ممّا

حدث مع هولمز؟

ثم ذهب الوميض المبهج في عينيه وهو ينظر إلينا واحدًا تلو الآخر.

قضمت شفتي السفلى، ورُحت أفكر هل أفسدنا أنا وفيرتير شيئا ما؟ تذكرت رحلاتنا الأخيرة، كنا في «ساحر أوز» وقبلها في «عشرون ألف فرسخ تحت البحر»، لكننا في الواقع نظرنا حولنا بحذر شديد وتأنٍّ، هل ارتكبنا خطأ غبيًّا لم ندركه؟

مطَّ جلين شفتيه، بدا لي أنه يعتبرها إهانة شخصية أن شخصًا ما قد كسر القواعد مرة أخرى.

من ناحية، شعرت بالسوء لأنني كنت أعرف الحظر بالطبع، وما زلت أتجاهله طوال الوقت، ومن ناحية أخرى، بدا لي أنه من المستحيل زيارة عالم الكتاب لمدة نصف ساعة فقط في اليوم تحت إشراف جلين، كان الإغراء أكبر من اللازم، سألته مترددة:

-ماذا حدث؟ هل حدث خطأ ما؟

قال بحدة:

-لا، لم يحدث شيء بعد، لكن واقع أن ديزموند قد رأى أحدكم البارحة موجودًا في بوابة الدائرة الحجرية إنما هو أمر مقلق، القفزة الطائشة يمكن أن تتسبب فيها نجهل عواقبه، ربما أسوأ من موت البطل.

تمتمت:

-حسنًا فهمت، كان أحدهم في الدائرة الحجرية؟

هل ما سمعته كان صحيحًا؟ أي أنه في النهاية، ألم يقصد جلين الأشياء الغريبة الصغيرة التي أفعلها من سريري ذي الأعمدة الأربعة؟

أومأ برأسه قائلًا:

-بالطبع، وهل يمكن القفز من غير هذا المكان؟ كان هذا الشخص مغطى الرأس وقد تسلل إلى قمة التل، عاد ديزموند لتوِّه من... نزهة ليلية ورأى وهج كتاب لا بد أن قافزًا في الكتب قد قفز منه للتو، ولكن عندما وصل إلى البوّابة، كان القافز أو القافزة قد غاب. السؤال الآن: من منكم كان ذلك الشخص؟

ازدردت لعابي، على الأرجح الآن أنني أملك فكرة جيدة عمّن كان يزوره ديزموند في تلك الليلة.

انتظر جلين للحصول على إجابة، مللت نظراته في وجهي، ثم انزلق إلى ويل وتجول في وجه بيتسي، التي أطلقت صوتًا ساخطًا وقالت:

-القفز سرًّا عمل غير مسؤول حقًّا، على الرغم من أنني بعد سنوات عديدة من التدريب كنت على ثقة من كوني لن أسبّب فوضى في عالم الكتاب مع أول فرصة تتاح لي، فأنني لن أُقدم أبدًا على مثل هذه المخاطرة، أعتقد أنك تعرف ذلك أيضًا.

زفر جلين زفرة عميقة، فأخذت بيتسي ذلك على أنه تصديق لما قالت، واستطردت:

-إلى جانب ذلك، يبدو واضحًا من كان ديزموند قد رآه، نظرًا لأن

ويل لا يقفز على الإطلاق في الوقت الحالي، لم يتبقَّ سوى شخص واحد عديم الخبرة وساذج بما يكفي للتسلل إلى الأدب ليلًا.

أدرت رأسي نحوها لرؤيتها وهي تضيف:

-شخص لا يهتم بسترومساي ولا بتقاليد عائلتينا، شخص ما ليس لديه دماء ماكاليستر الناقلة للكتب في عروقهم.

أجبت على الاتهام قائلة:

-ماذا من المفترض أن يعني هذا؟ لم أذهب أبدًا إلى الدائرة الحجرية ليلًا للقفز،

وأضفت في رأسي: لأنني لست بحاجة إلى ذلك للدخول إلى عالم الكتب.

تساءل ويل:

-هل أنت متأكد أن شخصًا ما قد استخدم البوابة؟

قال جلين:

-بالتأكيد هو شخص من بيننا!

قلت وكأنني أفكر بصوتٍ عالٍ:

-ربما هناك قافز آخر في الكتب لا نعرف عنه شيئًا، بعض الأقارب البعيدين أو شيء من هذا القبيل، ربما يكون هو اللص أيضًا.

سأل جلين مندهشًا:

-أي نوع من اللصوص؟

رحت أقص عليهم الأحداث الغريبة التي سمعت عنها وادّعاء

الجنيات أنّ شخصا ما يسرق الأفكار الأساسية. وكي لا أثير شكوك جلين بشأن رحلاتي غير المشروعة، زعمت، فقط لأكون في الجانب الآمن، أن الجنيات ظهرن مؤخرًا في كتاب الأدغال. لكن عندما أنهيت، كان ما بدا على جلين وبيتسي وويل استمتاعا بما حدث أكثر منه انزعاجا.

قال ويل:

-أنت تعلمين بالفعل أنه لا يمكن الوثوق بالجنيات، أليس كذلك؟ من المحتمل أنهن اختلقن هذه القصص لخداعك.

-لكننا... نعم، رأينا ذلك بأعيننا! لم يعد بإمكان الأرنب الأبيض من أليس في بلاد العجائب التحدث و...

قاطعتني بيتسي وضحكت ساخرة:

- أليس في بلاد العجائب؟ بالطبع، لا أحد مجنون هناك مطلقًا ولا أحد يمزح مع أحد.

قال جلين بحزم:

-على أي حال، لا يبدو لي أنكِ تقومين بعملك جيدًا في كتاب الأدغال كما درّبتك هنا، لا يمكنني الموافقة على ذلك، هل تعتقدين أنك لست بحاجة إلى أي تدريب؟

نظرت إلى الطاولة أمامي، ثم قلت:

-لكن بالفعل... عالم الكتب وما يتعيّن على الشخصيات الأخرى قوله مثير للغاية.

بدا جلين غير مرحِّب ولا ودود للغاية وهو يقول لي:

-كلنا نفهم ذلك، على ما أعتقد، لكن من الآن فصاعدًا، عليكِ أن تمتثلي لما يُقال لك وأن تركزي على الشخصيات في قصّتك وحسب، هل تفهمين؟

قلت:

-نعم، ألا يمكن حقًّا أنه لا يزال هناك المزيد من القافزين في الكتب الذين لا نعرف عنهم شيئًا؟

هزّ جلين رأسه حائرًا:

- مَن مِن الممكن أن يكون هؤلاء؟ هذه الجزيرة صغيرة أيضًا، إذا جاء شخص جديد إلى هنا فسنعلم به، أليس كذلك؟

بعد ساعة أعطانا تعليمات مفصلة لقفزاتنا وأرسلنا إلى البوابة، لكن ما إن وضعتُ قدمي خارج حجرة الدراسة حتى كدت اصطدم بديزموند في أحد الممرّات، وقد كان يستدير عند الزاوية مع كومة من المجلدات الثقيلة بين ذراعيه. ولحسن الحظ تمكنت من التوقف في الوقت المناسب، ولكن برج الكتب التي كان يحملها تمايل في وضع خطير ينبئ بالسقوط، حتى إنه اضطر الى الرقص على بعد خطوات قليلة ذهابًا وإيابًا من أجل استعادة توازنه.

قال لي في توتّر:

-آيمي.

نظرت إلى الندوب على وجنتيه والنمش على أنفه وهو يُكمل:

-أه... هل يمكن أن نتحدث قليلًا؟

والتمعت عيناه الرماديتان عبر ضباب الغبار الراقص الذي ملأ كل ركن من أركان هذا المكان. في الأساس كنت أراه شخصًا طيب القلب، لكن في ظل هذه الظروف... قلت:

-لا أفهم عن ماذا من المفترض أن نتحدث.

ورحت أحكّ ذقني، بينما همست بيتسي لويل:

-كما ترى، يعتقد هو أيضًا أنها كانت آيمي من قفزت.

ثم غادر كلاهما من ورائي.

تركت ديزموند، الذي كان يحمل كومة من الكتب على أكتاف مترهلة، ألقى بعدها على ويل نظرة عاجزة، ومشى نحو المخرج. ودون سابق إنذار جذبني ويل إلى الفجوة بين رفّين بينما أنا أتساءل إذا ما كانت بيتسي لم تقفز البتّة سرًّا وهي التي تدّعي أنها أفضل منّا إلى حدّ بعيد.

استحثّني دون أن تلاحظ بيتسي:

-هيا، هيا.

ثم جرّني أعمق في غابة الضباب التي في المكتبة، توقف أخيرًا عند زاوية بين لفائف المخطوطات المهترئة وكرة أرضية مرسومة على نحوٍ غريب، همس ويل إلي:

-حسنًا آيمي، أعلم أن هذا يبدو غريبًا، لكن ديزموند أكبر سنًّا ممّا يبدو عليه، أفهمتِ؟

فجأة وقف قريبًا جدًّا مني إلى درجة أن رائحتيْ المستنقع والصابون الذي يستخدمه قد وصلتا من ملابسه إلى أنفي، تحدث ويل بسرعة، كما لو أن ما قاله لي كان يمكن تصديقه:

-إنه ليس شخصًا حقيقيًّا، ولكنه شخصية في كتاب، تمامًا مثل جلين وكلايد، عاش الثلاثة هنا في المكتبة لما يقرب من ثلاثمائة عام، بعد أن أنقذتهم عائلتانا من المخطوطة المحترقة.

تلعثمت وأنا أسأل:

-هل هم من عالم الأدب؟ يبدون حقيقيين جدًّا في الواقع بالنسبة إلي.

أخرج ويل إحدى اللفائف من الرف خلفي وفتحها لي بعناية وهو يقول:

- كيف أصيبوا بتلك الحروق حسب اعتقادك إذًا؟

تذكرت كيف بدا جلين حزينًا في ذلك اليوم عندما تحدث عن الحكاية الخيالية المحترقة، هل لأن ذلك كان منزله! لا عجب أنه لم يكن من السهل عليه التحدث عنه، سألت ويل:

-ألا يمكنهم العودة؟

فتح ويل النص وتجوّل فيه وهو يستطرد:

-لا؛ لأن تاريخهم قد دُمِّر، فهم محاصرون إلى الأبد في العالم الخارجي.

قلت:

-يا للهول!

وشعرت الآن بفظاعة الأمر وأهمّيته، غريب كيف يمكن أن تكون هناك قيمة عالية جدًّا لما يبدو وكأنه مجرد أوراق قديمة مخطوط عليها مجرد كلمات، ثم تمتمت:

-لم أكن أعتقد أن شخصيات الكتاب يمكن أن تعيش هنا إلى الأبد.

-إنهم عادة لا يفعلون ذلك أيضًا، لكن يمكنهم ذلك، ومع ذلك، لن يشعروا أبدًا بأنهم في وطنهم وهم بعيدون عن قصصهم؛ لأنهم مختلفون وسيظلون كذلك. أنت تلاحظين ذلك فقط من النظرة الثانية، على سبيل المثال، هم أقوى منّا ولا ينامون، كل مائة عام يأخذون نوعًا من القيلولة لبضع سنوات، ثم يعودون إلى لياقتهم البدنية مرة أخرى، أجل، وهم لا يكبرون،

نظر ويل إلى عينيَّ مباشرة ثم لمستْ إبهامُه ظهر يدي فاستغلّت القشعريرة ارتجافي لتعبث بجلدي، كان ارتجافًا لطيفًا للغاية، خفضت بصري في خجلٍ، فقال ويل:

-ديزموند يبدو شابًّا فقط من الخارج؛ لذلك إذا كانت والدتك تريد أن تكون معه، فهذا في الواقع...

تركت الرّفّ متجاوزة ويل، ثم قاطعته وأنا أقول:

-هذا ليس عذرًا كافيًا! لقد ألقت بنفسها على أول شاب آخر خلف ظهري، حسنًا! لقد جئنا بالفعل إلى هنا لأنها كانت تعاني

من تبعات الحب، دومينيك قرّر مؤخّرًا الانفصال عنها وكانت حزينة بشدة بسبب ذلك، ولكن يبدو الآن أنها قد نسيت ذلك تمامًا، ولا أفهم حقًّا كيف تسير الأمور معها.

غمرت عينيَّ الدموعُ دون أن أتمكن من فعل شيء لمنعها من الانهيار، فحدقت بشدة في السقف.

سأل ويل:

-هل هذا هو السبب الذي جئتِها من أجله إلى سترومساي؟

أومأت وأنا أقول:

-كانت أليكسيس منهكةً جدًّا بسبب قصتها مع دومينيك وأنا...

جفّ حلقي فقلت:

-وأنا كان يجب أن أخرج وأرى شيئًا مختلفًا تمامًا.

أجاب ويل:

-إنه أمر سهل لمن يملكون موهبتنا بالطبع.

ثم بدأ في رصّ المخطوطات القديمة ليعيدها، نظر إليها لفترة أطول، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأضاف:

-لا تسيئي فهمي، أعتقد أن القفز في الكتب هو عزاء جيّد عندما تكونين حزينةً،

ثم بدا وكأنه كان يستحضر كلمات أخرى كان ينبغي أن يقولها لي منذ أيام:

-ولكن اصنعي من أجلي معروفًا وكوني حذرةً حقًّا، من السهل

التقليل من قدر الضرر الذي يمكن أن تسبّبيه، لقد تعلمت ذلك بالطريقة الصعبة.

قلت:

-امم، سأكون حذرة.

-كنت أفكر مثلكِ وأعتقد أنني حذر بالفعل، ومع ذلك، مات شيرلوك.

طمأنتُه:

-لن آخذ شخصية إلى الخارج، لا تقلق، يكفيني أن أتجول في قصصهم.

لم أستطع كبت ابتسامة وأنا أقول:

-لأكون صادقةً معك، لقد شاركت في بعض القصص الأخرى إلى جانب كتاب الأدغال وأوليفر تويست، كان هذا حقًّا أفضل شيء حدث لي.

ظل تعبير ويل جادًّا وهو يسألني:

-ماذا لو كنتِ قد قمت بخلط شيء ما؟ ماذا لو فقد الأرنب الأبيض الكلام بسببك؟

-إذًا أنت تعتقد أن شيئًا ما يحدث في عالم الكتب، أن شخصًا ما يسرق الأفكار؟

-لا، لم أقل ذلك بالضبط، لكنني أخشى ألّا تأخذي موهبتك على محمل الجّد.

قلت:

-هراء، أنا فقط أنظر حولي قليلًا، أنا أعرف بالضبط ما أفعله.

-هذا هو ما تقومين به، التسلل إلى الأدب في الليل.

هل كان يشك فيَّ هو أيضًا؟ عقدت ذراعي فوق صدري وقلت:

-حسنًا، ماذا لو كنتُ قد فعلت ذلك؟ فقط لأنك ارتكبت خطأ لا يمنحك الحق في الحكم عليَّ، وفقط لأنك تعتقد فجأة أنه خطأ لا يعني أنه لا ينبغي لنا جميعًا القفز بعد الآن، هذا ما تريده، أليس كذلك؟ ستُسَرُّ لو أبعدنا أنا وبيتسي أيدينا عن الأدب من الآن فصاعدًا.

هزّ كتفيه وقال:

-نعم، وبهذه الطريقة يمكننا التأكد من عدم وفاة أي شخص آخر.

قلت منفعلة:

-بالتأكيد، لكنني لن أتخلى عن عالم الكتب فقط لأنك تشعر بالذنب، إنه أمر رائع للغاية، ولن أستغني عنه طواعية، لا يمكن! بل مستحيل!

أومأ ويل برأسه وقال:

-أنا أفهم ما تعنينه، انتظري إذًا حتى تُفسدي رواية ما بدافع الغباء، على أي حال، لن أحذِّرك مرة أخرى.

-هل هذا وعد؟

استدار ومشى دون كلمة أخرى.

حدّة شفرات الخنجر بدت غير رحيمة والتمعت فيها الفضة، كانت مسنونة للغاية، حتى إنها بدت وكأنها تخترق ضوء القمر الذي انعكس عليها.

وصلت يد الفارس إلى مقبض الخنجر المرصّع بالجواهر، أصبح مستقرًّا في راحة يده كما لو أن الخنجر قد صُنع من أجله فقط، كما لو كان يخصّه، وبوجوده في يده عاد جزء من جسده المفقود منذ فترة طويلة.

قال الفارس وعيناه مرتاحتان بالنظر إلى سلاحه:

أشكرك جزيل الشكر.

أغلقت الأميرة الصندوق المبطّن بالمخمل ووضعته مرة أخرى على مكتبها الصغير.

ثم همست: اقتله بلا رحمة.

(8)

تغيُّر الطقس

تنهد فيرتير ونظر إلى المروج الرطبة والأشجار المتمايلة على حافة الغابة وقال:

-الآن هي تطوف، تصنع حفيفًا، وتجعل الرياح تدور.

غمرَنا المطر، وكان الجو مظلمًا حيث إننا أصبحنا في منتصف نسخة أدبية من مقاطعة بريطانية في القرن التاسع عشر. غمرني أنا وفيرتير المطر الغزير وبلل بشرتنا، أصبحت سترتي غارقة في ثانية وهي الآن مشدودة إلى أسفل مثقلة كتفي، كان قميص فيرتير الكتاني ملتصقًا بشفافية على صدره، والطين قد تناثر على جواربه وزينات الركبة المخملية، ارتجفنا مع استمرار تسرّب المياه من ملابسنا، لكنني لم أكن مستعدةً حتى الآن للذهاب والاحتماء في قصة أكثر جفافًا.

انجذبت نظرتي إلى الشابة ذات الشعر الداكن التي كانت ترقد على عتبة منزل صغير وهي تبكي، كان لباسها قذرًا ويبدو أنها قد تجولت فيه دون تغييره لعدة أيام، وبالرغم من أن وشاحها كان يقطر ماءً مثل سترتي، فلا شيء من هذا كان يزعجها على ما يبدو. أبقت عينيها

مغمضتين وانتظرت الموت، لحسن الحظ، علمت أن الخلاص وشيك؛ لأن هذه كانت جين آير، التي فرَّت مؤخرًا من ثورنفيلد هول هي وعشيقها السيد روتشستر، بعد أن اكتشف أن لديه زوجة مريضة ذهنيًّا وكان يختبئ منها. كان نائب سانت جون ريفرز على وشك الحضور وإنقاذها هي وإخوتها، أردت حقًّا انتظار رؤية ذلك، ولحسن الحظ كان المطر يضعف.

أوضح فيرتير: في مثل هذا الطقس، يجب أن أفكر دائمًا في قصيدة احتفال الربيع، أليست الطبيعة رائعة بعد هذا التدفق؟

قلت له:

-بلى بلى، بالتأكيد.

ومع ذلك، فقد وجدت أنه من الرائع أن تظهر سانت جون ريفرز بالفعل وتأخذ جين المسكينة. مرة أخرى كان عليَّ أن أدرك أن هذا لم يكن حلمًا، لكنني كنت بالفعل في إحدى قصصي المفضلة.

فجأة نظر إليَّ فيرتير بغرابة من الجانب ثم قال:

-هل تعرفين قصيدة «إنها من كلوبستوك»؟

تمتمت:

-ماذا؟ أوه! القصيدة، لا، للأسف لا أعرفها.

وهذا قد جعل فيرتير محبطًا حقًّا، أو هكذا بدا لي، فأضفت بسرعة:

-لكن يبدو أنها لطيفة.

سأل بأمل:

-أحقًا تعتقدين ذلك؟ إذن أنتِ تحبين الطبيعة بقدر ما أحب؟

قلت:

-نعم بالتأكيد، أحب الطبيعة والأدب.

ابتسم فيرتير وكان على وشك أن يلقي قصيدة أخرى عندما سقط شيء صغير جدًا، أشد زُرقةً من السماء، سقط على أنف فيرتير.

صرخت جنّية:

-اللص يقترب مرة أخرى، لقد رأيناه، إنه يرتدي عباءة ويتسلل عبر قصة ساحر أوز!

صرختُ:

-نحن قادمان!

انطلقت الجنية بعيدًا وركضنا وراءها.

عندما وصلنا إلى المزرعة الرمادية بعد ذلك بوقت قصير، حيث كانت دوروثي تعيش مع عمّها وخالتها وكلبها توتو، ركضنا جميعًا نحوها بحماس.

صرخ العمّ دوروثي، وهو رجل ذو شعر رمادي وبشرة وجهه تماثل شعره:

-لقد تمكّن منّا!

أوضحت عمّة دوروثي، التي بدت لطيفة مثل الأرض الزراعية المحيطة بها:

-كان اللص هنا وقد حمل الإعصار الذي كان من المفترض أن يدمّر منزلنا ويحمل دوروثي معه.

سألتها:

-ومن هو بالتحديد؟ كيف فعل ذلك؟ كيف يمكنه سرقة إعصار بحق الأرض؟

أجابت دوروثي:

-لم نتمكن من رؤيته، لقد رأينا الظل فقط! لقد كان بعيدًا جدًّا، تسلل اللص عبر صفحاتنا على الحافة ذاتها ثم كسر شيئًا ما من القصة في الأفق مرة أخرى، ثم توهج قليلًا من هذا الجزء، لقد قام بتوصيل الأجزاء الأخرى بعضها ببعض، بعد ذلك رحل فجأة، واختفى الإعصار منذ ذلك الحين.

التقطت أنفاسها وسط عواء توتو، فسألتها:

-ماذا يمكن للمرء أن يفعل بعاصفة مسروقة؟

هزت دوروثي كتفيها، بينما تمتم فيرتير:

-إنه لغز بالنسبة إلي أيضًا.

نظرنا إلى الأفق، لم تتحرك هناك أي نسمة.

كان ويل مستلقيًا على أريكته الممزقة، محاولًا تخيل ما سيكون عليه الموت، ألمْ يعد هولمز موجودًا حقًّا أم أنه انتقل للتو إلى مكان آخر؟ كيف كان هناك؟ هل كان غاضبًا من ويل لأنه وضعه في العالم الخارجي ومن ثَم في خطر؟ سؤال بعد سؤال دار في رأسه كما لو

كانت عاصفة مستعرة خلف جبهته، لم يستطع التركيز.

كان يعتقد أنه سيكون من الأفضل ألاّ يرى هذه الكلمات بعد الآن، فقام بدهن الكتابة على الحائط خلف الموقد بطلاء أبيض حتى لا يزعجه التفكير.

لكن ما يزال بإمكانه قراءتها، وحتى لو لم يكن قادرًا على ذلك بعينيه، فقد حُفرت في ذاكرته على أي حال، حتى عندما كان يغلق عينيه، كان لا يزال بإمكانه رؤيتها حمراء متوهجة:

لقد استيقظت

من الذي ترك له تلك الرسالة؟ وماذا يعني بها؟ أراد أن يرمي دلوًا آخر من الطلاء الأبيض على ذهنه لعله يمحو الكلمات التي تتردد فيه.

لم يذهب ويل إلى المكتبة السرية ليومين، ليس بسبب الخلاف الذي دار بينه وبين آيمي، لماذا إذًا؟ بل لأنه لم يعد قافزًا في الكتب، ولن يستمع أحد إلى ملاحظاته، بدلًا من ذلك، أصبح يرقد على الأريكة ويفكر، بينما أنهى الصيف حضوره القصير كضيف في الوقت الحالي وكان الجو قد عاد بالفعل أكثر رطوبة وبرودة مرة أخرى.

كانت بيتسي عنده فعلاً بالأمس، كانت قد وقفت أمام الباب وطرقت، وقالت إن اللورد لن يسمح بذلك وعليه أن يعود إلى الصف الدراسي، كما كان جلين قد جاء بعد ظهر ذلك اليوم وسأل عمّا إذا كان ما يزال على قيد الحياة أو قد غرق بالفعل في شفقته على نفسه، لم يعطه ويل أي إجابة.

لكن رويدًا رويدًا، كان عليه أن يعترف، سقطت البطانية عن رأسه هنا، فنفضها ونهض وجلس ولبس حذاءه، ربما يساعده الهواء النقي والقليل من التمارين على أن يصبح هو نفسه مرة أخرى.

فقط عندما فتح الباب لاحظ كيف كان الظلام حالكًا، كان لا بد أن يكون الليل قد غشي الجزيرة بالفعل، كانت السماء المرصعة بالنجوم تتقوّس عاليًا وواضحة فوق المستنقع الذي يقع أمامه مثل سرب أشباح. غطَّت سحب من الضباب الممرّات الزلقة التي تتلوّى بين شجر الخَلَنج والطحالب والنباتات المتسلقة، تنفّس بعمق وحاول إخراج الهواء بزفير حارّ، حملت الريح طعم الأرض الرطبة معها، بينما ظل ويل يمشي في الظلام.

لقد جاب هذا المستنقعَ منذ الطفولة، واستقبله اليوم بالطرق الوعرة المعتادة التي غطت معظم سترومساي، وكان ويل يعلم أن هناك بين المستنقعات أعماقًا غادرة، يبدو أن هناك عددًا قليلًا من المقابر الغارقة من العصر السيلتي مخبأة في مكان ما، لكنه لم يكن خائفًا، ولا حتى بعد القليل من الضباب المتكثّف في سحب تشبثت بكتفيه مثل معطف ملتصق، سرعان ما اخترقه ضوء النجوم بخفوت، حتى إنه أخرج الكشّاف الصغير الذي كان يحمله دائمًا معلقًا على حزامه.

فتح ويل ضوء كشّافه الصغير وعلى الفور ظهر مخروط من الضوء عبر السواد المحيط به، يمكنه فقط رؤية شيء يندفع بعيدًا عن مجال رؤيته، شيء كبير حقًّا! شيء لا يمكن أن يكون حيوانًا، توقف وترك المصباح يدور حوله، محاولًا معرفة ما الذي هرب منه للتو، أم أنه كان

خائفًا من ظله؟

لقد توصل تقريبًا إلى استنتاج مفاده أنّ هنالك شيئا ما بالفعل إذ التقط ضوء الكشّاف كتلة كبيرة مرة أخرى، انزلقت بين شجرتين على بعد أمتار قليلة منه ثم توقفت. في الضباب، لم يكن بإمكان ويل رؤيتها بوضوح.

كان من الواضح أنها إنسان.

سأل ويل:

-من هناك؟

لم يكن هناك جواب، فقال:

-مرحبًا!

ثم ثبّت الكشّاف بلا حراك بين الضباب.

بعد ذلك اتخذ خطوة نحو هذا الشيء، فشعر به يتراجع بعيدًا عنه، ويتعمّق أكثر في الظلام.

نادى ويل:

- من؟ بيتسي؟ جلين؟ آيمي؟ هل هناك أحد منكم؟

كانت هناك ضحكة كالحفيف، ثم فجأة اختفى الظل، راح ويل يركض إلى حيث رآه آخر مرة، دهس الشجيرات وثمرات التوت التي نمت هناك، بدا له عدد قليل منها وقد دُهس تحت قدميه.

وفجأة كان هناك همسة تظهر من خلفه، همس أحدهم بقوله:

-هي تعلم أنه كان سيوقف الوحش.

وأوقعته الكلمات في حيرة شديدة، وجعلته يحاول الوصول إلى قائلها، وتردّدت أصداء غريبة في رأسه، حتى شعر بالنفس الغريب على رقبته، فدار حول نفسه.

لكن لم يجد أحدًا.

سقط الضوء فقط على وسائد قليلة من الطحالب وكومة من النبات المتعفّن، كل من وقف فيه بدا وكأنه يتلاشى في ثوانٍ، ماذا كان هذا الشيء؟ هل كان أحدهم يحاول إخافته؟

تردّد صدى تلك الكلمات في رأس ويل:

-هي تعلم أنه كان سيوقف الوحش.

أي نوع من الكلمات الغريبة كانت تلك؟ هل قرأها في مكان ما من قبل؟

أصبحت الأمسيات في منزل لينوكس أكثر هدوءًا منذ أن اكتشفتُ الشخص المحتمل الذي تقيم أليكسيس علاقة معه، سواء كانت خارج السرير في الليل أو في المرّات التي تقوم فيها بإحدى جولاتها الطويلة. بعد التظاهر بالنوم أول أمس، تمكنتُ أمس من تجنّب أليكسيس بحبس نفسي في الحمّام لساعات والاستحمام المطوّل. اليوم، مع ذلك، أعلنت السيدة مايريد على العشاء أنها تريد أن تلعب المونوبولي معنا بعد تناول الحلوى، ولهذا السبب كنت أنا وأليكسيس ننظر إلى ملعب ملوّن جعلني أشعر بأنها ستكون لعبة أبديَّةً. كان الوقت متأخرًا، بعد منتصف الليل، وكنت متعبة من رحلتي إلى جين

آير وساحر أوز، لكن جدّتي لم تُشبع رغبتها.

ذكّرتني السيدة مايريد وهي تشير إلى اللوح أمامي قائلة:

-حان دورك يا آيمي.

كانت قد اشترت للتو في اللعبة شارع القلعة، وكانت تحصي كومة كبيرة من أموال اللعب.

رميت النرد وذهبت إلى السجن، حسنًا! عظيم! حتى في اللعبة حظي عاثر.

اشترت أليكسيس محطة قطار.

كانت السيدة مايريد لا تزال تحسب أموالها، عندما انتهت أخيرًا، نظرتْ أولًا إلى أليكسيس ثم نظرتْ إلى وجهي المتجهم، ثم ألقت بحزمة النقود على سطح الطاولة، وقالت:

-حسنًا، هذا ليس جيّدًا جدًّا، على ما يبدو ليس هناك فائدة، اعتقدت أن اللعبة قد تعطيكما أفكارًا أخرى، لكني أعتقد أنني كنت مخطئة، ما خطبكما أنتما إذًا؟

قلتُ وأنا أكشط بقعة صغيرة من الصلصة على مفرش المائدة:

-لا شيء.

بينما ظلت أليكسيس صامتة.

عقدتُ ذراعيَّ فوق صدري.

وضعت أليكسيس جبهتها في يديها وأغلقت عينيها.

تنهّدت السيدة مايريد قائلة:

-لم تنظر كلٌّ منكما إلى الأخرى منذ أيام، أين نحن بتلك التصرفات؟ في رياض الأطفال؟

ضحكتُ بصوت عالٍ، روضة الأطفال كانت مثالًا ممتازًا للوضع الذي أفكر فيه.

رمقتني أليكسيس بنظرة لا تُصدَّق وقالت:

-آيمي، قلت لكِ إن بإمكاني الشرح، لماذا لا تريدين أن ترغمي نفسك على الأقل وتستمعي إلى ما يمكن أن أقوله؟

ضغطتُ على شفتيَّ معًا، فاستطردت:

-هل تفضلين الاستمرار في العبوس مثل طفلة في الخامسة من العمر؟ دعينا نتحدث في الأمر ونوضح المسألة.

أجبت بسرعة:

-ماذا تبقَّى هناك للتوضيح؟ لقد تجاوزتِ دومينيك بسرعة الضوء؟ لطيف! هل وقعت في الحب مرة أخرى؟ لطيف!

صاحت أليكسيس:

-أتعلمين؟ ما تفعلينه معي لطيف جدًّا أيضًا! أليس كذلك؟

سألت السيدة مايريد:

-هل وقعتِ في الحب؟ ماذا تقصد آيمي يا أليكسيس؟ هنا في ستر ومساي؟ في حب من إذًا؟

لم نُعِر جدتي اهتمامًا.

قاطعتها قائلة:

-على الأقل كان يمكنك أن تخبريني، اعتقدت أنكِ تثقين بي، اعتقدت أننا سنخبر بعضنا بعضًا بأي شيء يخصّنا.

اختلطت المرارة في صوتي الذي اختنق وأنا أقول:

-لكنني أعتقد أنني كنت مخطئة فحسب حين صدَّقت ذلك، في البداية خانني أصدقائي المزعومون في بوخوم، والآن أمي أيضًا! هل كل من أعرفه يقصد دائمًا أن يتآمر ضدي؟

قالت أليكسيس متوترة:

-أنا... أردت أن أخبرك، لكن... لكنكِ كنتِ مشغولةً جدًّا بالخروج، أليس كذلك؟

سألت السيدة مايريد:

- هل هذا يعني أنكما ستبقيان هنا؟ حتى بعد انتهاء العطلة؟ هل تريدين الزواج يا أليكسيس هنا في سترومساي؟

بدت وكأن كل أحلامها تتحقق وهي تستطرد بصوتٍ أعلى:

-يمكنكما العيش هنا في منزل لينوكس بالطبع. من هو بالتحديد؟ هل هو هينك؟ أم شخص آخر؟

نهضت أليكسيس وكأنها لم تسمع جدتي وقالت:

- لم أكن أعرف كيف أعلِمُك يا آيمي، ما يجمعني به مميّز للغاية.

ثم دارت حول الطاولة وأمسكت معصمي، فقلت بانفعال وأنا أدرك مدى قسوة كلماتي الشريرة، ولكن لم أتمكن من كبح جماح نفسي:

-أوه! حقًّا؟ بالطبع مميز جدًّا حبّ الشباب الصغار في العمر.

قالت أليكسيس غاضبةً:

-توقفي عن ذلك، لا تكوني سخيفة.

ثم جذبتني إلى السلّم معها، بعيدًا عن السيدة مايريد وخطط زفافها التي قد بدأت تلوح في خيالها، وقالت:

-لنتحدث عن ذلك بهدوء لاحقًا، حسنًا؟

وضعت يديها على كتفيَّ، لكنني هززت كتفي بعنف وأبعدتها عني.

قلت:

-أنا أخبركِ الآن بأنك الشخص السخيف بيننا وليس أنا، هل تعرفين حتى كيف بدا مظهركِ وأنت تقبلينه؟ إنه أكبر مني ببضعة أعوام فقط!

تنهّدت أليكسيس وخفضت صوتها كما لو كانت تخشى أن تكون جدّتي تستمع عند الباب:

-إنه صغير جدًّا لو نظرنا إلى هيئته من الخارج، يا آيمي إن ديزموند ليس شخصًا، إنه...

-شخصية من كتاب، نعم أعرف، سبق أن أوضح لي ويل هذا. هراء! لكن حتى لو كان يبلغ من العمر ألف عام، فماذا عن دومينيك؟ أعني كيف يمكنك نسيانه بهذه السرعة؟ ألا تتذكرين كم كنت تعيسة بسببه قبل أسبوعين؟

تمتمت أليكسيس:

-نعم، بالطبع، من ناحيةٍ ما زلت حزينةً لهذا السبب، لكن من ناحية أخرى...

-من ناحية أخرى لقد وجدتِ بديلًا لائقًا.

قالت أليكسيس:

-توقفي عن مقاطعتي طوال الوقت، أحاول أن أشرح لك ذلك.

-حسنًا، أشعر بالفضول حيال معرفة أسبابك، أنا حقًّا لا أفهم.

كانت جميع أنحاء جسدي ترتجف، وكان عليَّ أن أتنفس بهدوء.

أومأت أليكسيس برأسها، وفكرت للحظة، ثم أمسكت بيدي، وقالت بهدوء:

-تعالي معي، حان وقت اكتشاف ذلك.

تعثرت وراءها وأنا أقول:

-اكتشاف ماذا؟

كررت أليكسيس مرة أخرى:

-تعالي معي.

صعدنا الدرج إلى العُليَّة، ولكن عندما وصلنا إلى الردهة حيث كانت غرفتانا، قادتني أليكسيس إلى نهاية الرواق، إلى باب مخفي بجدار معلق، ولهذا لم ألاحظه من قبل، أبعد من ذلك كان هناك سلّم شديد الانحدار، والدرجات تصدر صريرًا عاليًا تحت خطواتنا بينما كنّا نصعد أكثر، بعد ذلك وقعت أعيننا في الظلام المترب على عُلية ضخمة، كانت الصناديق والخردة مكدّسة تحت عوارض

السقف، لكن حتى هذا لم يكن هدفنا. توجهت أليكسيس نحو خزانة ذات أدراج متهالكة وسحبت منها عدة بطانيات، ثم أشارت إلى سلّم ضيق يؤدي إلى أحد المناور.

تسربت الأتربة بشدة وسقطت علينا عندما فتحت النافذة، صعدنا إلى السطح عبر حاجز من أنسجة العنكبوت، استقبلنا هواء الليل الجليدي وجعل الاهتزازات تبدو أقوى. أمامي توازنت أليكسيس فوق قرميد السقف القديم إلى نافذة قديمة، هناك بسطت إحدى البطانيات على السطح الضيق لكن كان مسطحًا، انزلقتُ وراءها، وتجنبت النظر إلى أسفل. عندما وصلتُ إلى أليكسيس، وضعتْ بطانية ثانية حول كتفيها وحول كتفي، جلسنا وسحبنا البطانية الثالثة على أرجلنا، كانت أنفاسنا قد نفدت من التسلق؛ لذلك ظللنا صامتين لفترة.

تألقت فوقنا ملايين النجوم مثل الماس في مخمل أسود لصندوق مجوهرات، كان يرقد أمامنا المستنقع الذي عُلقتْ فوقه سحب كثيفة من الضباب، ظهرت من بعيد صورة من الظل لقلعة ماكاليستر، وكان الضوء لا يزال مضاءً في إحدى النوافذ.

أخيرًا قالت أليكسيس:

-كان هذا مكاني المفضل عندما كنت في مثل عمرك.

قلتُ متسائلة:

-لأنك تستطيعين رؤية الجزيرة بأكملها من هنا؟

-لا، بل لأن جدتك لن تبحث عني هنا أبدًا.

قلت:

-هكذا إذًا.

ثم شددتُ الأغطية لأجعلها أكثر إحكامًا حول كتفي، فشعرتُ وكأنه اندلع شيء ما في المستنقع، القليل من الضوء، أم كنت واهمة؟

أخذت أليكسيس خصلة من شعري بين أصابعها، ولفّتها، ثم دفعتها برفق خلف أذني، ثم همست:

-لم أقصد أبدًا أن أُؤذيك، يا طفلتي الزرافة.

-لكنك فعلت بالفعل.

واصلتُ النظر إلى المستنقع، حيث يبدو الآن أن نقطة الضوء الصغيرة تتحرك.

-حول ديزموند هو... لم أرمِ نفسي نحو أول شخص أقابله كما تعتقدين، أردت أن أخبرك أيضًا، لكنني لم أستطع، لقد تعرفنا أنا وديزموند لفترة طويلة، وهو أحد الأسباب التي دفعتني إلى مغادرة سترومساي.

أدرت رأسي نحوها، بدت لي والدتي أكبر سنًّا فجأة، كل شيء فيها كان أقلّ حيويّة، حتى شعرها بدا فجأة عديم اللون، اكتشفتُ الخطوط الدقيقة التي تسللت إلى الجلد حول عينيها، تساءلت:

-أنت وهو، كنتما قديمًا بالفعل...؟

شعرت أليكسيس بنظراتي تحاصرها، ثم قالت ببطء شديد كما لو كانت تبذل جهدًا عظيمًا:

-ديزموند، ديزموند هو والدك.

نظرتُ إلى المستنقع مرة أخرى، اختفى الضوء الصغير.

نظرت إلى سحب الضباب دون أن أراها في الواقع.

تمتمت أليكسيس:

-آيمي!

أغمضتُ عيني للحظة لأن ما كشفتْ عنه للتو يتدفّق ببطء إلى ذهني، إذًا ديزموند هو والدي! بدا الأمر سخيفًا، حاولت تخيل صورة ديزموند أمامي، ظاهريًّا يكبُرني بقليل، شخصية كتاب بها ندوب حروق عاشت في المكتبة السرية لأجيال، اعتدت على عدم وجود أب لي، شعرت أن مجرد الفكرة خاطئة، أنا آيمي لينوكس، ليس لدي أب، كان الأمر دائمًا هكذا، الآن لا يمكن لأليكسيس أن تأتي ببساطة وتقول لي إن لي أبًا وإنني...

-آيمي!

رمشتُ أكثر من مرة، فرفعت أليكسيس يدها كما لو كانت ستمشِّط شعري، لكن يدها كانت تسقط في منتصف الطريق إلى رأسي.

قالت أليكسيس:

-لم نخبر أحدًا قط، كنت ألتقي أنا وديزموند دائمًا في الخفاء، كنا نعلم أنه ممنوع، قافزة في الكتب وشخصية أدبية.. كانت العائلتان ستفزعان، ما كانوا ليدعوا ذلك يحدث أبدًا إذا أمسكوا بنا... كنت

أنا وديزموند في حالة حبّ شديدة، لكننا علمنا أنه سيتعين علينا دائمًا الاختباء. ديزموند لا يتقدم في السن أيضًا، حتى في ذلك الوقت، يبدو في السابعة عشرة، كنت أعرف أن حبّنا لن يكون له أي فرصة، كنّا دائمًا معًا، ولكن في الوقت نفسه كان هناك دائمًا خوف، خوف من أن يتم اكتشاف أمرنا، وكنت أخشى أنه في مرحلة ما قد أُصبح عجوزًا وغير جذابة لديزموند، عندما أدركت أيضًا أنني حامل...

تلعثمتُ وأنا أقول:

-أنا...، اعتقدتُ أنك قد غادرت لأن شيئًا ما قد حدث معكِ في عالم الكتب؟

ابتسمت أليكسيس بحزن وأجابتني:

-نعم، هذا أيضًا قد حدث، كان كتاب التدريبات الخاص بي في ذلك الوقت هو آنا كارنينا. وكان من الصعب جدًّا بالنسبة إلي أن أشاهد مرارًا وتكرارًا كيف تركت حبّها ثم ألقت بنفسها أمام القطار، كنت أنا وآنا صديقتين في ذلك الوقت.

ثم ازدردت لعابها وهي تُكمل:

-لهذا السبب كنت أعلم أنني يجب أن أفعل شيئًا إذا لم أرغب في أن ينتهي بي الأمر مثلها، عاجلًا أم آجلًا، كان حبي لديزموند سيكسرني أيضًا، كنت متأكدةً من ذلك في ذلك الوقت، أدركت أنني يجب أن أغادر، أخبرت عائلتي أنني لا أستطيع تحمل أن أكون قافزة في الكتب بعد الآن.

-ولكنْ الحقيقة، كنتِ قد هربت لأنك أردت الابتعاد عن ديزموند؟

-لم أرغب في ذلك، لكن كان عليَّ فعله، في الغالب لأنني كنت خائفة من رد فعل العائلتين على شاب كان... حسنًا، نعم، نصف إنسان فقط.

-نصف إنسان فقط؟

شعرت أن السقف قد طُوِي بعيدًا من تحتي، وكأن شيئًا سقط في داخلي بسرعة فائقة، انتشرت سحابة منفوشة في رأسي، نصف بشري فقط، إنه نصف بشري فقط.

تابعت أليكسيس، لكن كل ما سمعته هو هذه الكلمات فحسب:

-إنه نصف بشري فقط.

لقد أدركت دائمًا أنني مختلفة، لكن مختلفة جدًّا إلى هذا الحد؟

قالت أليكسيس:

حينها اقتنعت أنني إذا غادرت على الفور، فسيفكر الجميع أن شخصًا ما من البرّ الرئيس مجهولًا بالنسبة إليهم هو حتمًا والدك.

نظرت إلى يديَّ، حرّكتهما يَمنة ويَسرة أمام وجهي، كانت يدي يدًا بشرية! لا يمكنني أبدًا أن أكون نصف خيالية، هل يمكنني أن أكون كذلك؟

-يجب أن تُبقي الأمر سرًّا، هل تسمعيني؟ آيمي؟ آيمي؟

ثم راحت تهزّني بقوّة وأنا في حالة صدمة، أسقطتُ يديَّ، وخرجت طقطقة غير مفهومة من فمي.

-هل أنت على ما يرام؟

ارتجفت مرة أخرى وأنا أقول:

-لـــ... لا.

لفّت أليكسيس ذراعيها حولي وسحبت وجهي إلى ثنية رقبتها، وراحت تربّت على ظهري، ثم قالت: الطبع لا، لا بد أنها صدمة بالنسبة إليك. في الواقع، لم أرغب قط في إخبارك، لهذا السبب احتفظت أنا وديزموند بحقيقة أننا ستقابل بعد ذلك سرًّا، لكن...

ظللت متحجرة بين ذراعيها.

تابعت أليكسيس:

هل تعلمين! أعتقد أنك لم ترثي الكثير من الصفات الأدبية منه، قبل قفزتك الأولى، كنتُ متوترة للغاية بشأن رد فعل جسدك، وإذا ما كنتِ ستستخدمين البوابة وستمكنين لاحقًا من العودة بنفسك، ولكن من الواضح أن مواهب ديزموند التي ورثِتها تظهر فقط في حقيقة كونك قافزة موهوبة جدًّا، وغير ذلك...

همستُ لها قائلة:

يمكنني القفز فورًا في الكتب من أي مكان، لست بحاجة إلى بوابة للدخول إلى عالم الكتب.

توقفت يد أليكسيس عن التربيت على ظهري للحظة، شعرتُ أنها

تحبس أنفاسها، ولكن يبدو أنها أجبرت نفسها على الاستمرار في التنفس بهدوء، بدأت بعد فترة وجيزة في محاولة التبرير:

-لا يبدو ذلك غير منطقي بالنسبة إلي، بعد فترة من الوقت، لا تحتاج شخصيات الكتاب إلى بوابة إذا كانوا يريدون العودة إلى قصصهم الخاصة من العالم الخارجي، ولأننا لا نملك قصة الأجداد لنقفز فيها، ربما كان لديك خيار القفز إلى أي قصة تريدين.

لم أقل شيئًا، استنشقت رائحة الشامبو العضوي الذي تغسل به شعرها على الدوام، الذي ذكرني بطفولتي، وحاولت فهم ما سمعته للتو، وبعد فترات من الصمت، وفي مرحلة ما، تركتني أليكسيس وقالت:

-الجو بارد جدًّا، دعينا نخلد إلى النوم الآن، ما رأيك؟

أومأت بالموافقة، بينما كانت أليكسيس تجمع البطانيات، بحثت مرة أخرى عن الضوء في المستنقع، لكنه كان قد اختفى، بينما بدا لي الآن أن هناك شيئًا ما يحدث في حديقة منزل لينوكس، في بقعة ما بالتحديد، ألم يكن ذلك الظل يندفع بين السياج؟ كان هناك شيء مظلم يتحرك هناك، شيء بالتأكيد لم يكن خروفًا ضالًّا، بدا الأمر وكأن شخصًا ما كان يزحف بين فراش الزهور، شخص يرتدي غطاء محرّك السيارة.

لقد فسدت عيني لكني لم أستطع رؤية أي شيء على وجه اليقين؛ لذلك صعدت إلى السطح مع عودة أليكسيس إلى الفتحة ونزولها السلم، أعادت أليكسيس البطانيات إلى خزانة الأدراج وبعد

فترة وجيزة تمنتْ لي ليلة سعيدة على باب غرفتها. تمتمتُ بشيء ما حول كوب ماء وكأنني أردت أن أحصل عليه من المطبخ، ثم أسرعت إلى أسفل الدرج، ركضت عبر ممرات القصر في ظلام الليل، وعبرت بهو المدخل، وأخيرًا اندفعت إلى الحديقة.

كان الشيء بعيدًا قليلًا عن المنزل، في مكان ما هناك بالقرب من شجيرات الورد...

سُحق الحصى تحت قدمي، حاولت أن أكون أكثر هدوءًا، وأن أتسلل بلا صوت مسموع... صدمتُ قدمي بقفص الطيور، اللعنة! عضضتُ شفتي حتى لا أبكي بينما كنت أقفز على إحدى قدميَّ ممسكة بإصبع قدمي الأخرى حيث الألم. لسوء الحظ، قمت بدفع موجة كاملة من الحصى، وقد أصبحت متناثرة في كل الاتجاهات، كنت أتمنى حقًّا أن يبدو الأمر وكأن أحد الأغنام يعاني من كابوس.

انحرفت على طول أحد الأسيجة التي هُذبت بدقة وعناية في اتجاه النباتات المتسلقة، لكن لا يبدو أن السياج يريد أن ينتهي على الإطلاق، لقد كان ذلك قبل أن أصل أخيرًا إلى الحافة وأطل بنظري حول الزاوية.

ولكن لم يكن هناك أحد، تسلقت أشجار الورد والقناطر المعدنية، وحيدةً وهادئةً وطبيعيةً للغاية. فيما بينهما، تألق العشب الرطب.

-ثلاثة وثلاثون.

غمغم شخص ما بذلك من خلفي فقفزت قليلًا في حالة

صدمة، عندما استدرت، كان بروك يقف أمامي، مرتديًا سرواله الأزرق كالعادة ويغمغم بنغمات ما، أبقى عينيه على الطريق، وشعره ولحيته بارزان من رأسه الفوضوي القذر، لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته من قبيل غطاء محرك السيارة.

قلت:

-أوه! مرحبًا.

ثم تراجعت قليلًا وأنا أسأله:

-هل... هل تَعُدُّ شيئًا ما مرة أخرى؟

تمتم دون أن ينظر:

-نعم، بروك يفضِّل العدّ في الليل.

-نعم، حسنًا، إذًا لا أريد أن أزعجك الآن أو أشتت انتباهك...

ثم قال مشيرًا إلى صخور معزولة تبدو داكنة بين حصى الطريق الخفيف:

-حصى أسود، لطيفة حقًّا، أربع وثلاثون، خمس وثلاثون، ست وثلاثون، سبع وثلاثون.

غمغمت:

-حسنًا، استمتع بوقتك.

وانطلقتُ عائدة.

شعرت بالتعب عندما وصلت أخيرًا إلى غرفتي وأصبحت تحت أغطية سريري المحاط بأربعة أعمدة، لكن النوم كان غير وارد. إصبع قدمي تؤلمني، وتسابقُ عقلي كان يمنعني. ديزموند هو والدي! أي أنني نصف أدبية! وكان اللص يتسلل طوال الليل في مكان ما!

أخبرني هاتفي الخلوي أن الساعة كانت الواحدة والنصف. في

غضون ساعات قليلة سأضطر إلى النهوض والذهاب إلى الفصل الدراسي، ومع ذلك، أمسكت بقارئ الكتاب الإلكتروني على منضدة بجانب سريري وانتقلت عبر قائمة المكتبة، لن أتمكن من النوم على أي حال، كان ذلك مؤكدًا، لكن احتمال التقلب والتفكير لساعات متتالية لا يبدو مغريًا بالنسبة إلي أيضًا، ما احتاجه هو استراحة، القليل من الراحة في عالم ودود.

استبعدت أفلام الإثارة والمغامرات الرائعة، ثم قمت بالتمرير إلى الروايات الرومانسية السابقة، بالتأكيد لم يكن لدي الجرأة للولوج في روايات الأزواج الذين يبحثون بعضهم عن بعض، أحببت قسم كتب الأطفال أكثر، لقد بحثت قليلًا بين القصص الخيالية والكلاسيكية، وأخيرًا توصلت إلى هايدي، نعم، كان هذا هو المطلوب بالضبط! رحلة إلى مدينة هادئة، بعد ظهر يوم خالٍ من الهموم مع هايدي وبيتر والماعز، بدت وكأنها الإلهاء المثالي لي في تلك الحالة.

نقرت على مشهد مشمس وسعيد ووضعت القارئ على وجهي، في اللحظة التالية هبطت وسط مرج مزهر ملون.

ركضت فتاة صغيرة نحوي حافية القدمين وذراعها مليئتان بالزهور، وكانت تضحك لي.

ترجّل الفارس، وكان خنجر الأميرة مطويًا داخل حذائه، وحُفظت المؤن والخارطة في حقائب سرجه، بالإضافة إلى حبل قوي وثقيل.

فركب جواده منطلقًا نحو الملكوت.

لوّحت الأميرة له مودّعةً من أعلى قمة في قلعتها.

كانت تعلم أنه سيوقف الوحش.

وأنه سيفعل ما طلبته منه.

(9)

خلال المطاردة

كان لدي انطباع بأنني أغلقت عيوني للحظة واحدة وفتحتها فوجدت الصباح قد عاد مرة أخرى، أيقظني رنين منبّه هاتفي الخلوي بعد قيلولة لا تكاد تصل إلى ساعتين، فجرجرت رأسي المصاب بصداع لتناول الإفطار، حيث استقبلتني أليكسيس بابتسامة ولم تعد تتجنب النظر مباشرة إليَّ، تذكرت فجأة ما قالته لي أمس، كان افتراض أن يكون ديزموند هو والدي ما يزال يذهلني، خاصةً عندما ظهر عند مدخل المكتبة السرية بعد وقت قصير في بداية المحاضرة وأعلن أن جلين ذهب إلى البر الرئيس لالتقاط شحنة من المنشورات الجديدة وكان معه المكلف بتمثيله.

ارتدى ديزموند رداء الراهب كالمعتاد وشبكةٌ من الندوب الدقيقة على وجهه، وقد بدأت من زاوية فمه اليسرى، وتشعبت على وجنته وجبهته، واختفت أخيرًا تحت شعره الأشقر، ولكن مع كل ما مرّ به، كانت عيناه الرماديتان لا تزالان عينين طبيعيّتين بالنسبة إلى شاب، تمامًا مثل اليدين الطويلتين النحيفتين اللتين تطلاّن من كمّيْ

ردائه، طالبًا منّا اتّباعه بإشارة من إحديهما.

سار ديزموند بسلاسة أسفل السلم الحلزوني، ثبتُّ نظري على مؤخرة رأسه، بينما كنت أتدافع بقوة أكبر في أعماق أفكاري، شعرت وكأن جميع الكتب قد وقعت من رفوف المكتبة فوق قفاي. كانت جفوني منتفخة من قلّة النوم خلال الليل، وكنت أيضًا أعرج قليلًا بعد مغامرة الأمس، كانت بيتسي تتحدث إلى ويل من ورائي، بدا لي اليوم أنه من المدهش حضور ويل إلى الفصل، كانا يتحدثان حول شيء ما عن اللورد الذي يبدو أنه أصيب بالفزع بالأمس وألقى أشدّ التهديدات على ويل لعدم قفزه.

كنت أتوق إلى الهبوط في مقعدي والإغفاء قليلًا واضعة رأسي على سطح الطاولة، لكن ديزموند لم يقُدْنا إلى غرفة الصف الصغيرة، ولكن إلى المكتبة، أعمق بكثير ممّا كنت قد توغّلته من قبل، وبثبات أمسك مصباحًا من الحديد الثقيل، وأضاءه، ثم تجوّل بين جدران الرفوف المغبرّة أكثر من اللزوم، كما لو أنه سار بهذه الطريقة مئات المرات، الآن أعرف أن ذلك استمرّ لعقود عديدة، وربما لقرون. كانت الرفوف من حولنا مكتظة بالكتب المتعفنة على نحوٍ مبالغ فيه حتى إنّ ألواحها كانت متدلية، تفوح منها رائحة الورق القديم وتنزل بثبات إلى أسفل الرفوف. يبدو أن المكتبة كانت تحفر أعمق وأعمق تحت جذور الجزيرة، في الوقت نفسه كان الظلام يزداد باطراد من حولنا، لم يلمع سوى عدد قليل من المصابيح في الممرّات، وفي النهاية لم يكن هناك شيء على الإطلاق سوى رقص التوهج الأصفر لمصباح ديزموند أمامنا، فرسم أنماطًا من الظل على الرفوف

المارة المليئة بالكتب والمخطوطات.

دخلنا غرفة دائرية، في مكان ما أسفل سترومساي، كانت الجدران مصنوعة من الصخور الخام وكانت خالية باستثناء طاولة طويلة وكأن لها مخالب في الوسط.

قال ديزموند:

-هذه نهاية المكتبة السرية، لا يوجد المزيد من الكتب هنا، فقط هذه.

ثم أشار إلى الطاولة.

اقتربنا أكثر، والآن رأيت أن اللوح الخشبي المنحوت يؤطِّر لوحًا من الزجاج، توضع تحته بعض قصاصات الورق المتفحمة، قرأت عبارة موجودة على إحدى القصاصات تقول:

الوحش والفارس

ثم على ورقة كبيرة لمحت:

قالت الأميرة:

لقد وقع اختياري عليك، اركع أمامي.

قال ديزموند:

-هذا كل ما تبقى من تلك المخطوطة، أسلافكِ لم يتمكنوا من ردّ النيران عن البقيّة، فقط تلك القصاصات و... نحن.

ارتجفت يداه على زجاج المصباح، رأيته ينظر مباشرة في عينيّ وفي نظرته ألم أقدم بكثير من مظهره وملامحه، خاصة حين استطرد:

-أنا وجلين وكلايد، لا يمكننا العودة أبدًا، لقد عشنا في العالم الخارجي منذ ذلك الحين، نحاول التعايش مع سترومساي.

يبدو أن نظرته تقول لي:

-من فضلك، لا تحكمي عليّ.

أومأت برأسي على نحوٍ غير ملحوظ، منذ أن تحدثت إلى أليكسيس، لم أؤنِّبها أو ألُمها على الوقوع في الحب، عندما يعيش المرء بالقرب من عدد قليل من الأشخاص في مثل هذه الجزيرة الصغيرة، من الطبيعي أن يقع في الحب أحيانًا، سواء أراد ذلك أم لا... كان الأمر برمته عجيبًا، وبالطبع سيظلّ كذلك، كان هذا هو الحال، صدمتني حقيقة أن ديزموند هو والدي، لكن ربما سأعتاد على ذلك في مرحلة ما.

قالت بيتسي وهي تنحني باهتمام ناظرة من النافذة:

-لم أكن أعرف أنه بقي الكثير من الأوراق المتفرقة، إنه لأمر مُخزٍ أنْ لا شيء من هذا مرتبط ببعضه، هل حاولت من قبل أن تحل القليل من الألغاز؟

قال ديزموند:

-لقد جرّبنا كل شيء، صدقيني، ذكريات كثيرة جدًّا.

كان ويل أيضًا مفتونًا ببقايا المخطوطة ووجد طريقه عبر الخِرَق المرقّطة بثقوب الحروق وبقع السخام، تمتم بهدوء:

-كان سيوقف الوحش.

ومع ذلك، كنت لا أزال أحدّق في ديزموند، الذي كان حريصًا على عدم النظر إلى الأوراق بتمعُّن.

حاولت أن أطرح سؤالًا:

-من بالضبط الذي...

ثم توقفت عن الكلام وأنا أقضم شفتي السفلية، لم أجرؤ حقًّا على السؤال، لكنني شعرت بضرورة معرفة إذا ما كنت أريد أن أفهم مَن وما هو والدي، وأخيرًا همست بهدوء إلى درجة أن ويل وبيتسي لم يسمعا سؤالي:

-أخبرنا جلين أن المخطوطة كانت قصة خيالية، مَن كنت في القصة؟ حول ماذا كانت تدور القصة؟

خفض ديزموند عينيه، وقال:

-كنت فارسًا، وكان الأمر يتعلق بمطاردة وحش رهيب.

ثم دفع المصباح إلى يدي مُنهيًا الحديث:

-عودوا إلى الطابق العلوي، يريدكم جلين أن تقضّوا بعض الوقت في دفاتر التمارين أيضًا.

سألته:

-لكن ألا تحتاج إلى ضوء في طريق العودة؟

كان المصباح في الواقع أثقل ممّا كنت أعتقد.

-لا، أنا أعرف طريقي.

بدا وكأنه يريد أن يبقى وحيدًا في الظلام لفترة من الوقت، وحيدًا

مع ذكرياته، فتركناه.

بعد نصف ساعة، قفزت بيتسي من الدائرة الحجرية في كتاب قصصها، وقفزتُ إلى الأدغال، بينما جلس ويل على إحدى الصخور، وشاهدَنا نفعل ذلك، إنه لا يزال رغم كلّ شيء رافضًا العودة إلى عالم الكتب.

كالعادة، انتهى بي الأمر بين جذور الغابة العملاقة، في غضون ذلك، تمكنت دون أي مشاكل من عدم السقوط، بمجرد أن تكشَّفت النباتات الخضراء من حولي، اتخذت خطوة نحو فيرتير وشيرخان النمر، تناقش الاثنان حول السرقات الغريبة وعن الجنّيات وإمكانية الوثوق بهنّ.

حيَّيتهما قائلة:

-مرحبًا.

ابتسم لي فيرتير:

-يا إلهي! ها أنتِ ذي!

بينما أومأ النمر إليَّ.

سألته:

-إذًا، هل هناك شيء جديد؟

صاح شيرخان:

-غَضِب دراكولا مستعِر، يزعم أن أحدهم قد نهب خزنته.

قلت لفيرتير:

-ربما يجب أن ننظر هناك أولًا.

لكنه شحب على الفور قليلًا وهز رأسه. قال النمر:

-إذا تعرّض الرجل للسرقة حقًّا، فأنا أفضِّل تجنُّب قصّته، يمكن أن يصبح سريع الغضب وأن ينقضّ عليكِ دون تردّد.

تدخّل فيرتير:

-إلى جانب ذلك، كانت لديَّ فكرة أخرى...

ثم قام بحركة بهلوانية وكأنه سيطلعني على أمر في غاية الأهمية قائلًا:

-أودّ أن أرِيَك زهرة إذا أردتِ، آنسة آيمي.

-زهرة؟!

-إنها زهرة خاصة جدًّا، ومثيلاتها فريدة في الكون بأسره، إنها جميلة، تمامًا مثل سـ...

قاطعه شيرخان:

-حسنًا، إذا كان هناك حقًّا مجرم يتجول في القصص ويدمّرها، فربما لا يكون هذا هو الوقت المناسب للنظر إلى الزهور السخيفة.

مطّ فيرتير شفتيه شاعرًا بالإهانة وقال:

-النباتات الخلابة الجميلة ليست سخيفة بأي حال من الأحوال، ألا تعتقدين ذلك يا آنسة آيمي؟ ألا ترغبين في رؤية هذه الزهرة غير العادية؟

ثم نظر إليَّ بأمل قائلًا:

-إنها رائعة حقًّا!

بدأت في الحديث بتردد:

-حسنًا، أين تنمو هذه الزهرة؟ هل هي بعيدة؟

-لا على الإطلاق، ستكون على مرمى حجر، إذا جاز التعبير.

تنهّد النمر:

-حسنًا، انتظراني على الأقل حتى أنتهي من المشهد التالي في الأحداث ويمكنني الانضمام إليكما بعد ذلك، من يدري ما الذي سيفعله اللص؟ أنتِ بحاجة إلى شخص يحميك أيتها القافزة.

قام فيرتير بتعديل كتفيه تحت معطف الرداء المطرّز وهو يجيب:

-أنا قادر جدًّا على أن أكون رهين سيدتي الجميلة لحمايتها.

بينما كرّر شيرخان وهو يخترق الشجيرات:

-قلت انتظراني.

صمت فيرتير الذي شعر بالإهانة على ما يبدو، بالكاد كان يتحدث، بعد ذلك بقليل، كنّا نسير نحن الثلاثة في شوارع عالم الكتب، وقادنا بكلمات قصيرة عبر ممّرات متعرّجة إلى تقاطع آخر. كانت هناك أيضًا لافتة على هذا الشارع وتتبعها لافتة كُتب عليها الأمير الصغير، بعد ذلك بوقت قصير ينتهي الطريق في منتصف الكثبان الرملية. لقد شعرت بحرارة تلفحني بشدة في ضربة واحدة حتى إنني خلعتُ سترتي وعقدتها حول خصري، وسرت مرتدية القميص بلا سترة في رمال الصحراء

الجميلة التي كانت تتصاعد بلونها الأصفر الذهبي في الأفق. كان الهواء يتلألأ فوق التلال المنحدرة؛ لذلك مرّ بعض الوقت قبل أن نتمكن من رؤية البقعة المظلمة وسط الصحراء على نحوٍ أفضل.

كانت طائرةً وكان أحدهم جالسًا بجانبها على الرمال.

تمتم شيرخان:

-حسنًا، لا يبدو لي المكان هنا مثل حقل زهور.

قال فيرتير، وهو يتبختر للأمام ورأسه مرفوعٌ:

-نعم، فقط انتظر، وانظر.

تابعتها، وفي غضون ذلك، كنت أفكر في القصة التي كنّا فيها، بالطبع سمعت عن الأمير الصغير، كان هناك ملصق في مدرستي الابتدائية يُظهِر صبيًّا على كوكب صغير، لكن حول ماذا كانت تدور القصة... اهتدت ذاكرتي إلى أنها كانت تدور حول ثعلب لا بدّ من ترويضه، ولكن عن ماذا أيضًا؟ مع أفضل ذاكرة في العالم، لم تتركني الصحراء أتمكن من تذكر أكثر من ذلك.

مشينا لفترة طويلة عبر الرمال الساخنة حتى وصلنا أخيرًا إلى الطائرة التي تبيّن أنّها مروحية صغيرة، وتناثرت أمامها أدوات مختلفة. كان هنالك رجل بغطاء محرّك سيّارة قديم على ظهره مستندٌ إلى الهيكل وهو يخربش على قطعة من الورق بدلًا من الانشغال بإصلاح طائرته. نظر طفل صغير بشعر أشقر مثل السنابل، ملفوف بمعطف أزرق طويل، من فوق كتفه. قال الأمير الصغير:

-لا، هذا الخروف كبير بالفعل، ارسم لي واحدًا آخر.

مزّق الرجل الورقة وبدأ من جديد.

فقط عندما كنّا أمامهما مباشرة نظر الاثنان نحونا، قال فيرتير:

-مساء الخير، لا نرغب في إزعاجكما، فقط أريد لهذه الشابة هنا...

سأل الأمير الصغير:

-هل يستطيع أي منكم أن يرسم لي خروفًا؟ أرغب في إعادة خروف إلى كوكبي.

قلت:

-حسنًا، يمكنني المحاولة، لكن ألا يتعارض ذلك مع الأحداث ويغيِّر فيها؟

هز الأمير الصغير رأسه نافيًا:

-كنت سأضع رسوماتك في الجيب سرًّا، وبهذا يصبح معي رسمتان، واحدة منك والأخرى التي سيرسمها لي هذا.

ثم أشار إلى الرجل وأضاف:

-هناك مساحة كافية على كوكبي لذلك، ومع ذلك، ما زلنا سنخبر القرّاء عن خروف واحد.

قلت:

-حسنًا، فهمت.

وجلستُ على الرمال أيضًا، أعطاني الطيّار ورقة من دفتره وقلم رصاص، بدأت الرسم بينما استدار الأمير الصغير إلى شيرخان، وسأل:

-هل بإمكانك التوقف عن أكل زهرة لأن بها أربع شوكات؟

قال شيرخان:

-النمور لا تأكل الزهور.

سأل الأمير الصغير:

-ولكن ماذا لو حدث؟

كنت أتذكر ببطء قصة الأمير الصغير الذي ترك كويكبه ليجد صديقًا؛ ومن ثَم قام بزيارة سلسلة كاملة من الكواكب الأخرى، وآخرها كوكب الأرض، حيث قام بترويض ثعلب وأدرك أنه يشتاق إلى الزهرة التي خلَّفها وراءه، وأحبّها على الرغم من قوّتها وأشواكها. رسمت خروفًا كثيف الصوف للأمير الصغير وسلمته إليه.

قال وهو يضع الورقة في جيب معطفه:

-شكرًا، إذًا أتيتِ لرؤية وردتي؟

أومأ فيرتير برأسه قائلًا:

-في النهاية، لا توجد زهرة ثانية مثل هذه الزهرة في الكون بأسره.

تنهّد الأمير الصغير:

-نعم، وهي تنمو هناك، بعيدًا عني، لكن عندما أنظر إلى النجوم، أشعر بالسعادة لأنني أعرف أنها تنتظرني.

قال شيرخان الذي كان يُميل رأسه إلى الوراء لبعض الوقت وهو ينظر إلى السماء:

-نعم، ماذا تعتقد يا فيرتير؟ ماذا سيفعل اللص؟ هل سيغير الأساسيات؟

نظرنا جميعًا إلى السماء، في اللحظة نفسها بدأ الأمير الصغير في البكاء بصوت عالٍ.

قال:

-لا لا، ليس في زهرتي.

يمكن رؤية سلسلة كاملة من الكواكب الصغيرة في السماء، وعلى أحد الكويكبات، حيث كانت تظهر أيضًا ثلاثة تلال بارتفاع الركبة، التقطتُ ظل أجمل وردة رأيتها في حياتي.

صرخ الأمير الصغير عندما انكسر فرع الزهرة أخيرًا، أضاءت الوردة لفترة وجيزة، ثم اختفت، ألقى الأمير نفسه على الرمال وضربها بقبضتيه.

تبادلت أنا وفيرتير نظرة فهم، ثم ركضنا، بينما شيرخان، الذي تفوق علينا بقفزات كبيرة، ضرب بمخالبه حجرًا غير واضح كان يقع وسط الرمال، وسقطت الصحراء علينا، لقد انقلبنا في طريقنا إلى الفضاء، قفزنا بأسرع ما يمكن عبر صفحات القصص.

ولكن عندما وصلنا إلى كويكب الأمير الصغير، كان اللص قد رحل، ولم نجد سوى السيقان حيث نمت الزهرة من قبل، الشجرة فقط هي التي ظهر عليها البراعم الأولى.

بدلًا من ذلك، كان هناك شيء ما يتحرك على أحد الكواكب المجاورة، وقد كان صغيرًا جدًّا، وكان يسكنه ملك في عباءة واسعة

من فرو الحيوانات، صاح الملك:

-أوه! يا لها من مفاجأة جميلة غير متوقعة.

انتقلنا بسرعة من كوكب إلى كوكب.

لهث فيرتير وهو يقول:

-يجب ألا ندعه يهرب!

ثم سال العرق من جبهته الشاحبة، زمجر النمر موافقًا فيرتير وقد كشف عن أنيابه:

-أريد حقًّا أن أمزّق أحدًا ما.

لكن اللص كان سريعا، تابعنا ظله عبر قدَّاحة مصباح وحيد، وحديقة من الورود، وثعلب يتوسل إلينا لترويضه، لكننا لم نتمكن من اللحاق به، انقلب اللص ذهابًا وإيابًا بمهارة كبيرة، في النهاية وصلنا إلى نهاية القصة والطريق الذي واجهناه أدى إلى ريف إنجليزي. من بعيد رأينا الظل يندفع بعيدًا، أراد شيرخان أن يلاحقه على الفور، لكن فيرتير توقف، ووضع يديه على فخذيه وشهق محاولًا التنفس، كنت أنا أيضًا لا أستطيع التنفس.

حثَّنا النمر:

-هيا، علينا الاستمرار.

وأغمض عينيه الصفراوين للحظة ثم تنهّد قائلًا:

--حسنًا، إذا كنتما لا تستطيعان فعل أي شيء آخر، فاصعدا على ظهري، أنا سأحملكما.

قال فيرتير:

-الرجل في العادة لا يركب النمر، وبالتأكيد كذلك أي سيدة.

لكنني كنت قد أرجحت نفسي بالفعل على ظهر النمر مفتول العضلات وقلت له:

-هيا، ليس لدينا وقت لهذا الآن.

طمر فيرتير وجهه بمنديله المصنوع من الدانتيل، ثم استسلم وجلس ورائي على ظهر النمر.

أطلق شيرخان العنان لسرعته باتجاه الأفق، وعبر بقفزات طويلة فوق التلال، كان سريعا إلى درجة أن المناظر الطبيعية من حولنا أصبحت غير واضحة. تشبثت بفرائه بينما تشبث فيرتير بكتفي وهو يصرخ، سرعان ما توالت المشاهد من قصور وكرات ونساء جميلات في غرف الشاي أو البيانو، لكن شيرخان انقلب عبر القصص بسرعة كبيرة جدًّا لم تسمح لي برؤية التفاصيل، بالإضافة إلى ذلك، كان ظهر النمر يتمايل بشدة مع كل قفزة حتى إنني اضطررت إلى استخدام كل تركيزي كي لا أسقط، ذكّرني الأمر برمّته بأول رحلة إلى مدينة الملاهي وآخرها قبل بضع سنوات. في مرحلة ما، أغمضت عينيَّ وتمنّيت أن ينتهي الأمر قريبًا، وورائي صاح فيرتير بشيء عن معدته الحسّاسة.

انتهت رحلتنا البرية عبر الرواية بشكل مفاجئ كما بدأت، توقف شيرخان فجأة حتى إنّ جسدي وكذلك جسد فيرتير قد اندفعا إلى الأمام دون إذنٍ منّا فسقطنا رأسًا على عقب على العشب. سمعْنا على

الفور ما يشبه الثرثرة لمجموعة من الأصوات ونهضْنا بسرعة مرة أخرى، بِرُكبنا الواهنة تعثرنا نحو مصدر الضوضاء.

في هذه الأثناء حل الغسق فوق الريف الإنجليزي وكان أحدهم جالسًا ليس بعيدًا عنّا في الخندق، لكنه لم يكن اللص في عباءته، كان فتاة ربما أكبر مني ببضع سنوات، بعينين داكنتين مثل شعرها، كانت ترتدي ثوبًا منفوشًا، وعلى تنُّورتها بقع دماء، ممسكة بساقها اليمنى التي إلتوت فشكّلت زاوية غريبة من أحد الجوانب، كان وجهها منكمشًا من الألم، أحاطت بها أربع فتيات عاريات أخريات، كان لديهن إصابات تشبه إصابتها إلى حد كبير، وتحدَّثن معها ومع زوجين مسنّيْن يبدو أنهما الوالدان، وخلف العائلة كانت توجد عربة مقلوبة بمحور مكسور، وحصانان يحفران باضطراب في التراب.

سألتهم:

-هل كان هذا حادثًا؟

أومأ رب الأسرة برأسه، وشرح لي وهو يتحسس شواربه مرارًا وتكرارًا في ارتباك:

-فجأة كان هناك شخص ما في الطريق، شخصية مقنَّعة، فقط هكذا بكل بساطة، في منتصف الأحداث، لم ننجح في جعله يتوقف، لا أستطيع أن أفهم من أين جاء هذا الشخص فجأة، غير مفهوم بالمرة!

كان شيرخان، الذي طاف حول مكان الحادث، يشمّ رمال الطريق في هذه اللحظة ويقول وهو يزأر:

- الرائحة التي تفوح من هذا الطريق هنا، أود أن أقول إنها من العالم الخارجي.

صرخت إحدى الفتيات الصغيرات:

-يا للهول! سوف نتأخر عن الذهاب إلى نيذرفيلد، يا لها من قسوة! قد نفوِّت رقصة كاملة!

وصاحت فتاة أخرى:

-سيكون هناك الكثير من الضباط!

بينما توجهتُ إلى الفتاة المصابة، وسألتُها:

-هل أنتِ ليزي؟

وفي غضون ذلك، اتضح لي أي قصة عثرنا عليها، كنت قد قرأت «الكبرياء والتحامُل» كثيرًا حتى إنني شعرت بعض الحرج تقريبًا لأنني لم أتعرف على العائلة منذ البداية.

أومأت الفتاة برأسها وقدّمت نفسها:

-إليزابيث بينيت.

ثم أضافت لأخواتها:

-أعتقد أننا سنضطر إلى تفويت الحفل بأكمله، أخشى أنّ ساقي قد كُسرت.

صرخت السيدة بينيت، والدة الفتيات:

-يجب ألا نفوّت الحفل! أختك جين يجب أن ترقص مع السيد بينجلي، إنها في وضع جيّد يجعلها تصبح مخطوبة إليه!

جاء الردّ من جين، كبرى البنات الخمس:

-أمي، ليس الأمر بهذه الأهمية.

-لكن يا صغيرتي، ما الذي تتحدثين عنه؟ ألا تريدين أن تصبحي حبيبة سيد نيذرفيلد؟ هل تريدين دفع أخواتك إلى الفقر عندما يموت والدك؟ تعالي، على الأقل حاولي النهوض، ليزي! ربما يمكنك الرقص بالرغم من كل شيء، عجِّلن!

تنهد السيّد بينيت وهو يقول:

عزيزتي، ألا ترين أن ليزي مجروحة؟ ما نحتاجه حقًّا هو الطبيب وليس الاحتفالات.

ثم قاد زوجته بحذر نحو العربة المقلوبة وتمتم:

-كان يجب أن يصل السائق إلى القرية الآن، اجلسي هنا بينما ننتظر.

-تأوّهت السيدة بينيت ووضعت رأسها بين كفّيها:

-أوه! رفقًا بأعصابي المسكينة! لماذا عليها أن تكسر ساقها في مساء مثل هذا؟!

قال السيد بينيت مندهشًا:

-نعم! لقد كان هذا بلا قصد من ليزي! كيف يمكن أن تتصوري أن تكون أنانية للغاية حتى تؤذي نفسها وتعرِّض كل خطط الزواج للخطر!

اشتكت السيدة بينيت مرة أخرى:

-أوه، يا للحظ العاثر!

بينما تعالت همسات الأخوات فيما بينهن.

سأل فيرتير ليزي في هذه الأثناء:

-هل يمكننا مساعدتك؟ تصادف أنّ معنا نمرًا يصنع ظهره وسيلة نقل ممتازة، سنكون سعداء بتأجيره...

أطلق شيرخان هَمْسًا يشير بوضوح إلى أنّ عدّه وسيلة نقل من قِبَل شخص ما يعتبر إهانة.

قالت ليزي بسرعة:

-لا شكرًا، سنكون بخير، سيكون الطبيب هنا قريبًا، ربما سأضطر إلى عدم حضور الحفلات لبعض الوقت، لكن هذا ليس خطئي على الإطلاق، لم أهتمَّ بالرقص مع السيد دارسي المغرور على أي حال.

نادت السيدة بينيت من داخل العربة:

-ليزي!

التفتُّ إلى النمر وسألته:

-شخص ما من العالم الخارجي، كما تقول؟

الغضب قد تراكم وظهر في تقلصات بطني، الآن أصبح أحد كتبي المفضلة على المحكّ! كان عليَّ حقًّا معرفة من المسؤول عن ذلك.

هزّ شيرخان جمجمته المفترسة العظيمة وهو يقول:

-الأثر خافت وغامض، ولكن إذا لم أكن مخطئًا، فإن رائحته مثل جزيرتك يا آيمي.

عندما عدت إلى الدائرة الحجرية، وجدت أنها كانت الخامسة بعد الظهر، لم يكن هناك أثر ليتسي، ربما كانت قد عادت إلى المنزل منذ فترة طويلة، لكن ويل كان لا يزال هناك، حيث رأيت هيئته الطويلة النحيلة في ظل إحدى القناطر الحجرية حيث كان ينام على العشب.

قرقرت معدتي من الجوع، حشوت النسخة ذات الغلاف الجلدي الأحمر من كتاب الأدغال على عجل في جيبي وبدأت في النزول عبر التل مرورًا بويل، لكنَّ شيئًا ما كان يعيقني، ربما كانت الابتسامة على وجهه، لقد رأيته مؤخرًا جادًّا وحزينًا، وكان مذهلًا بملامحه المختلفة إذ كانت زوايا فمه على ارتفاع بضع مليمترات فقط، تشكِّل غمازة على خدّه، بماذا كان يحلم يا ترى؟

كان شعر ويل متشابكًا فوق رأسه، شكَّلت أهداب عينيه هلالين داكنين على الجلد الباهت، وبدت عظام وجنتيه كما لو أنها أصبحت أكثر حدّة في الأيام القليلة الماضية، شفتاه فقط بدتا ناعمتين ومرتاحتين، وجعلتا وجهه يبدو ودودًا للغاية.

لا بد أنني انحنيت إلى الأمام لأن حقيبتي انزلقت فجأة من كتفي وسقطت على صدر ويل وكأنها تضربه.

فتح عينيه.

قلت وأنا أُمسك حقيبتي مرة أخرى:

-المعذرة... آسفة، سقطتْ سهوًا.

حدَّق ويل في وجهي وهو نعسان جدًّا محاولا فهم ما الذي جعله يغادر حلمه الجميل، تمتم:

-كم الساعة الآن؟

-إنها الخامسة، لقد عُدتُ للتو ومن ثم سقطت حقيبتي و...

عدّل ويل من جلسته وقال:

-الخامسة؟! يا للهول! كان بإمكاني أن أنام بضع ساعات إضافية الليلة الماضية ولكن لم أتمكن.

قلتُ، وتثاءبت:

-وماذا عني؟! أنا لم أنَمْ تقريبًا!

لقد كانت معجزة أنني قد صمدت حتى الآن، فجأة ضاقت عينا ويل إلى الحد الأقصى، وتلاشت ابتسامته الأخيرة التي رافقت حلمه من على شفتيه، وقال بجدّية:

-لقد انتهت المحاضرة منذ ساعات، ماذا كنت تفعلين في عالم الكتاب لفترة طويلة؟

رمقني بنظرة ثاقبة، تذكرت أنني كنت غاضبةً منه لأنه لا يريدني أن أستمر في القفز، قلت وأنا أزدرد لعابي:

-ربما لا شيء يثير اهتمامك، من الأفضل عدم القلق بشأن أي شيء.

رفع ويل حاجبيه وقال مندهشًا:

-هل كل شيء على ما يرام؟ هل أنتِ بخير؟

بدا أنه قد أصيب بالقلق بصدق، بللت شفتي الجافتين وقلت:

-كانت هناك فقط... بعض المشاكل، ولكن الآن بعد أن أدرتَ

ظهرك لعالم الكتب، فهذا لا يعنيك على سبيل المثال...

-مشاكل مع روايات شيرلوك هولمز؟

-ليس عندي أدنى فكرة، تعلم أنني لست مسؤولة عنها، لكن ربما سيحدث هناك أيضًا.

ثم ابتعدت عنه وأنا أتخذ طريق العودة وأضفت:

-على أي حال، اللص يعمل باجتهاد شديد، واليوم أفسد قصّتين في آنٍ واحد.

تبعني وهو يسأل:

-أما زلتِ تعتقدين أن هناك شخصًا ما يسرق الأفكار عمدًا؟

-أنا لا أعتقد ذلك، أنا أعلم ذلك علم اليقين، لقد رأينا ذلك بأعيننا، واضح؟!

قال بهدوء:

-واضح.

-إذًا لم تعد تعتبرني ساذجةً ولا تعتقد أن الشخصيات تمزح معي فقط أو أنني أفسد كل شيء بنفسي؟

هزّ رأسه نافيًا وقال:

-لقد قرأت كتاب أليس في بلاد العجائب، لقد دُمّرتْ القصة كلها نهائيًّا بالفعل، هذا يبدو سيّئًا حقًّا وليس أمرًا عرضيًّا.

-ماذا؟!

-أنا آسف لأنني لم أصدّقك على الفور.

-لا بأس، الآن تحقّقت بنفسك.

عندما نزلنا ببطء من التل، أخبرته عن أحدث سرقة وحادث عربة إليزابيث بينيت.

بمجرد أن أنهيت قصّ ما حدث تساءل ويل:

-لماذا يسرق أحدهم العاصفة في رأيك؟

-ليس لدي أي فكرة، كنت أتساءل عن ذلك أيضًا.

لكن، نظرت مباشرة إلى عينيه ذواتَي اللون الأزرق السماوي والرمادي ثم قلت:

-هل رأيت بيتسي حين هبطت هنا مرة أخرى؟ هل كان معها... وردة؟

توقف ويل عن السير وقال:

-هل تعتقدين أنها بيتسي؟ لماذا تفعل ذلك بحق السماء؟

أبعدت خصلة من شعري عن وجهي وقلت:

-لقد كانت مجرد فكرة خطرت ببالي، يعتقد شيرخان أنه يمكن أن يكون شخصًا من سترومساي، ولست متأكدةً ما الذي يمكن أن تفعله بيتسي.

توقّفنا عن السير لأننا واجهنا موقفًا غريبًا.

فجأة حدثت عدة أشياء في الوقت نفسه: كان هناك شيء كبير

جدًّا وثقيل جدًّا ينفجر هناك، تدحرج نصفه على المنحدر، والنصف الآخر أحدث فرقعة في الهواء، أمسك ويل بكتفي وألقى بنفسه عليّ بقوة جعلتنا نطير إلى الجانب معًا، لقد هبطتُ تقريبًا على عظم حوضي، وحَفر مرفقي أضلعي، بينما سقط ويل فوقي، وحيث كنت واقفةً، تحطّمت إحدى الصخور العملاقة التي كانت تشكل الدائرة الحجرية.

تصدَّع الحجر على العشب بقوة لا تضاهيها غير صدمتنا، تشبثت بويل في رعب، وحفرت ظهره بأصابعي بينما كان يضع ذراعيه حول رأسي ليحميه، تلامست ذؤابتا أنفينا، أخيرًا عاد كل شيء إلى الهدوء.

نظر كلٌّ منَّا إلى الآخر للحظة، ثم ابتعد ويل عني، ووقف على قدميه، مادًّا يده لمساعدتي، فأعطيته يدي ليسحبني.

سألته عندما عدت للوقوف على قدمي:

-ما كان هذا بالتحديد؟

شعرت أن ركبتيَّ مثل حلوى الجيلي وكنت متأكدةً تمامًا من أنهما لم تكونا كذلك بفعل الصدمة فحسب.

أشار ويل إلى قمة التل، حيث من الواضح أن إحدى البوّابات الحجرية تفتقد الآن إلى الحجر المتقاطع، كم قرونًا مرّت على هذه الأشياء هناك؟ قمت بتدليك أضلعي الموجوعة وقلت:

-شيء من هذا القبيل لا ينهار هكذا من تلقاء نفسه، أليس كذلك؟

راح ويل يفرك وجهه وعينيه، ثم يحاول النظر مرة أخرى إلى الممرّ المكسور الآن، قال أخيرًا:

-بلى، خاصة عندما تكون بهذا الثقل، هذا ما أعتقده.

والجزء الأصعب كان أن يدرك الوحش أنه يمتلك مهارة التمويه على نحوٍ هائل.

وإذا لم ينظر إليه المرء من كثب، فسيعتقد أنه إنسان تقريبًا.

تقريبًا فحسب.

(10)

زيارة لمنزل لينوكس

في الأيام التي تلت ذلك الحادث، بحثت أنا وشيرخان وفيرتير في عالم الكتب بحثًا كثيفًا عن أدلة على هوية اللص، بعد الحادث الذي وقع في الدائرة الحجرية، اعتقد ويل أخيرًا أن هناك شخصًا لديه نوايا سيئة كان على وشك تحقيق الأذى في عالم الكتاب، وسأل باستمرار عن مدى نجاحنا في العثور على أدلة، لكنه لم يكن بعد مستعدًا للقفز مرة أخرى بنفسه، مهما ضغطتُ عليه بشدة، وللأسف، فإن أيًّا من الشخصيات الأدبية التي قد قابلناها قد شاهدت أو واجهت اللص، لم يُقل أيُّ شيء آخر غير أن له عباءة وأنه مقنَّع ليس إلا؛ لذلك واصلنا التلمُّس في الظلام. تمّت سرقة المزيد من الأفكار، لكننا لم نرَ اللص المقنَّع مرة أخرى، يبدو أنه – أو أنها – قد تعلم من المطاردة التي حدثت في قصة الأمير الصغير وقصة الكبرياء والتحامل أن عليه الآن أن يكون أكثر حذرًا، وقبل كل شيء، أكثر تريّثًا.

حتى الآن أنا على يقين أن بيتسي لها علاقة بما يحدث، كنت أراقبها من كثب أثناء الفصل ولاحظت مدى توتُّرها عندما تحدثت أنا وويل عن الذهب المفقود من خزانة دراكولا خلال فترة الاستراحة، عند ذكر مصّاص الدماء، كانت لا تزال تغضب وتتوتر، كانت قد طعنت

الممحاة برأس قلمها بلا هوادة في غضب مكتوم، وكانت هذه علامة واضحة بالنسبة إلي! لكن ويل أكد لي مرارًا وتكرارًا أن بيتسي ترى هدفها الوحيد في الحياة فقط هو حماية عالم الكتاب، وأنه ببساطة لم يكن يتخيل أنها كانت تفعل شيئًا يضر بالأدب.

لذا تحوَّل شهر يوليو إلى أغسطس دون أن نكتشف أي شيء جديد، وفي يوم من الأيام بدأت الأمور تضطرب للغاية في منزل لينوكس، فكما اتضح، اقتربت ذكرى الهدنة بين الأسرتين، وكان على عائلتنا أن تستضيف الاحتفال هذا العام.

لقد لاحظت فجأة أن السيد ستيفنز كان لا يوجد إلا بصحبة ممسحة أو أدوات تنظيف أخرى، وأن المنزل يلمع ويتألق أكثر فأكثر كل يوم؛ لذا رأيته في فترة ما بعد الظهيرة وهو يوازن جسده على سلم مرتديًا قفازات مطاطية صفراء فوق بدلته الفاخرة ويصقل كل ثريا في بهو المدخل. صرخت أليكسيس بصدمة عندما دخلت الحمام في وقت مبكر من صباح أحد الأيام ووجدت السيد ستيفنز في حوض الاستحمام الخاص بنا، حيث كان يصفر بسعادة وهو يزيل أي جير بين البلاط، كما لو كان الضيوف يدخلون حمامنا الصغير تحت السطح! لكن السيد ستيفنز، الذي بدا أن لديه شغفًا خفيًّا بالتنظيف، نظَّف كل ما كان ممكنًا في طريقه، وتركته جدتي يفعل ما بدا له مناسبًا؛ لأنها كانت في الواقع سعيدة للغاية، أوضحت لنا فيما بعد أن خادمنا كان متحمسًا للغاية بشأن أكثر المهام التي لا تحظى بشعبية، لسوء الحظ لم تستطع العائلة الحصول على عاملة التنظيف الخاصة بهم منذ سنوات.

في هذه الأثناء، كتبت السيدة مايريد قوائم تسوق لا تعد ولا تحصى، وفكرت بصوت عالٍ في زخارف المائدة وسلسلة من قوائم الطعام، فضلًا عن الذوق البغيض في الطعام لِلُّورد البغيض، وأصبحتُ أكثر فضولًا حيال ذلك. في إحدى الأمسيات تذمرت في وجه أليكسيس سائلة عما إذا كان لدينا أي ملابس مناسبة، بعد كل شيء، لم نكن حاضرتين تمامًا في ملابسنا البسيطة التقليدية، في اليوم التالي، غرقنا في كميات هائلة من القماش بينما كنا نكافح مع الأكمام المنتفخة لفساتين الكوكتيل التي جلبها لنا السيد ستيفنز من البر الرئيسي.

عندما وقفت أمام المرآة مساء الحفل، غرق مزاجي تمامًا في الوحل وأصبح مثل مزاج جدتي، كان ثوبي أخضر داكنًا مثل الغزال عليه شعار عائلتنا وتنورة منتفخة من التول تنتهي فوق ركبتي. كنت أبدو مثل فتاة من العصور الوسطى، ولم يكن هناك الكثير من القماش تحتها، كان مفقودًا للأسف في الجزء العلوي، لم أحزن على الأكمام الضخمة المنفوخة التي مزقتها أليكسيس والحمد لله، لكن من الواضح أن خط العنق كان من الممكن أن يكون أقل عمقًا. الأشرطة النحيلة التي تركتها أليكسيس أبرزت كتفيَّ النحيفتين بشكل سلبي، ارتدت أليكسيس فستانًا متطابقًا باللون الأحمر الفاتح وبدت وكأنها أميرة، على أي حال، كانت السيدة مايريد سعيدة مع ابنتها عندما دخلنا قاعة الرقص في الطابق الأول في حوالي الساعة السابعة. بدت مستاءة مني مع ذلك؛ لأنني ارتديت واحدة من السترات الصوفية الثقيلة فوق الرداء، فأصبح لا يُرى مما تحتها سوى

شريط ضيّق من التول المنتفخ.

تمتمت لها مبرّرة:

-أنا أتجمد بسرعة.

لم تُجب السيدة مايريد، التي كانت ترتدي وشاحًا أخضر فاتحًا فوق ردائها الأسود اللامع. ربما لم يكن مظهري ملائمًا على الإطلاق، لكنّ وصول الضيوف هو ما جعلهم يبدون مرهقين، على ما أعتقد.

أعلن السيد ستيفنز في الطرف الآخر من الغرفة:

-ريد ماكاليستر، لورد سترومساي.

تنهَّدت السيدة مايريد بينما كان اللورد المزعوم يتدحرج على كرسيّه المتحرك، تبعه كل من بيتسي وويل، ويل في سترة ملائمة تمامًا لشعره الداكن، كان يرتدي الكِلْتْ. في مخيلتي، كان الرجال الذين يرتدون التنانير يبدون دائمًا سخفاء إلى حد ما، ولكن الآن، بعد أن رأيت ويل بالثوب الجامع في مربّعات بين الأخضر الداكن والرمادي والأزرق، المستقرّ تمامًا عند فخذيه النحيفتين كاشفًا عن عضلات الساق المحشوّة في جوارب الركبة التقليدية، غيرت رأيي فجأة، وأخيرًا عرفت كيف سيكون شكل ويل مختلفًا دون الأحذية البالية والسترة القديمة! لقد بدا أكبر من المعتاد الآن وكان الكِلْتْ يحاكي لون عينيه، العينين السماويّتين.

ازدردت لعابي في توتر.

على الرغم من أنّ كلاًّ منّا يرى الآخر يوميًّا لأسابيع وتوافقنا جيدًا، فقد استقرّ شعور غريب في حلقي، خوف قديم كدت أشعر به في

الأسابيع القليلة الماضية، تناسيته وحاولت الآن أن ألهي نفسي؛ إنه الخوف من السخرية والاستهزاء، لماذا كان عليه أن يظهر بمثل هذا الكمال ويربكني هكذا؟

متأبّطة ذراع ويل، كانت بيتسي ترتدي فستانًا أزرق ثلجيًّا مع خط رقبة كالشلال وذيل طويل منساب من ثوبها يمحو الأرض خلفها، كانت لا تقل كمالًا عنه. مع اقتراب الاثنين، قمت أيضًا بإغلاق الأزرار العلوية من سترتي الصوفية لأكون في الجانب الآمن، وخطوت نصف خطوة خلف أليكسيس، أردت أن أجعل نفسي غير مرئية، لكن نتيجة جهودي جاءت عكسية تمامًا. لسوء الحظ، اصطدمت بعمود رخامي بارتفاع الصدر وضع عليه السيد ستيفنز باقة من ورود حديقتنا، وقعت المزهرية وتهشمت، ورغم أنني قد حاولت الإمساك بها أثناء الطيران، فإنها تهشّمت محدثة دويًّا عاليًا على الأرض، تناثر الماء والورد في كل الاتجاهات، كل الرؤوس في الغرفة تحوَّلت إليَّ.

سمح اللورد المُسِن لنفسه بضحكة جافة، بينما قهقهت بيتسي، وأنا تحول وجهي إلى اللون الأحمر القاني، سارعت أليكسيس إلى طلب شيء ما كالممسحة لالتقاط القطع المهشمة وتجفيف الأرض. جثوت أنا على الأرض وبدأت في تجميع القطع المكسورة وجمع الزهور، وتركت ثوبي يلمس الأرض ويبتل بالماء.

حاولت السيدة مايريد تشتيت انتباههم قائلة بهدوء:

-تفضلوا جميعًا بالجلوس.

ثم تقدمَتْ خطوة إلى رأس طاولة المأدبة، التي وضعها السيد ستيفنز مع أكواب من الكريستال، وأدوات المائدة الثقيلة من الفضة، وأوانٍ خزفية فاخرة عليها شعار العائلة، فتبعها الضيوف.

مثل قاعة المدخل الكبرى، كانت الغرفة الكبيرة في منزل لينوكس ذات سقف مقبّب مغطى بالرسوم، على نحوٍ متناظر. أضاءت العديد من الثريات ذات الأحرف الذهبية الغرفة التي كانت بحجم قاعة للألعاب الرياضية، ربما تم تصميمها في الأصل للحفلات الصاخبة، ولكن من الواضح أنها كانت كبيرةً جدًّا بالنسبة إلى عدد قليل من أفراد الأسرتين الذين ما زالوا يعيشون في سترومساي حتى اليوم. بدت الطاولة ضائعة في منتصف القاعة الضخمة، لأكون صادقةً، مع وجود كرسيّين قابلين للطي، كان بإمكانك وضع الضيوف حتى في مطبخنا الصغير في بوخوم.

همست إليَّ أليكسيس وكأنها تقرأ أفكاري:

-يجب على العائلات أن تُظهر ما لديها من فخامة.

بعد لحظات قام السيد ستيفنز بدحرجة خنزير مشوي على عربة.

جلسنا نحن أيضًا إلى الطاولة.

لقد كانت الأجواء غريبة؛ إلى يمين جدتي، كان اللورد رابضًا على كرسيّه المتحرّك، يرتدي بدلة قديمة مع سترة ووشاح حول رقبته بدلًا من ربطة عنق، كان رأسه أصلع ورماديًا متلألئًا، ونما حاجباه بشدة إلى أن اتصلا في المنتصف وتعلّقا مثل قضيب أسود على عينيه، وكان يحدق في طبقه وفمه مغلق.

على يسارها، أجلست السيدة مايريد خالي فينلي، الذي شعر بالملل وفتح منديله. منذ ذلك الحين فقدت الأمل بشأن محاولة التعرف إليه بعد زيارة متجره مرتين أخريين وتجنُّبه الرد على أسئلتي حول أسرتنا، وبدلًا من إعطائي أجوبة، ظل يتحدث عن الطقس وحاول أن يبيع لي الذرة المعلبة.

كان كلٌّ من بيتسي وويل يجلسان أمامنا، وفي أقصى المنضدة، كان جلين وكلايد وديزموند بثيابهم الرمادية المعتادة. كان من المعتاد أن تدعو العائلتان الشخصيات الخيالية التي نجت من الحريق الكبير في ذلك اليوم.

أعد السيد ستيفنز وجبات تكفي مدينة بأسرها: مشويات لامعة، صحون من البطاطس المهروسة والجزر المطهو على البخار، بطاطس كروكيت، سمك السلمون في صلصة الكريمة، الفاصوليا مع لحم الخنزير المقدد، أنواع الحساء والسلطات المختلفة، سفافيد من الخضراوات المشوية، أرز بالصلصة الحارة، شرائح التوفو... كان الأمر باذخا إلى درجة أنني بدأت أتساءل بجدية متى وكيف تمكن من إعداد كل شيء.

كانت الطاولة تمتلئ كل لحظة أكثر وأكثر، لم يكن مزاج معظم الضيوف احتفاليًّا بالمرة، ولم تكن الملابس الفاخرة وكمية الطعام الكبيرة أيضًا كفيلة بذلك. على أية حال، كنت في داخلي أضحك بشدة من هذا التجمع، ومن فكرة أن أسرتين كرهتا بعضهما لأجيال أجبرتا أنفسهما على مثل هذا الحدث؟

عندما كانت جميع الأطباق جاهزة أخيرًا ولم يكن هناك مكان لكوب واحد على مفرش المائدة النبيل، قامت السيدة مايريد بإعلان بداية الحفل قائلة وهي تبتسم:

-أهلًا وسهلًا بكم أيها الضيوف الأعزاء، مرحبًا بكم في الاحتفال بالذكرى السنوية الثالثة والتسعين بعد المائة لاتفاقية السلام! هيا لتشربوا معي نخب نهاية الخلاف والصداقة الأبدية لأسرتي لينوكس وماكاليستر المحترمتين، أتمنى أن تدافع كلتا العائلتين إلى الأبد عما هو قريب لقلوبهم وما هم موكَّلون بحمايته: سترومساي وعالم الأدب.

قال اللورد:

-فلنشرب جميعًا النخب، هيا هيا.

رفع الجميع كؤوسهم الكريستالية وشربوا.

قالت السيدة مايريد:

-حسنًا، أتمنى لكم وجبة شهيّة وبالهناء والصحة.

على الرغم من أن مذاق الطعام كان ممتازًا (وعلى عكس بيتسي، التي تذوقت الطعام بقطع صغيرة مجهرية بفمها المدبب، فقد وجدت طريقي عبر أكبر عدد ممكن من الأطباق)، فإن المزاج العامّ بالكاد تحسّن على مدار المساء. تبادل اللورد والسيدة بعض العبارات القاسية، ديزموند يرش نصف المائدة بالصلصة وهو يضع مرفقه في وعاء لأنه لم يستطع رفع عينيه عن أليكسيس. نظرت بيتسي إليَّ وإلى ملابسي التي ما تزال رطبة باستخفاف، تجادل جلين وكلايد حول

حقيقة أن شخصًا ما قد أخذ على ما يبدو إمدادات فينلي الغذائية. وصل المساء أخيرًا إلى أقصاه أثناء تناول الحلوى، لقد بدأ الأمر بالفعل بسؤال غير ضار إلى حد ما، وقد طرحه ويل على أليكسيس وهو يتناول قطعة من حلوى الترامیسو ويضعها في طبقه:

-وهل تشعران بالراحة هنا؟

انتشر بعض الصمت غير المريح بين الجميع بعد هذا السؤال، ولم يسد سوى صوت الأطباق حتى أومأت أليكسيس بالإيجاب، وبالكاد تحوّلت نظرتها على نحو غير ملحوظ إلى ديزموند، ثم قالت:

-نشعر بأننا في بيتنا تقريبًا، شكرًا لك على اهتمامك.

قالت السيدة مايريد معقّبة:

-حسنًا، هذا طبيعي؛ لأنه ببساطة منزلكما بالفعل.

وسكبت حلوى كريمة الليمون في وعاء زجاجي صغير.

همهمت أليكسيس بصوت غير مفهوم، فاعتقدتُ أن هذه كانت نهاية الموضوع، لكن بعد لحظة تركت الملعقة جانبًا وأضافت بتعبير حازم:

-على الأقل لمدة أسبوعين آخرين فقط.

أحدث ديزموند دويًّا وهو يضع كأسه على الطاولة بقوة.

قالت السيدة مايريد:

-معذرة ماذا قلتِ؟

-حسنًا، أنتِ تعلمين أننا هنا فقط للزيارة، تقترب عطلة آيمي الصيفية من نهايتها وعلينا العودة إلى ألمانيا قريبًا.

نظرت جانبيًّا إلى أليكسيس ولاحظت أنها بعد أن تفوهت بهذه الكلمات بدا عليها الارتياح الشديد، هل حقًّا أرادت الابتعاد من هنا مرة أخرى؟ بعيدًا عن ديزموند؟ حاولت أن أعقِّب فتلعثمت:

-لكن...

ثم صمتُّ وأنا أفكر أننا كلما قضّينا وقتًا أطول هنا، إلاّ وازداد شعوري بغرابة فكرة المغادرة في وقت ما، وافترضت أن أليكسيس شعرت بشعوري ذاته، لكن من الواضح أنني كنت مخطئة في هذا التصور أيضًا.

خفضت أليكسيس جفنيها وهي تقول:

-خطَّطنا لما أقوله بهذه الطريقة منذ البداية، عليكِ العودة إلى المدرسة.

قالت جدتي:

-يمكنها أن تذهب إلى المدرسة هنا أيضًا، عالم الكتب يحتاجها.

قال اللورد ساخرًا وهو يحرك زاوية مفرش المائدة بيديه:

-سيكون عالم الكتب أكثر أمانًا دونها.

ثم أضاف موضّحًا:

-تقول بيتسي إن ابنتكم آيمي تتجول في عالم الكتب وكأنه نزهة خلوية غرضها التسلية، حتى إن الجميع يتحدث أن فيرتير قد ترك

روايته فارغة وأصبح يتجول معها و...

تدخّل جلين قائلًا:

-تعرف آيمي جيدًا أنها يجب أن تبقى في كتاب الأدغال.

شعرت بأنني أنكمش في مقعدي.

أشارت بيتسي بإصبعها إليَّ متهمة:

-إنها لا تفعل ذلك، إن الأمر كله مزحة بالنسبة إليها! إنها تسبّب الفوضى في القصص دون تردّد، فقط انظر إلى ما فعلته بأليس في بلاد العجائب!

أردت الاحتجاج لكني لم أستطع الكلام.

قال جلين:

نعم، هي الشخصيات فحسب تلعب بجنون مرة أخرى.

هذا لم يردع بيتسي عن اتهامي ممّا زادها انفعالًا وصرخت:

-يتحدثون عنها في عالم الكتب ويقولون: آيمي تقفز من المكان الذي تريده. بل ويقولون إنها تقفز حتى عندما تريد.

ساد صمت ثقيل.

سألت الطاولة السيدة مايريد:

-ماذا تقصدين؟

شعرت أنا باندفاع الدم إلى وجنتي مرة أخرى، تمتمت:

-لا... لا تقصد شيئًا، لم أفعل... لم أقصد... أنا أتسلل... أنا لم

أتسلل نحو البوّابة.

فردّ عليَّ اللورد موجّهًا حديثه للجميع وهو يضرب الطاولة بقبضته حتى تشابكت الأطباق معًا:

هراء، هي التي تستخدم سرًّا الدائرة الحجرية في الليل، آيمي تشكل تهديدًا لكل ما حاربناه نحن ماكاليستر منذ قرون!

فوجدت نفسي أقول:

-هناك لص يسرق الأفكار، أنا وفيرتير نحاول مطاردته، لكنه يواصل الهروب.

كانت تلك الاتهامات كافية بالنسبة إلي في تلك اللحظة، لست أنا بالتأكيد أكبر تهديد لعالم الكتب في الوقت الراهن.

رفع اللورد جسده قليلًا عن كرسيّه المتحرّك وحدّق في وجهي قائلًا:

-إذًا أنتِ تعترفين بذلك؟

-أعترف بماذا؟

-أنك تقابلين الشاب فيرتير، وأنكما تتجولان في عالم الكتب معًا، من قصة إلى أخرى، في مكان مختلف كل يوم!

ثم تمايل للحظة على ساقيه اللتين لم تكونا قادرتين على تحمّل وزنه.

أخذت شهيقًا عميقًا وأجبته:

-نعم، لقد قلت ذلك، لكنني لا أتسلل سرًّا.

اشتعلت عينا اللورد غضبًا وبدتا وكأنهما ستخرجان من محجريهما

وهو يصيح:

-ما كان يجب أن يتمّ قبولك في الفصل، عرفت الكوارث التي ستتسبّبين بها حالما سمعت بوصولك، ما كان يجب أن ترسليها إلى المكتبة السرية يا مايريد!

قالت جدتي فورًا:

-إنها لينوكس، من حقها القفز، ومن واجبك أن...

ضحك اللورد ضحكة قبيحة وهو يقول:

-إنه مجرد دليل آخر على أن عائلتك هي أسوأ ما يمكن أن يحدث للأدب، فقط تريدون أن تجعلوا أنفسكم مهّمين وتسلطوا عليكم الأنظار، أيها الأشقياء السُّذج، لا تحترمون الـ...

قاطعته أليكسيس بسخط:

-مهلًا مهلًا!

قالت بيتسي وهي تساعد والدها في العودة إلى الكرسي المتحرّك:

-إنها وصمة عار على القافزين في الكتب.

وافقها اللورد:

-نعم، عار حقًّا، عار حقيقي.

في تلك اللحظة تبدّل فيَّ شيء ما وسيطرت عليَّ آيمي أكثر جرأة من آيمي المعهودة حتى إنني لم أعرف نفسي حين قفزت وصحت:

-توقف حالًا!

وضعت أليكسيس يدها على ذراعي لتعيقني، لكنني أبعدتها عني،

ثم نظرت بغضب من واحد إلى الآخر وأنا أقول:

-هذا صحيح، لم أتصفح كتاب الأدغال مرة واحدة كما كان ينبغي أن يحدث، منذ اليوم الأول، تجولت عبر القصص وغالبًا ما يرافقني فيرتير، لكننا نقوم بذلك لأننا نبحث عن اللص! ألا تفهم ذلك؟ شيء ما يحدث في عالم الكتب، شيء خطير وعلينا إيقافه! ما عليك سوى فتح بعض الكتب لتراها: أليس في بلاد العجائب، ساحر أوز، الأمير الصغير... وفجأة فُقدت الأفكار في كل مكان، ولم تعد أحداث القصص تسير كما ينبغي لها! لا يمكنك تجاهل ذلك فقط!

تمتم جلين:

-لكن...

كان الغضب قد بلغ مني مبلغه وتردّد صدى صوتي في الغرفة الكبيرة بقوة بينما تابعت:

-كل شخص في هذه الجزيرة يستمر في الحديث عن وظيفتنا في حماية الأدب، لكن من الواضح أنك لا تقصد ذلك على الإطلاق، لأن هذا بالضبط ما أحاول فعله! هذا فقط!

التفتُّ إلى أليكسيس وقلت بحزم:

-أنا آسفة، لكنني لن أغادر الجزيرة كما خططنا، ليس قبل أن نقبض على اللص.

اهتز اللورد ورأسه يتوهج باللون الأحمر حتى ذكَّرني بالطماطم ذات الحاجبين:

-لص في عالم الكتب؟ لص يسرق الأفكار؟ هذا أمر سخيف لا يمكن تصديقه.

فأجابه ويل:

-حقًّا، لا يمكنك تصديقه؟ أما زلت تعتقد أن وفاة شيرلوك كانت مصادفة؟ آيمي على حق، هناك شيء ما يحدث في عالم الكتب... وهنا في سترومساي، علينا أن نفعل شيئًا.

همس له اللورد:

-هل تصطفّ معها؟ أتناصر أحد أفراد عائلة لينوكس؟

نطق باسم عائلتنا كما لو كانت الكلمة شيئًا غِرَويًّا مقززًا في فمه.

تنهّد ويل وقال:

-هذا لا يتعلق بالعداء الطفولي لعائلتينا، فكّر قليلًا بعقلانية لو سمحت، انتهى زمن القبائل ونزاعاتهم، اللعنة! لم يتبقَّ منّا سوى القليل!

تكمّش وجه اللورد غاضبًا وهو يقول:

-عداء طفولي؟

وبدا على جدتي الضيق الشديد، بينما رمقت بيتسي ويل بنظرة كُره كما لو كانت تراه وتتعرف عليه للمرة الأولى، فجأة صار الجميع يصرخون ولم يعد أحد يسمع الآخر، فغادرت الغرفة بأسرع ما يمكن. بخطوات متسرعة عبرت بهو المدخل وصعدت الدرج وتعثرت في غرفتي، بعد وقت قصير فتحت المصباح الجانبي

وسقطت على سريري، حتى بعد وصولي إلى هنا ما زلت أسمع السيدة مايريد واللورد يصرخان كلٌّ منهما في وجه الآخر في قاعة الرقص.

لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى كُتمت أصواتهم، أخيرًا، بعد أن أُغلِق بابان، منهما بوابة الدخول الثقيلة، عاد المنزل إلى الهدوء، أصبح كل شيء هادئًا جدًّا حتى إنني جفلت عندما كان هناك طرق على باب غرفتي.

قلت بصوت ناعس:

-تفضل بالدخول.

وبقيت مستلقية على الفراش وعيني مغلقة، لم أكن متأكدةً ممّا إذا كنت مستعدةً للاستماع إلى رواية أليكسيس عن نهاية اجتماع شمل الأسرة.

فُتح الباب ثم أُغلِق مرة أخرى بالمزلاج، كان يمكن سماع الخطوات وهي تقترب ثم تتوقف على بعد أمتار قليلة مني.

غمغمتُ بضجر:

-أنا أكره التجمعات العائلية.

قال صوت ذكوري:

-وأنا أيضًا.

عدلت من جلستي، كان هذا ويل في منتصف غرفتي، نظر للحظة إلى الكتب الموجودة على منضدة سريري والرفوف الموجودة

حولها، قال أخيرًا وهو يضع ذراعيه فوق صدره:

-تنتهي هذه الذكرى السنوية دائمًا بصراخ الجميع بعضهم في وجه بعض، لا تقلقي فلا جديد، أخشى أنك إذا عشت طويلًا في سترومساي فستفقدين الشعور بالأشياء المهمة.

مسحت وجنتي وعيني التي كانت رطبة عند لمسي لها:

-في الواقع، ليست طبيعتي أن أغضب وأصرخ في وجوه أشخاص لا أعرفهم جيدًا.

قال:

-أنا أعلم ذلك، ما زلت أعتقد أنك الشخص العاقل الوحيد في هذه الجزيرة الغبية، أنت على حق، علينا أن نوقف اللص قبل أن يدمّر المزيد من القصص.

-هل هذا يعني أنك ستقفز مرة أخرى؟

توتر وهو يقول:

-في الواقع... لا أعرف إذا ما سيكون هذا صوابًا أم لا.

نهضت من الفراش وقلت له:

-نعم، بالطبع سيكون هذا هو التصرف الصحيح.

ثم بدأت في جمع أجزاء الملابس المتناثرة، وأنا أقول:

-بدا اللورد غاضبًا منك بشدة.

هزّ ويل كتفيه وقال:

-قولي لي شيئًا جديدًا، ولكن اليوم كان انتصارًا

خاصًّا آخر، اعتقدت أن رأسه سوف ينفجر، رأيت كم كان لونه أحمر تمامًا. صرخ الآخرون أيضًا بعضهم في وجوه بعض حتى تلعثمت والدتك بشيء حول كتاب أرادت استعارته وهربت مع ديزموند، بيستي وكلايد وجلين يصطحبون اللورد الآن إلى البيت و...

توقف ويل فجأة عن الكلام.

عندما رفعت بصري لأرى لماذا توقف، وجدت نظراته مثبتة عليَّ، بدا لي وكأنها محصورة في مكان ما أسفل ذقني، وكان في نظرته نحوي نعومة لم أكن أتوقعها، نظرت إلى نفسي وذهلت، يبدو أن أزرار سترتي قد فُتحت أثناء كل هذه الفوضى، حيث أصبح ثوبي مكشوفًا جدًّا، جمعت أطراف السترة سريعًا حول جسدي.

تلعثم ويل وهو يزدرد لعابه ويتمتم بصوت منخفض:

-وأنا... أردت فقط أن أخبرك أنهم قد ذهبوا جميعًا الآن و... وأنني سأساعدك في العثور على اللص.

أومأت برأسي ووضعت خصلة من الشعر خلف أذني، وقلت:

-شكرًا.

نظر كلٌّ منا إلى الآخر وغمر الضوء المنبعث من مصباح السرير ملامح ويل في وهج دافئ، وفجأة شعرت بدوار بسيط، خاصة حين اقترب مني ويل ببطء بينما كنت أُأرجح خطوة صغيرة نحوه، ابتسم لي و...

فجأة سمعنا صوت باب ينفتح من الأسفل تبعه صوت نقر كعوب

صغيرة في بئر السلّم المؤدي إلينا.

سألته وفمي جاف:

-اممم، هل بيتسي ما زالت هنا؟

رفع ويل حاجبيه وقال:

-اعتقدت أنها قد ذهبت مع الآخرين.

خرجنا إلى القاعة، على الرغم من أنني ما زلت أشعر بنظرة ويل المستمرة نحوي، فلم أجرؤ على النظر إليه، واستمرّت أصوات الخطوات في الوصول إلينا وهي تقترب منا، ثم سمعنا السيدة مايريد تخاطب أحدهم قائلة:

-كيف تفعلين ذلك؟ فيم فكرتِ ولماذا؟

ثم جاء صوت بيتسي تقول:

-أردت فقط أن...

تسللت أنا وويل إلى أسفل السلم، في الواقع، بعد طابق ونصف، لاحت الاثنتان، كانتا تقفان أمام باب غرفة نوم جدتي، الآن ألقيت نظرة خاطفة على ويل ثم قلت بلا صوت، بحركة الشفاه فقط:

-لماذا؟

هزَّ كتفيه بمعنى أنه لا يعرف شيئًا، في محاولة لتجنب أي ضوضاء، جثونا على الدرج وحدّقنا من بين قضبان الدرابزين.

كانت جدتي تقف أمام بيتسي وهي تحدّق فيها:

-هل أردتِ أن تفضحيها؟

هزت بيتسي رأسها نافية بعنف وكان ظهرها مقابلًا لنا:

-لا! فكرت إذا كان الجميع سيفكر...

-هراء، لقد كنا قد اتفقنا من قبل، أليس كذلك؟ علاوة على ذلك، لا أحب الطريقة التي تتحدثين بها عن حفيدتي.

قالت بيتسي:

-إنها متهورة.

-إنها قافزة في الكتب مثلك، بل إنها موهوبة أيضًا.

-إنها تنشقّ عن القواعد.

-هذا يكفي الآن.

تنهّدت بيتسي وقالت بوضوح:

-أودّ أن أكفّ عن مساعدة لينوكس.

شعرت بالدهشة من الحوار بينها واصلت بيتسي:

-ولا يزال بإمكان المرء أن يقلق، ماذا لو اكتشفت...

رفعت السيدة مايريد يدها فجأة وأشارت إليها أن تصمت، ثم رفعت بصرها إلى أعلى، فانزلقنا أنا وويل بسرعة أعمق في الظل.

همست بيتسي:

-ما هذا؟

-ظننت أنني قد سمعت شيئًا، تعالي معي.

دفعت جدتي بيتسي إلى غرفتها واختفتا فيها، أُغلق الباب من

وراءهما وكان هناك صوت عقب الإغلاق بالمفتاح.

همستُ:

-يبدو أن لديهما شيئًا ما كبيرًا تخفيانه، أخبرتكَ أنه يجب أن نراقب بيتسي.

تجهَّم ويل بلا ردّ، وفكّرت أنني ربما عليَّ مراقبة السيدة أيضًا.

في هذه الليلة رأى ويل حلمًا غريبًا.

لقد عاد إلى مكتب شيرلوك في شارع بيكر، وخارج النافذة كان ظلام الليل حالكًا، ومع ذلك، أخذ ويل العدسة المكبرة من مكتبه، كما كان يحب أن يفعل عندما كان طفلًا. يده تحتضن المقبض الأملس بشغف، شغف مألوف، أدار العدسة إلى الأمام وإلى الخلف، وعلى الرغم من أن الشمس لم تكن مشرقة، فقد ظهرت نقطة خرافية على السقف المصنوع من الجص الأبيض، كانت نقطة كبيرة ومشرقة، خضراء وحمراء ومشرقة، كانت آيمي.

آيمي في فستانها الأخضر الخيالي، كان شعرها الطويل يتساقط من أسفل ظهرها وكتفيها، وبريق عينيها يضيء المكان، كانت تبدو تحت الأغطية كما لو أنّها أكثر الأشياء طبيعية في العالم، ابتسمت وفي الوقت نفسه بدت وكأنها خائفة.

سألها ويل:

-ما هذا؟ مِمَّ أنت خائفة هكذا؟ لن أتركك تسقطين.

الجنية آيمي لم تجب، اصطدمت تنورتها المصنوعة من التول بالثريا.

قالت بيتسي:

-إنها تريد أن تكون غير مرئية.

استدار ورأى بيتسي تجلس على أحد الكراسي وذراعاها أمام المدفأة، كانت ترتدي معطفًا طويلًا بغطاء رأس وكانت تحك رأس كلب باسكرفيل، وقالت:

-إنه لشرف عظيم أن أكون جزءًا من أسرة ماكاليستر، شرف عظيم، عليكَ أن تنسى آيمي.

أجاب غاضبًا:

-إنها تحتاج إلى مساعدتي.

أدار العدسة المكبرة إلى الأمام والخلف فأصبحت آيمي تطفو على طول الجدران. قامت بحركات السباحة للمضي قدمًا.

قال ويل:

-آيمي وعالم الكتب، كلاهما يحتاج إلى مساعدتي.

سحبت بيتسي الغطاء إلى وجهها حتى سقطت الظلال على ملامحها وقالت:

-والآن أنا غير مرئية أيضًا.

أراد ويل أن يخبرها أنه لا يزال قادرًا على رؤيتها، لكن الباب انفتح الآن ودخل هولمز، كان يرتدي بدلته المنقوشة والغليون في زاوية فمه وهو يتمتم:

-ماذا من المفترض أن يكون ذلك؟

ثم أمال رأسه للنظر في اتجاه آيمي، كانت آيمي تطفو لتوّها فوق إحدى الستائر الثقيلة.

رفع ويل العدسة المكبرة، وقال:

-لا شيء، مجرد شخصية خرافية، كما كانت من قبل.

سأل هولمز، متّجهًا إلى المقعد الثاني:

-كما كانت من قبل؟

وفجأة تبلّلت بدلته، وعلقت الطحالب في شعره.

قال هولمز بصوت أجش:

-لا شيء كما كان من قبل.

بدا شاحبًا، ومتضخّم الجسد جدًّا.

-لا شيء على الإطلاق.

سأله ويل ملتاعًا:

-ماذا حدث؟ ألست على ما يرام؟

ولكن في تلك اللحظة انطفأت نظرة المحقق الرئيس بصمت، وظلّت عيناه ساكنتين محدِّقتين في الفضاء.

ثم بدأ ويل يرى الدم.

كانت السجادة قد أصبحت مبللة بالدماء فعلاً، دماء سميكة وثقيلة وحمراء قانية، أصبح الدم في كل مكان، تدفّق من صدر هولمز؛ لأنه كان مثقوبًا، وما كان ينبغي ذلك، تدفّق على بطن هولمز وفخذه، وقَطَرَ من ركبتيه.

كان هناك خنجر مغروس في صدره، كان خنجرًا باردًا وفضّيًّا تتلألأ على مقبضه جواهر تبدو ثمينة.

أسقط ويل من يده العدسة المكبرة، هبط على السجادة المبللة محدثًا صوت ارتطام قوي بالأرض، ثم تناثر الدم على كاحل ويل.

همس أحدهم:

-الوحش... إنه الوحش!

دار ويل حول نفسه، لكنه لم يكن يعرف من أي اتجاه جاءت الكلمات، كان وجه بيتسي لا يزال في الظل، وماذا عن آيمي؟

اختفت الجنية الطائرة تحت الأغطية.

طارد الفارس الوحش.

بهدوء، بهدوء شديد، بهدوء تام.

(11)

طفلة المستنقع

أخبرني جلين في صباح اليوم التالي مع بداية المحاضرة:

-كنت سأطلب منكِ إحصاء عدد القردة في كتاب الأدغال لهذا اليوم؛ للتأكد من أن الجميع ما زالوا هناك وبخير، لكن الآن أفترض أن عليّ أن أوفر جهودي ولا أكلفك بأي مهام؛ لأنكِ على كل حال لن تهتمي بتنفيذها.

بدا الأمر أشبه ببيان أكثر منه اتهامًا، كان وجه جلين ذو الندوب ما يزال صارمًا بلا تعبير، والنظرة في عينيه حازمة لا تتغير، من الصعب القول إذا ما كان يوافق على مطاردة اللص الآن أم لا يزال يعتقد أنني أتخيل كل هذه الأحداث.

قال أخيرًا لبيتسي ولي:

-اقفزا ببساطة دون مهام.

وهذا بالضبط ما قمنا به.

بينما كان ويل يفحص ممرّ الدائرة الحجرية المكسور، اختفت بيتسي كما هو الحال دائمًا في مجموعة القصص الخيالية، ومع ذلك، سرعان ما انتهى بي المطاف في كتاب الأدغال، حيث أخبرني شيرخان أن فيرتير

لن يتمكن للأسف من مرافقتي اليوم، يبدو أن بعض مهامه الفعلية في عالم الكتب قد تُركت في الأيام القليلة الماضية، وقد أراد أن يعتني بها اليوم: الوقوع في الحب على نحوٍ بائس، على سبيل المثال، أو أن عليه أن ينتحر، شيء من هذا القبيل.

لذلك شرعت في مهمتي مع النمر بمفردنا، في البداية، صباحًا ركّزنا جهودنا على أن نجوب قصة دون كيشوت، ثم في فترة ما بعد الظهر، عندما قفزت من غرفتي، ذهبنا إلى رائعة شكسبير سونيت، وبين السطور حاولنا أن نسترق السمع لالتقاط الأفكار المفقودة، ولكن للأسف لم تكلل جهودنا بنجاح، إما أن اللص أصبح أكثر ذكاءً أو أنّه أخذ استراحة...

في وقت متأخر من المساء، زحفت أخيرًا تحت غطائي في العالم الخارجي، وكنت محبطةً للغاية، في الواقع، كنت قد خطَّطت للقفز مرة أخرى قبل الذهاب إلى الفراش، لكن فجأة شعرت أنني قد لا أذهب إلى أبعد من ذلك؛ لأنه حتى لو ظهر اللص مرة أخرى وعاود نشاطه، كانت هناك فرصة ضئيلة لأن أكون في القصة المناسبة. منذ الأمس وأنا مصمّمة أكثر من أي وقت مضى على منعه! في الواقع، بعد أن قال ويل إنه سيساعدني من الآن فصاعدًا، اعتقدت أنه سيكون سهلًا، لكن بالطبع لن يستطيع تقديم المساعدة دون أن يقفز، هكذا فكرت.

لفترة من الوقت تقلبت في سريري، لقد كان منتصف الليل بالفعل قد حل حين جاء الوقت الذي أدركت فيه أخيرًا ما يمكنني

فعله، تأوّهت من الإحباط وصفعت جبهتي، كان الحل بسيطًا حتى إنني لم أصدّق أنه لم يخطر ببالي قبل ذلك.

ارتديت سترتي وحذائي وتسللت عبر ممّرات منزل لينوكس، أحدث الباب الأمامي صريرًا حاولت إخفاته عندما فتحته تأهّبًا للخروج، ونجحت في ترك كل شيء هادئًا في المنزل، عبرت الحديقة بسرعة ، حيث كان سياجها الهندسي يراقبني في صمت، ثم خرجت إلى المستنقع.

عُلق القمر مثل منجل ضيّق في السماء وغمر الشجيرات والأعشاب بوميض شبحي، هبَّ هواء الليل باردًا وتسلل من خلال أفكاري وعبْر رائحة مزجت بين التراب المتعفّن الرطب وبين ملح البحر، أثناء ذلك جاءت قعقعة الأمواج المتكسرة على المنحدرات، كان المستنقع ينخفض ويثور تحتي مع كل خطوة أخطوها فيه، بدا الأمر وكأنه تنهّدات صغيرة، كما لو كان محبطًا لأنه اضطر إلى إطلاق سراحي مرة أخرى دون أن أسقط في أعماقه، لكن كان من غير الوارد أن أضلّ طريقي، بعد كل شيء كان لدي خطة أخيرًا، وكلما طالت مدة سيري على الطريق، بدت لي هذه الخطة أكثر إبداعًا، بسيطة ولكنها بارعة.

عندما وصلت إلى كوخ ويل بعد نصف ساعة، كنت قد نسيت تقريبًا إحباطي، طرقت عدة مرّات بحثًا عن شيء ما في الداخل، ورحت أنتقل أثناء وقفتي بفارغ الصبر من قدم إلى أخرى بينما كان الجانب الآخر من الباب وكأن الفراغ يغلقه لا أكثر. أخيرًا، ظهر ضوء خلف لوح النافذة المتسخ،

فتح ويل الباب.

كان يرتدي قميصًا وتبّنًا قصيرًا، وكان شعره يبرز من رأسه أكثر حدة من المعتاد، كان يرتدي جوربًا قديمًا في إحدى قدميه ويمسك الآخر بيده، رمش في وجهي وهو شبه نائم وغمغم:

-آيمي! ماذا حدث؟

شرحت بسرعة:

-لدي فكرة أودت إخبارك بها.

هذه المرة كنت أنا الشخص الذي لم أستطع أن أرفع عيني عنه، فسألني وهو يسحب الجورب الثاني:

-ألا يمكن أن ينتظر ذلك حتى الغد؟

هززت رأسي نافية وقلت:

-أردتَ مساعدتي، أليس كذلك؟ تعال، سنقبض على بيتسي متلبسة بالجرم.

عبس وأجابني:

-لذا إذا كنتِ تعتقدين أنني سوف...

قاطعته بكلمات متسارعة:

-لا ليس عليك أن تقفز أيضًا، لكن يجب أن ترتدي شيئًا أكثر دفئًا.

أشرت إلى ركبتيه العاريتين وشعرت بأن وجهي يسخن من الخجل.

ابتسم ابتسامة عريضة وبحث للحظة وكأنه يريد الرد، ولكن بعد

ذلك أومأ برأسه واختفى مرة أخرى في الكوخ، قضمت شفتي السفلية بينما كنت أنتظر في الخارج حتى خرج ويل أخيرًا من الباب مرة أخرى وهو يرتدي ملابسه كاملة.

قال وهو يدور حول نفسه:

-تمّت الموافقة على الزّيّ؟

بعد ذلك بوقت قصير شققنا طريقنا إلى الدائرة الحجرية التي كانت منصوبة بهدوء وهي خالية من البشر على قمة التل عندما وصلنا إلى هناك، جثمنا بين بضع شجيرات حتى نتمكن من رؤية بوّابة عالم الكتب جيدًا، لكن لا يمكن لأي أحد قادم منها أن يرانا، ثم انتظرنا، لقد انتظرنا في الواقع وقتًا طويلًا.

في البداية كنّا صامتين ونحن ننظر باهتمام في جميع الاتجاهات مع كل صوت أو نقرة يسبّبها الهواء، لكن مع مرور الوقت، أصبح الليل أكثر برودة وأكثر قتامة وغرابة، لمست قدمي فألفيتها تتجمّد.

أعطاني ويل سترته واقتربنا قليلًا بعضنا من بعض.

ارتجفت وأنا أقول:

-أنا واثقة.. متأكدة.. أنها.. قادمة.

وضع ويل رأسه بين يديه وهمس:

-ما زلت لا أستطيع أن أتخيل بيتسي وهي تقفز سرًّا، وأنا بالتأكيد لا أعتقد أنها تسرق الأفكار، أعني لماذا تفعل ذلك؟

سألته:

-لماذا يسرق أحد الأفكار من الكتب أساسًا؟

-نعم، حسنًا، الأمر في حدّ ذاته سخيف، لكن بيتسي؟ لقد نشأنا معًا، وعرفتها عمليًّا طوال حياتي، أوافقكِ الرأي في أنها يمكن أن تكون عنيفة في بعض الأحيان، وهي لا تحبك أنت خاصّة، لكنها تحبّ الأدب، إنها قافزة في الكتب بالجسد والروح، لماذا تشكّين فيها من بين كل الناس؟

أطلقت زفيرًا عميقًا وأنا أقول:

-لا يوجد سوى عدد قليل من القافزين في الكتب، وإذا كان أحدهم من ستر ومساي...

-ربما تكون شخصية أدبيّة مصابة بجنون العظمة.

-يقول شيرخان إن للّصّ رائحة تماثل رائحة جزيرتنا، بالإضافة إلى ذلك أصبح من المؤكد أن هناك من يستخدم البوابة ليلًا للقفز، إلى جانب الحوار المريب مع السيدة مايريد في بئر السلم الليلة الماضية... أليس هذا كله غريبًا، أليس كذلك؟

تنهّد ويل وتمتم:

-بيتسي ليس لديها دافع.

جعّدت أنفي دون رغبة في الردّ، لأنه على الأقل كان علي أن أتفق معه في هذه النقطة، على أي حال، لم أستطع التفكير في أي شيء.

قال ويل:

-كانت هناك علامات على القوس، بالمناسبة، أعتقد أن شخصًا ما

استخدم نوعًا من الروافع ليدحرج الصخور، نظرت إلى الحجرين المتبقين في القوس، بدوا ثقيلين على نحوٍ لا يصدّق، القطع التي تحدّت الرياح والطقس لعدة قرون، هل بيتسي قوية بما يكفي لتحريك شيء كهذا؟

ثم زفر ويل زفرة حارة فقلت:

-حسنًا، حسنًا.

وقررت أن أترك النقاش حول الموضوع في الوقت الحالي وأخذت أقترب من سترته، التي كانت تفوح منها رائحة هواء البحر المالح ومسحوق الغسيل الذي يستخدمه ويل.

شاهدنا السماء المرصعة بالنجوم فوقنا، تتلألأ الملايين والملايين من النقاط الصغيرة هناك في الظلام، حاولت ألا أفكر في المسافة التي لم تعد تفصل بيننا، أنا وويل، وفي تلامُس أكتافنا، وكيف كانت ركبتي على فخذه، لاحظت أن ويل ينظر إلى شعري بين الحين والآخر عندما يعتقد أنني لن ألاحظ...

قلت أخيرًا لأن الصمت جعلني أشعر بالتوتر فجأة.

-بالمناسبة، رأيت شخصًا ما يتسلل في أرجاء حديقة منزل لينوكس الليلة الماضية.

نظل إليّ ويل وسألني:

-شخص ما مقنّع وهو يلبس معطفًا؟

هززت كتفي نافية وقلت:

-نزلت لأرى، لكن كان بروك فقط.

-بروك؟

-كان يعدّ الحصى في طريقه.

-بروك من الممكن أن يكون قويًّا بما يكفي لتحريك أحد الأحجار.

-إن بروك لقيط.

ثم فكرت ماذا لو لم يكن لقيطًا؟ ماذا لو كان والده أو والدته ينتمي إلى إحدى العائلتين وتركه؟ هل كان هذا التفكير غريبًا جدًّا؟ فقلت:

-هل يمكن أن يكون بروك قافزًا في الـ...

استوقفني ويل واضعًا إصبعًا على شفتيه، وأشار باليد الأخرى إلى إحدى الشجيرات على الحافة المقابلة للدائرة الحجرية.

في الواقع، كان شيء ما يتحرّك هناك.

شيء بشري.

تسلل شخص عبر الظلال وخطا الآن بين الأقواس الحجرية، كان الشخص يلبس رداء طويلًا وسقط شعره على وجهه كالستارة، كان حجم ذلك الشخص صغيرًا، لم يكن هذا الشخص بيتسي على أي حال.

وفي هذه اللحظة أدار ظهره لنا وجلس تحت إحدى البوابات، في يديه كان يحمل شيئًا بالكاد أطول من إصبع يد، بدا وكأنه قطعة من عمود فقري قديم.

وقفنا أنا وويل سريعًا، وانزلقنا نحوه بصمت، لم نكن مرئيَّين

بالنسبة إليه حتى أصبحنا خلفه مباشرة فازدرد ويل لعابه محدثًا صوتًا جعل الشخص يستدير حول نفسه متطلعًا.

كان وجهه ضيّقًا وأنفه مدبّبًا، والشعر الطويل القذر يصل إلى فخذيه، وقد تخللته النباتات والطحالب وأوراق أشجار عفنة، اليدان الصغيرتان اللّتان كانتا تحشوان شيئًا ما وتخفيانه في كيس على عجل كانتا أصغر حتى من نصف حجم يدي تقريبًا.

لقد كانت طفلةً صغيرة.

طفلة تحدّق فينا بعيون واسعة.

نظر بعضنا إلى بعض لبرهة في دهشة متفاجئين من الموقف، من تكون هذه الصغيرة؟ ومن أين أتت بالضبط؟ ماذا كانت تفعل هنا في منتصف الليل؟ ولكن قبل أن أتمكن من طرح أي من هذه الأسئلة، خرجت الطفلة من صدمتها والتفتت إلى الجانب الآخر وبدأت في الركض السريع.

انطلقت بخفة شديدة مثل الأرنب أثناء الجري، واندفعت إلى أسفل التل وخرجت إلى المستنقع.

سارعنا بعد ذلك في العدو وراءها، لكن الصغيرة كانت ذكية، فقد انطلقت في خطوط متعرجة، لكن حاولنا ألا نفلتها، ركضت بأسرع ما يمكن حتى سمعت دقات قلبي في أذني، ومع ذلك، في مرحلة ما، تخلفت عن ويل والطفلة وصارا يركضان أمامي بمسافة أكبر.

كان المستنقع عريضًا، لكن كلما طالت مدة الجري، بدت لي الشجيرات والمسارات مألوفة أكثر، في الواقع، بعد ذلك بوقت قصير

انشق كوخ ويل من الظلام، عندما وصلت إلى هناك، أمسك ويل بالطفلة من أعلى ذراعها وكان على وشك أن يدفعها للدخول من الباب.

تعثرنا نحن الثلاثة ونحن ندلف إلى داخل الكوخ، وكان ويل يغلق الباب وراءنا.

أشعل ويل الضوء وذهلت.

كانت الطفلة تقف الآن في منتصف الغرفة، تنظر حولها كما لو كانت تأمل في اكتشاف نافذة مفتوحة يمكنها الهروب من خلالها، بالكاد استطعت رؤية أي شيء في ضوء القمر، لكنني أدركت الآن شيئًا: كانت الطفلة صغيرة الحجم للغاية وأقذر بكثير ممّا كنت أتوقعه في البداية، كان الجلد مغطى بقشور من الأوساخ الممتدة فوق عظام الخد المدببة، كانت العيون الزرقاء عميقة في تجاويفها، ولم يعد لون الفستان معروفًا، لقد كانت كل ملابسها رثة وملطخة ومنقورة حتى إنّه يمكنك رؤية جسد الطفلة النحيف يطل من أسفل، خاصة القفص الصدري والضلوع التي برزت بوضوح شديد، كانت حافة الفستان مبللة بالطين الذي أصبح يقطر على الأرض.

يبدو أن الطفلة فهمت أنها محاصرة في تلك اللحظة؛ لأنها توقفت في النهاية عن البحث عن طريق للهروب، وبدلًا من ذلك، ركّزت نظرتها علينا وواصلت زمّ شفتيها بتحدٍّ.

قلت محاولة تهدئتها:

-لا تخافي، لن نؤذيك، من أنتِ؟ ما اسمك؟

لم تُجب، وحدَّقت إلى أسفل في صمت وحفرت أصابع قدميها العارية المتسخة في السجادة.

-كيف وصلتِ إلى سترومساي؟

-كم عمرك؟

-ماذا حدث معكِ؟

التفتت الصغيرة بعيدًا، وصارت الآن تتجول عبر الغرفة، كانت يدها الصغيرة تحكّ تنجيد الأريكة، ثم وجدت علبة خبز محمّص وعلبة مربّى على رفّ بجوار النافذة ووصلت إليها.

سألتها:

-هل أنت جائعة؟

قامت الطفلة بالتقاط إحدى شرائح الخبز المحمّص ثم حاولت فتح علبة المربى، لكن الغطاء كان محكمًا جدًّا، أخذهما ويل منها وراح يجهّز شطيرة لها، كانت الطفلة تتمايل صعودًا وهبوطًا على أصابع قدميها وتراقب كل حركة من حركات يده مفتونة، بمجرّد أن انتهى، نزعت الخبز من يده وقضمته، في غضون ثوانٍ قليلة، كانت الطفلة تسحق الشطيرة في فمها.

قال ويل وهو ينثر المربّى على قطعة أخرى من الخبز المحمّص:

-هذا يعني: نعم، هي جائعة.

فكرت بصوتٍ عالٍ:

-ربما كانت لا تفهمنا.

هزّ ويل كتفيه، حاولت أن أحدثها باللغة الألمانية:

-مرحبًا اسمي آيمي، ما اسمك؟

وبينما كانت الصغيرة تلوك الشطيرة الثانية بالسرعة ذاتها، حاولت الحديث معها عن طريق قول جمل واحدة تلو الأخرى بالفرنسية والإسبانية والغيلية، ولكن دون جدوى ولم يبد على الفتاة أنها تفهمنا، وحاول معها ويل لكن الطفلة لم تستجب لذلك أيضًا، أكلتْ نصف الخبز المحمّص في وقت قياسي، ثم استلقت على الأريكة ونامت على الفور، قام ويل ببسط بطانية على الجسم الصغير، ثم جلسنا أمام الموقد نفكّر في هذا الموقف.

لفترة من الوقت كنّا نسمع زمزمة ألسنة اللهب وجرجرة الموقد الخافتة من خلف ظهورنا، ممزوجتين بشخير الطفلة، لكن في النهاية بدأنا محادثة هامسة.

سألته:

-من هذه يا تري؟ من أين هي؟ هل سقطت من سفينة غارقة ووصلت إلى الشاطئ أيضًا؟

هزّ ويل رأسه حائرًا ذهابًا وإيابًا وقال:

-من المحتمل، لكن انظري إلى ملابسها، لا بد أنها عاشت هنا في المستنقع لفترة من الوقت، ربما في أحد الكهوف القديمة في طرف الجزيرة الشمالي.

نظرت إلى الوجه الهزيل وغمغمت:

-ولكن من هي؟ أنا... هي مجرد طفلة كما ترى، ربما تبلغ من العمر تسع سنوات أو شيئًا من هذا القبيل، كيف وصلت إلى هنا؟ لماذا تختبئ؟

-لا أستطيع أن أحدس.

ارتفع صوت الشخير، أدارت الطفلة بطنها أثناء نومها وكانت إحدى ذراعيها تتدلى من الأريكة. قضمت شفتي السفلى.

بدأت أخيرًا في تجميع أفكاري قائلة:

-هل يمكنها أن... هل يمكن أن تكون آتية من عالم الكتب؟ ربما أحضرتها بيتسي إلى هنا والآن لا تريد العودة و...

-إذا كانت شخصية في كتاب، فأجزم أنها ستفضّل العودة إلى قصّتها بدلًا من الموت جوعًا هنا، أليس كذلك؟

فكّرت في كلامه وقلت:

-امم، على الأقل يبدو أنها تخشى شيئًا ما.

أضاف ويل المزيد من الخشب إلى المدفئة، أسندت رأسي على ركبتي المثنية وتركت النار تدفئ رقبتي، هدأني شخير الطفلة المستمر بانتظام، تسلل صوت ويل وهو يتمتم بشيء عن شخصية في المستنقع وعن الوحش، كان الصوت يتباعد، هل قال حقًّا الوحوش؟ أردت أن أسأله عمّا يعنيه، لكن عيني راحت تنغلق رغمًا عني.

أيقظني البرد، أول شيء رأيته عندما رمشت في ضوء الصباح الخافت كان قاع طاولة القهوة، كان ظهري يؤلمني لأنني نمت وأنا

جالسة ولا بد أنني سقطت على نحوٍ غريب على السجادة أثناء الليل. شعرت بطنين في رأسي، ثم وقفت على قدمي ووجدت أنني كنت أتجمّد ليس فقط بسبب انطفاء الموقد، ولكن أيضًا بسبب هبوب ريح باردة داخل الكوخ.

ثم لاحظت أنّ الباب الذي قام ويل البارحة بإغلاقه جيّدًا بالفعل، قد كان مفتوحًا على مصراعيه.

كانت الأريكة فارغة.

درت حولها ورأيت ويل بعيدًا قليلًا، كان قد قضّى الليل أيضًا على الأرض وكان مستغرقًا في النوم تمامًا، لكن الطفلة قد رحلت.

أصبحت عند الباب في قفزة واحدة، كان المفتاح بالداخل، لا بد أن الصغيرة قد سرقته من جيب ويل.

سأل ويل بصوت ناعس:

-ما الذي يحدث؟

صرختُ:

-لقد هربت!

قلت ذلك وأنا أحاول النظر خارجًا، لكن لم يكن هناك مكان يمكن رؤيتها فيه.

سألني ويل وقد أصبح فورًا بجواري في الخارج:

-هربت حقًّا؟!

أومأت بالإيجاب يائسة.

كانت السماء زرقاء وقد عُلقت خصلات من الضباب فوق المستنقع، تراجعت ببطء أمام النهار، وحيث تمكن شعاع الشمس من اختراقها، كانت قطرات الندى تتلألأ، ورائحة صباح الصيف منعشة وجديدة وهادئة إلى درجة أن ذكرى الظلام والطفلة الصامتة بدت لي فجأة غير واقعية، هل كانت هناك فتاة صغيرة قذرة تتجول في الجزيرة؟ أم هل كان هذا الشخص النحيف على الأريكة مجرّد جزء من حلم؟

كنت سأحب أن أصدّق ذلك، لكن آثار الأقدام في الأرض الرطبة التي ابتعدت عن الكوخ تروي قصة مختلفة.

كانت طفلة المستنقع ما تزال تشغل تفكيري عندما تسللت إلى ممّرات منزل لينوكس، من كانت هذه الصغيرة؟ ماذا أرادت من الدائرة الحجرية؟ شعرت وكأن أسئلتي يتردَّد صداها في صمت القصر وتوقظ النائمين، لكن بالطبع كان هذا هراء، لن يلاحظ أحد أنني وصلت إلى المنزل. كانت السابعة صباحًا بل ويوم السبت، وبالطبع كان الجميع لا يزالون نائمين، وكان ذلك جيدًا؛ لأنني لم أشعر بالحاجة إلى شرح من أين أتيت في ذلك الوقت.

صعدت الدرج بهدوء في اتجاه غرفتي وكنت أتطلع إلى سريري الدافئ الناعم، رحت أغلق الستائر وأسحب البطانية فوق رأسي وأسمح لنفسي بقيلولة طويلة في الصباح، كانت خطتي أن أتناول الإفطار بعد ذلك، بعد الظهر، ثم لاحقًا قد أذهب إلى ويل للبحث عن الطفلة معه، شيء في داخلي ابتهج بالفكرة وانتشر دفء عبر صدري، دفء أبهرني وفي الوقت نفسه أرعبني، أم كان ذلك إرهاقًا

فقط؟

وصلت إلى باب غرفتي ووضعت يدي على المقبض عندما سمعت وقع أقدام خلفي.

صاحت أليكسيس، وهي تصعد الدرج حاملةً شطيرة في يدها:

-رائع، لقد صعدت بالفعل، كنت على وشك إيقاظك.

سألتها:

-ماذا؟ كيف ذلك؟ إنه يوم السبت، أليس كذلك؟

ابتسمت أليكسيس في وجهي وهي تقول:

-بالضبط، تمامًا.

رفعت حاجبي، ألمْ تلاحظ شيئًا؟

نظرت أليكسيس إلى ساعتها وتمتمت:

رائع، ممتاز، هذا يعني أنه يمكننا الذهاب على الفور، أحضري سترتك ثم تعالي ورائي، حسنًا؟ ما هذا؟ ما نوع السترة البالية التي ترتدينها؟

أدركت أنني ما زلت أرتدي سترة ويل، فتلعثمت:

-نعم نعم.

-أعلم أنك تحبّين شراء مقاس أكبر منك، لكن يمكنك العثور على أي شيء أكثر ملاءمة، أليس كذلك؟

هززت رأسي موافقة، بينما أسرعت أليكسيس الخطى من أمامي، ويبدو أنها لم تستطع الانتظار، وأخذَت السترة من غرفتي بنفسها، بعد

خمس ثوانٍ كانت تسحبني بالفعل إلى أسفل الدرج.

قمعت التثاؤب وأنا أتساءل:

-امم، إلى أين نحن ذاهبتان؟

قالت أليكسيس بحماس:

-نحن ذاهبتان في رحلة! سوف نذهب الى ليرويك، لقد قمت بالفعل بتنظيم كل شيء، يجب أن تكون مفاجأة، هل يسعدكِ ذلك؟

سألتها:

-ليرويك؟ أليس هذا في البر الرئيس؟ كيف سنصل إلى هناك؟

ضحكت أليكسيس:

-بالقارب بالطبع، وإلا فكيف إذًا!

تساءلت في داخلي عن سبب حماسها الشديد هذا، لقد جرّتني خلفها حرفيًا، إلى أسفل الدرج الذي صعدته للتو، عبر البوابة الكبيرة، ثم عبر الحديقة، ركضنا إلى القرية وهرعنا متجاوزتين متجر فينلي، كان بروك يجلس مرة أخرى على الدرج أمام منزله، قال إنه يعُدّ اليوم أميرات، كما تمنّينا له يومًا جيّدًا مع مرورنا، كانت أليكسيس هي الأولى وكنت في المركز الثاني.

قالت أليكسيس بمرح:

-من المحتمل أن يعدّنا مرة أخرى في طريق العودة.

سألتها وأنا أتخيّل نفسي أعانق وسادتي:

-متى سنعود بالتحديد؟

لم تردّ أليكسيس، أصبح الرصيف على مرمى البصر ولوَّحت لشخص ما في زورق بمحرّك صغير، في البداية ظننت أنه هو الربّان نفسه الذي أحضرنا بالفعل إلى هنا، ولكن بعد ذلك لاحظت الشعر الأشقر وهيئة الشاب.

كان ديزموند.

كان قد استبدل رداء الراهب بجينز وقميص منقوش وابتسم ابتسامة عريضة ونحن نصعد معه إلى القارب المتمايل، ومع ذلك، فقد ازدردت لعابي في توتر؛ لأنه اتضح لي أنني سأقضي اليوم مع اثنين من العشاق هما أيضًا – على الرغم من دهشتي – والداي.

التقى أليكسيس وديزموند بالتقبيل كتحية بينما كنت أتظاهر بنزع بعض الوبر من كمي، ثم بدأ ديزموند بتشغيل المحرّك وأثارت أليكسيس حوارًا عن أول نزهة عائلية، كان القارب ينزلق بالفعل في البحر المفتوح، الذي كان اليوم صديقًا أكثر من المرة السابقة، كانت المياه أكثر إشراقًا ممّا قد يتوقّعه المرء عند خطوط العرض هذه، وجعلتها الشمس تتألق، لولا الرياح الجديدة التي جعلت أنوفنا تسيل وتخللت شعر أليكسيس وشعري، جعلتني تلك الرياح أشعر وكأننا في مناخات استوائية.

استغرقت الرحلة إلى البر الرئيس ما يناهز الساعتين، وكلما ابتعدنا عن جزيرتنا، قل التفكير في الطفلة التي تعيش في المستنقع، تلاشت ذكرى الجسد النحيف القذر مع اتساع رقعة الماء الفاصلة بيننا وبين سترومساي.

بدا لي ميناء ليرويك، حيث انتهى بنا المطاف إلى إرساء القارب، صغيرًا للغاية، وكذلك كانت المدينة نفسها، ولكن بعد أسابيع من المكوث في سترومساي، شعرت وكأنها مدينة نابضة بالحياة: كان الناس في كل مكان، والمتاجر والأكشاك والمقاهي والشاطئ نفسه.

كانت ليرويك تظل صغيرةً مقارنة ببوخوم، لكن في تلك اللحظة بدت لنا أنها مزدحمة، الآن فقط أدركت أنني قد افتقدت بالفعل هذه الوتيرة المحمومة. انغمست أنا وأليكسيس في الزحام والضجيج، ورحنا نفتّش عن واجهات المتاجر ونراقب الناس من حولنا، ديزموند فقط بدا غير آمن بين كل الناس، كان يمسك بيد أليكسيس وكان دائمًا يتفاجأ عندما يمرّ شخص ما على دراجة نارية أو عندما يبدأ طفل بالبكاء، يقول بهدوء شارحًا السبب وعيناه مثبّتان على واجهة متجر مليئة بأجهزة تليفزيون البلازما:

-لم أكن هنا في الواقع منذ مائة عام تقريبًا.

قالت أليكسيس مبتسمةً في وجهه:

-ثم حان الوقت مرة أخرى لتأتي إلى هنا.

بعد عشر دقائق كنّا في متجر ملابس وسحبت أليكسيس أكثر من سترة مزركشة بألوان زاهية واحدة تلو الأخرى من كومة للسترات وقدّمتها لي قائلة:

-إنها مصنوعة من صوف الغنم الإسكتلندي، سوف تدفّئك كثيرًا.

تنهّدت وأومأت برأسي، لأنه كان من الواضح منذ فترة طويلة أنها لن تتراجع عن شراء سترة فاقعة الألوان لي أنا بالذات، قرّرت فقط

ألاّ أرتديها. بدا أنها تتبع التكتيك ذاته مع ديزموند عندما ضغطت على عينه بغطاء واق من المطر أصفر لامع فغمغم فقط بشيء ما حول رداء الراهب، الذي كان بالفعل رادًّا للماء، لكنه أخذ الكيس منها بعد ذلك على كل حال.

مع اقتراب الظهيرة ذهبنا إلى محل لبيع الكتب حيث اشترى الناس العاديون كتبًا عادية لقراءتها. في قسم كتب الأطفال لاحظت وجود نسخة مصورة من كتاب الأدغال، وفجأة تراءت لي سترومساي وعالم الكتب وكأنه حلم بالنسبة إلي، حلم جميل من شأنه أن يضرّك الاستيقاظ منه.

أدرت ظهري لكتب الأطفال، كانت أليكسيس قد حصلت للتو على كتاب طبخ جديد يحتوي على وصفات نباتية، وكان ديزموند قد توقف أمام رفّ به شِعر القرون الوسطى ونظر إلى الكتب بحزن، في هذه الأثناء، كانت سيدة مسنّة تلوّح بنسخة من الكبرياء والتحامل أمام أنف البائعة، وشرحت لها وهي تزمجر بغضب أنها تتذكر أنّ القصة تسير على نحوٍ مختلف وأن ساق إليزابيث بينيت المكسورة هي أمر جديد على الأحداث المفتعلة حتمًا في هذه النسخة، ازدردت لعابي متوترة.

قالت أليكسيس عندما خرجتْ أخيرًا من آلة تسجيل المدفوعات النقدية وأخرجت قائمة التسوق:

-حسنًا، الآن إلى متجر المنتجات العضوية؟

كان ديزموند لا يزال يبحث في كتب الشعر، ولا يبدو أنه سمعها

على الإطلاق، تثاءبتُ ثم سألتُ:

-أو نشرب بعض القهوة؟

لأنني في الواقع كنت متعبة للغاية وجرعة سريعة جيدة من الكافيين هي فقط ما سيمنعني من النوم في البار.

أومأت أليكسيس موافقة، ثم انفصلنا.

لذا بينما كانت أليكسيس تبحث عن شامبو قابل للتحلل الحيوي وتطّلع على مكونات نباتية، جلست أنا وديزموند إلى مائدة مستديرة صغيرة جدًّا أمام منزل أحمر صغير به درج منحنٍ، طلبت لنفسي فنجانين من القهوة وكوب إسبريسو كبيرًا، لكنني أسقطته من يدي على الفور.

كان أحد الموسيقيين في الشارع يقف أمام المنزل، يعزف الجاز على آلة الساكسفون، كانت الموسيقى هي التي أخرجت ديزموند أخيرًا من تأمّلاته، فجأة ابتسم وقال:

-رقصنا أنا وأمّك على هذه الأغنية في عيد ميلادها السادس عشر.

-حقًّا؟

دارت نسخة أصغر سنًّا من أليكسيس بين ذراعيه في ذهني، طار وراءها ذيل الحصان الملفوف على شاكلته شعرها الأحمر ، ضحك الاثنان.

أومأ ديزموند برأسه، وبدا وكأن الفيلم نفسه كان يُعرض في رأسه، بعد ذلك مباشرة، دفعت المرارة الابتسامة عن وجهه وحل

الحزن محلها مرة أخرى، هل كانت السنوات التي انفصل فيها عن أليكسيس هي السبب أم شيء آخر؟ فكرت في النظرة التي كانت على وجهه حينما كنّا في المكتبة وسألته:

-هل من الصعب عليك أن تكون هنا؟

ازدرد لعابه وقال:

-حسنًا، أنا لست معتادًا على الوجود في مكان فيه الكثير من الناس.

-هذا ليس ما قصدته بالتحديد.

وضع ديزموند ذقنه على يديه وتردد لحظة ثم قال ببطء:

-أنا لا أنتمي إلى العالم الخارجي، أنا لا أنسجم هنا ولن يتغير ذلك أبدًا، ولكن ما زلت...

-ومع ذلك أحيانًا تكون سعيدًا هنا؟

حدّق في قهوته وهو يغمغم:

-ليس بالضبط، لكنني تقبلت ما حدث.. وأنا ممتنّ لأنني قابلت أليكسيس، هي حبي الكبير، بالمناسبة أنت تشبهينها كثيرًا.

قلت ساخرة:

-لا أعتقد أنني أشبهها على الإطلاق.

نظر إليَّ:

-كلا، صدّقيني.

ارتجفت زوايا فمه عدة مرات قبل المتابعة، كما لو كان يتساءل عمّا

إذا كان ينبغي حقًّا نطق الجملة التالية، تمتم أخيرًا:

-لم يكن بإمكاني أن أصبح أبًا في عالم الكتب، لأكون صادقًا، لا أصدّق أن لدي ابنة رائعة مثلك.

نظرت إلى أسفل، لكنني شعرت بشيء يرتعش في صدري، مهما كانت الظروف غريبة، كان من الجيد أن يكون لديك أب.

كان عازف الجاز يتجول مرتديًا قبّعة فقام ديزموند بوضع بعض العملات المعدنية فيها أثناء مروره بطاولتنا.

قلت وأنا أفكر في السيد والسيدة بينيت وبناتهما الخمس:

-هناك شخصيات في عالم الكتب لديها أطفال.

قال ديزموند:

-بالطبع أعرف ذلك، إذا كان هذا ما تمليه الأحداث وموجودا في القصة.

-ألم يكن في قصتك أنك ستنجب؟

-لا.

-كنت فارسًا، أليس كذلك؟

-أجل، بالضبط.

-هل كنت سعيدًا؟

تنهّد وقال:

-نعم ولا في الوقت ذاته، لقد تمكنت من هزم الوحش، لكن... كان ذلك...

أغمض عينيه للحظة ثم قال بتردّد:

-في القصة كان على الفارس أن يموت في النهاية وكان... لم يكن موتًا لطيفًا.

اهتز كوبي عندما وضعته بقوة على الصحن المرفق به، همست:

-هل قُتلت؟

لم يردّ ديزموند، بدلًا من ذلك، أنهى آخر فنجان من قهوته، وهمَّ واقفًا، ثم لوَّح لأليكسيس، التي كانت تعبر الشارع ومعها حقيبتا تسوّق كبيرتان، كانت تتنفس بعمق عندما وصلت إلينا، لكنها أطلقت آخر نفس وتركت نفْسها تسقط على الكرسي بيننا.

سألت ديزموند باسمة:

-هل تتذكر؟

أومأت برأسها في اتجاه عازف الشارع، الذي بدا مخزونه الموسيقي محدودًا للغاية، إذ كان يعزف بالفعل الأغنية نفسها مرة أخرى.

أومأ ديزموند برأسه:

-كيف يمكن أن أنسى؟

وأخيرًا حين تمكن من مواجهة الوحش،

لم يفهم جيدًا ما رآه،

هل ما رآه لا معنى له؟

أم هو بالفعل مثلما ظن؟

المعرفة تلألأت في وعيه.

وصعقته.

ثم أشهر سلاحه عاليًا.

(12)

حلم ليلة الشتاء

في الليالي التالية، انتظرت أنا وويل عدة مرات بالقرب من الدائرة الحجرية، لكن لم نشاهد أي أحد، ولا الطفلة أيضًا، في المقابل، كان لدينا الكثير من الوقت للتحدث معًا في هذه الأمسيات، تبادلنا كتبنا المفضلة في همسات طويلة، وكانت أيدينا تتلامس أكثر فأكثر كما لو كان ذلك مصادفة، أم أنني كنت أتخيل ذلك فقط؟

بعد أيام قليلة، ظهر اللص أخيرًا مرة أخرى، وقد قام بذلك في وضح النهار، اكتشفنا أنا وفيرتير ذلك عندما كنا نسير في الصف مرة أخرى خلال إحدى القفزات التدريبيّة، لقد تحدثنا للتو إلى هرقل (الذي كان لديه زوج صندلة جديد مثبَّت هناك في خزانة ملابس الأبطال، قسم حالة الدراما القديمة) واكتشفنا أنه لا يوجد حتى الآن نقص في الوفيات المأساوية هناك؛ لذلك كان كل شيء في حالة ممتازة. عندما خرجنا إلى الشارع مرة أخرى، فجأة اندفع شيء كبير وشفاف نحونا جعلنا نُسارع بالقفز جانبًا، ولولا قفزتنا السريعة خلال ثانية، لكنّا قد دُهسنا من قِبَل المخلوق الضخم الذي سقط في

اتجاه المحبرة. بدلًا من الأرجل، تعلق خيط غريب من الدخان بالجزء السفلي من جسده، وفي نهاية هذا الخيط من الدخان علق مصباح زيت منبعج، وقد راح يهتزّ خلفه.

أطلق جنيٌّ المصباح بلكنة عربية صرخةً وقال:

-اللص! لقد سرق مدّخرات السلطان، اختلس ذهبًا وجواهر من خزانته! يا له من مدنِّس للمقدسات!

تسارعت ضربات قلبي.

سأل فيرتير:

-معذرة، عن أي سلطان تتحدث بالضبط؟

لكن جنّي المصباح كان قد هرول بالفعل من أمامنا، لحسن الحظ، كان من الواضح لي أيضًا ماهية القصة، شرحت لفيرتير بإيجاز:

-إنه من قصة علاء الدين.

وأردت سحبه معي إلى الخارج بسرعة، أخيرًا حصلنا على معلومة مهمة مرة أخرى! كان علينا الذهاب إلى مجموعة القصص العربية الخيالية ألف ليلة وليلة في أسرع وقت ممكن!

لسوء الحظ، لم يتزحزح فيرتير، بغض النظر عن مدى صعوبة شدّ كمّ قميصه المثنيّ، بدلًا من ذلك، أسند ظهره إلى واجهة متجر الملابس وأغلق عينيه، كل الألوان قد نضبت من وجهه، تمتم:

-لا، ليس مرة أخرى.

سألته وأنا لا أزال أحاول جذبه معي:

-ما الذي يحدث؟ تعال، علينا أن نسرع، ربما ستتمكن هذه المرة من القبض عليه.

لم يتحرك فيرتير بوصة واحدة، بل كان يرتجف حقًّا، صرخ:

-شيء ما يحدث، الشرّ يقترب.

قلت ملتاعة:

-كيف من فضلك؟ ماذا تقصد بذلك، شيئًا سيّئًا؟

ثم لاحظت أيضًا الرفرفة في الهواء، كانت تلك رفرفة معاطف ممزّقة ذات قبّعات، رفرفة داكنة من النوع الذي ينذر بعاصفة رعدية وشيكة. في اللحظة التالية، نزلت من السماء النساءُ العجائز الثلاث اللواتي أزعجن فيرتير في أول زيارة لي لعالم الكتب ، علمت الآن أنّهنّ كنّ ساحرات ماكبث، طُفنَ في الزقاق وهنَّ يصرُخن حاملات رائحة العفن الكريهة:

-أوه! أوه! إنها تؤلمه، أوه! أوه! الشكوى تخرج منه، أوه! أوه! الثلج كثيف، أوه! أوه! ثلج ليلة صيف.

تساءلت:

-ماذا تعني هذه الكلمات بحق السماء؟

استدارت السحرة نحوي.

قالت الساحرة الأولى، وهي تمدّ ظفرها الطويل في اتجاهي:

-أيتها الأخوات، إنها القارئة الخجول!

قالت الثانية:

-ومعها أيضًا الشاب فيرتير.

ارتجف أنفها المحدّب من الفرح عند مقابلة ضحيتها المفضّلة.

صرخت الثالثة وابتسمت ابتسامة عريضة:

-السلام عليك أيها الشاب فيرتير! ستتزوجها قريبًا!

انهار فيرتير ودفن وجهه بين يديه، ثم غمغم بصوت عالٍ:

-اذهبن بعيدًا عني.

بدأت الأولى في إعادة وصلة التعذيب:

-سوف تجد سعادتك مع...

لكنني قاطعتها قائلة:

-ماذا حدث؟ هل هناك مشكلة في حلم ليلة صيف؟

توقفت الرفرفة غير الطبيعية لملابس الساحرة.

قالت الساحرة الثالثة وأكتافها ترتخي بينما تلاشت ابتسامتها:

-نعم، لقد كان اللص الشنيع هناك، إنه لا يتوقف حتى عند أعمال شكسبير العظيم! حتى إنه سرق الصيف!

تذمرت الساحرتان الأخريان قائلتين:

-يا عزيزتي، يا عزيزتي، نقول لكِ هناك ثلج في حلم ليلة صيف!

تمتمتُ:

لكنني اعتقدت أن بيتسي قد سرقت للتو قصة علاء الدين والمصباح السحري، كيف يمكن أن يكون هناك سرقتان؟ لا يمكن

أن تكون في مكانين في الوقت نفسه، أليس كذلك؟

صرخت الساحرات، وفتحنَ أعينهن في خوف:

-يا عزيزتي، قد يكون إذًا السحرَ الأكثر سوادًا هو ما يعمل به اللص، الأكثر سوادًا من سحرنا نحن.

رفعت حاجبي قائلة:

-السحر الأسود؟ لقد آمنت بالكثير من الأشياء حتى الآن، لكن من الواضح أن السحر لم يكن من بينها. حسنًا، لا أعرف...

ثم التفتُّ إلى فيرتير:

-ما رأيك أنت؟

بعد انتهائي من جملتي فطنت إلى أنه لن يرد لأنه قد فقد الوعي، يبدو أن هذا يُفرح الساحرات؛ تركن شعورهن المسحورة تسقط على وجهه في سخرية منه، وخدشن زجاج النافذة المجاورة لأذنه بأظفارهن، ثم أسرعن بالذهاب بعيدًا.

بعد أن اهتز فيرتير مستيقظًا، سحبته إلى المحبرة وسقيته شراب الكولا، لسوء الحظ ما زلت لا أستطيع معرفة الأمر برمته، في البداية تساءلت عمّا إذا كان من الممكن ليتسي أن تقوم بنوع من الغارات السريعة وسرقة عدة قصص واحدة تلو الأخرى، لكنْ كلٌّ من جنّيّ المصباح والساحرات الذين ذهبوا أكدوا مرارًا وتكرارًا أنهم أتوا إلى هنا لإطلاق الإنذار فور رؤيتهم للسرقة في قصصهم، وبسرعة، اتفقت شخصيات الكتاب الحاضرة على أنه لا يمكن لشخص واحد أن يتصفّح الكتب الأدبية بهذه السرعة متنقلًا من الليالي العربية إلى

شكسبير.

عندما قفزت أخيرًا إلى العالم الخارجي، كنت لم أعرف بعدُ ما الذي يدور حوله اللص وكيفية التعامل معه، لكنني أدركت مرة أخرى أنني بحاجة إلى مزيد من المساعدة في عالم الكتب من ويل، المساعدة التي لم تكن عرضة لنوبات الإغماء والاكتئاب مثل التي تحدث لفيرتير.

كان ويل على العشب بجوار إحدى الصخور في الدائرة الحجرية، ويقرأ بيتر بان، وإن كان يقرؤه بالطريقة التقليدية، إلا أنه كان مستغرقًا في القصة إلى درجة أنه لم يرفع بصره حتى حين كنت أمامه مباشرة.

قلت بلا مقدمات:

-لقد عدت.

ثم أومأت برأسي وأنا أنظر إلى الكتاب الروائي المفتوح الذي وُضع وحيدًا على حصيرة في إحدى القناطر مضيفة:

-أفترض أن بيتسي ما تزال في الطريق؟

أومأ ويل برأسه وهو شارد، بدت أفكاره وكأنها تدور حول نيفرلاند.

تمتمت، وأنا أتقدم صعودًا وهبوطًا في الدائرة الحجرية:

-جيد.

كان ذلك بعد الحادية عشرة مباشرة، ولم يكن جلين هنا لمدة ساعة حتى يصطحبنا إلى المكتبة لحضور حصّة تاريخ الأدب. لفترة طويلة،

كانت هناك إشارات إلى اللص في عالم الكتب الذي لا يزال عرضة للأذى الآن، وما علينا القيام به كان واضحًا!

دون التفكير في الأمر حقًّا، جلست أمام ويل، قلت ببساطة وأنا أمسك بمرفقه وأجذبه من قدميه:

-هيا بنا.

نظر إليَّ مندهشًا وقال:

-ماذا؟ إلى أين؟

شرحت له:

إن الثلج يتساقط في حلم ليلة صيف، اللص ضرب ضربته مرّتين اليوم.

ثم فتحت كتاب الأدغال وحاولت أن أجعل ويل يرى أحد الفصول التي من خلالها يمكننا القفز، وفكرت أن علينا منع اللص بأي طريقة من استكمال مساره.

قال ويل مرة أخرى:

-ماذا الآن؟

-عليك أن تحدس ذلك وحدك، لا بد أن نحاول منعه فورًا، الآن.

عقد ويل ذراعيه على صدره، وقال بهدوء:

-أنا لم أعد أقفز يا آيمي.

استلقيت تحت البوابة وقلت له مترجية:

-لكن عليك القفز، أرجوك، أنا بحاجة إلى مساعدتك.

تنهّد ويل قائلًا:

-ليس بهذه الطريقة، لا أريد أن أصاب بالاكتئاب مرة أخرى أكثر ممّا حدث لي بعد وفاة هولمز...

قلت وأنا أطرق على الحصيرة:

-توقف عن التفكير في هولمز وتعال بجانبي، رجاء، بعد كل شيء، هذا من أجل عالم الكتب.

كرّر ويل:

-لم أعد أقفز، لقد اتخذت قراري.

-لا يمكنك فعل ذلك يا ويل، علينا أن نوقف بيتسي عمّا تفعله، علينا ذلك فحسب.

لماذا لم يفهم؟ تراكم الغضب محدثًا تقلصات في بطني خاصة حين قال:

-إلى جانب أنني قررت ألا أعاود القفز، ما زلت لا أعتقد أن بيتسي...

صرخت في وجهه:

-اللعنة! إذًا هو شخص آخر، ويل! لا يهم من هو اللص ولماذا يفعل ذلك، المهم أنه يدمّر الأدب! هل أنت غير مبالٍ بعالم الكتب؟ كل القصص التي نحبّها، ماذا لو كان بيتر بان هو التالي؟

اصطكّ فكّا ويل، وأصبحت مفاصل أصابعه بيضاء، وكان

يمسك بكتابه المفضل بشدّة.

نظرت في عينيه وقلت:

-لا يمكننا الاستمرار في الوقوف مكتوفي الأيدي، يا ويل، لم يكن هولمز ليرضى بذلك، أليس كذلك؟

بقي صامتًا.

ثلاثة من طيور النورس حلقت فوقنا، لم يكن صراخها مختلفًا عن السحرة، ولكنه كان أقل خرقًا وأكثر هدوءًا، تمامًا كما لو كانت العجائز الثلاث يطلبن منا المساعدة من بعيد بطريقة غير مباشرة. أمال ويل رأسه إلى الوراء وشاهد طيور النورس تطير دون أن ينظر إليها بتمعّن حقًّا، كانت نظرته ثابتة على نقطة في مكان ما خلف الغيوم. استطعت أن أرى كيف نجح كلامي في تحريك شيء ما بداخله، وكيف كافح نفسه، واستنتجتُ اندفاع الأمواج التي فجّرتُها والتي بدت مثل عاصفة من الأفكار وراء جبهته. بعد ذلك، وهو ما شعرت بأنه أبديّ لاحقًا، تنفّس ويل بعمق شديد، ثم قال أخيرًا بصوت حازم:

-لا، ما كان ليرضيه ذلك، معك حق، يريد هولمز منّا القبض على اللص، لا يترك هولمز مجرمًا دون أن يطارده للنهاية.

تنهّد وهو يستطرد:

-لكنني سأفعل ذلك فقط حتى نقبض عليه، بعد ذلك...

أومأت برأسي وتحرّكت إلى الجانب لكي يكون لدى ويل مساحة كافية بجواري، بدت السماء أعلى وأوسع من أي وقت مضى للحظة

عندما كنّا نضع كتفًا إلى كتف، ثم دفعت كتاب الأدغال على وجهَيْنا.

التقطَنا فيرتير حيث تركته، عند منضدة المحبرة، كانت عدة زجاجات من مشروب الكولا فارغة وتتمايل أمامه بينما كان هو يتأرجح بقلق على كرسي البار، ربما لأن عروقه كانت تحتوي على الكثير من مادة الكافيين والسكر أكثر من الدم، كيف تمكن من شرب الكثير في غيابي القصير؟

رحّب بي بمرح:

-مرحبًا، آنسة آيمي!

كان هناك وميض من الضوء في عينيه لرؤيتي، ولكن عندما رأى ويل بجانبي، تشتَّتتِ ابتسامته قليلًا.

قال ويل وهو يمدّ يده:

-أنا ويل ماكاليستر، تشرّفت بلقائك.

قال فيرتير وهو يزدرد لعابه:

-الشرف لي، نعم، حقًّا، مسرور جدًّا للقائك.

شرحت لفيرتير:

-قررت البحث عن أدلة في حلم ليلة صيف.

أومأ فيرتير برأسه مغمغمًا:

يمكنكِ الاعتماد عليَّ بالطبع، على الأقل ما دمنا لا نتحرك عبر ماكبث، أنت تعلمين أنني لا أحب هذه القصة.

لقد حاول أن يبدو غير مهتم للغاية، لكن الخوف من الساحرات

كان واضحًا جدًّا على وجهه.

سأل ويل:

-حسنًا، الأفضل أن نذهب الآن ولا نضيّع الوقت، أليس كذلك؟ بالمناسبة، أعرف طريقًا مختصرًا، حتى أنّنا لن نقترب من أي ساحرة معينة.

تطلّع فيرتير إلى ويل بنظرة فيها مزيج من الراحة وخيبة الأمل وهو يسأل:

-هل أعتبر ذلك تصريحًا بأن الشاب المحترم سيأتي معنا؟

أومأت:

-إنه قافز في الكتب مثلي، سيساعدنا من الآن فصاعدًا.

قال فيرتير وهو يمرّر يده على تقوّس شعره:

-اممممم، حسنًا.

ثم قادنا إلى خارج الحانة، عبر الخط الطولي الذي يحتوي على عدد هائل من مسرحيات شكسبير. في البداية اندهشت من تصميم ويل ومعرفته بالطرق، لكن لم يكن هناك سبب يدعو إلى الدهشة، كان ويل يفوقني خبرة بكثير، مع سنوات من التدريب كان قد تركها خلفه بقرار عدم القفز، بالطبع كان يعرف طريقه بحرفية في عالم الكتب، والآن بعد أن تغلب على نفسه وأدرك أنه يتعين عليه القفز إذا أردنا حفظ الأدب، أظهر التصميم نفسه الذي كان لديه قبل أن يرفض أن يطأ المكان بقدمه مرة أخرى.

لذلك قمت أنا وفيرتير بالتسلق بعد ويل عابرين مدنًا إيطالية وسهولاً بريطانية حتى وصلنا أخيرًا إلى سلسلة جبال تحتضن مدينة متوسّطيّة حسب مظهرها، كانت الشمس التي تكثّفت في اللون الأحمر الدموي فقط قد غرقتْ خلف الأفق وغمرت بساتين الزيتون والمعابد القديمة بنور هادئ. لسوء الحظ، لم يكن الجو دافئًا على الإطلاق، بل للأسف كان الثلج يتساقط، بدا الأمر كما لو كان الجليد الأبيض يغطي أسطح المنازل والأبراج، وكان الصقيع يتلألأ على الأعمدة الرخامية القديمة.

سأل فيرتير وهو يلفّ السترة المخملية حول صدره بإحكام:

-هل هذه أثينا؟

قال ويل:

-نعم، نحن هناك بالفعل.

لقد أخذَنا ويل إلى إحدى البوابات من خلال السحب الكثيفة المتزايدة التي تبدو واضحة من على سور المدينة ، كان هناك زوجان من العشاق يتسللون يدا بيد في الليل ويهربون إلى الغابة المجاورة، كلٌّ منهم كان يرتدي ملابس رقيقة للغاية، سألته:

-عمّ تتحدث حقيقةً قصة حلم ليلة صيف؟

هزّ ويل كتفيه قائلًا ببساطة:

-عن الحب وسحر الجان، ليساندر وهيرميا يحب كلٌّ منهما الآخر، لكن لا يمكن أن يكونا معًا بسبب والد هيرميا الذي يريدها أن تتزوج من ديمتريوس؛ لهذا السبب هربت من أثينا مع

ليساندر. هناك أيضًا هيلينا، التي تحب ديمتريوس وترغب في أن يكون لها، ثم بعد ذلك تقوم بالخيانة عن طريق إخبار ديمتريوس عن الهروب المخطط للعاشقَيْن، فيتتبّعهما ليمنعهما من الهروب، هيلينا بدورها تتبع ديمتريوس وهكذا ينتهي الأمر بالأربعة في الغابة. هناك يصبحون ضحايا سحر الجان، الذي يضمن أن كلا الرجلين يقعان في حبّ هيلينا مؤقتًا، وأن هيرميا تصبح بمفردها فجأة. حسنًا، وهناك حِرَفي يحصل على رأس حمار.

ثم أضاف:

-بينما كان شاب آخر يغادر البلدة ويهرب إلى الغابة، تبعته امرأة شابة.

ارتجف فيرتير وهو يقول ملتاعًا:

-والد هيرميا وعد شخصًا آخر غير الذي تحبّه أن يتزوجها؟ إنها قصة عن الحب التعيس؟ يا للحزن!

سألت:

-ويتعلق الأمر بالجان أيضًا في تلك القصة؟

أومأ برأسه وشرح لي:

-تدور أحداث القصة كلها عادة في ليلة صيف معتدلة؛ لذلك لا بدّ أن شخصًا ما قد سرق فكرة الصيف بلياليه الدافئة.

عقد ذراعيه فوق صدره للحظة وهو يفكّر، كنت أتوقع منه أن

يسحب عدسة مكبّرة من جيبه، أو على الأقل غليون التدخين، لكن بالطبع لم يفعل، بدلًا من ذلك، أشار ببساطة إلى حافة الغابة وتمتم:

-دعونا نبحث عن شهود، ربما يمكن لشخص ما التعرف على اللص أو على الأقل أن يعطينا فكرة ترشدنا إليه.

تركنا المدينة وراءنا ومشينا وراء العاشقين الأربعة، ومع ذلك، نظرًا لأن الثلج وصل إلى كواحلنا الآن، لم يكن الأمر بهذه السهولة فلم نحرز سوى تقدّم بطيء.

سرعان ما تبلل حذائي الرياضي وتخدّرت أصابع قدمي بسبب البرد، قدّم لي ويل سترته مرة أخرى في حين اصطكت أسنان فيرتير بسبب ذلك الطقس بصوت عالٍ حتى إنه قد يُسمع في كل أنحاء الغابة، لم نلتقِ بالعشاق، كشفت الأشجار من خلفها بعد مرور بعض الوقت عن مكان يرقص فيه الجان بفساتين مصنوعة من البتلات، ربما كانت تبدو وكأنها قصة خرافية إذ كيف لمخلوقات خيالية دقيقة هكذا ألاّ تتجمّد؛ لأنهم في الواقع كانوا يقفزون من البرد أكثر ممّا يرقصون، وكانوا يفركون أجنحتهم النابتة في ظهورهم والشبيهةَ بأجنحة الفَراش والتي كانت ترتعش بشدة، كانت أقدامهم الحافية زرقاء بالفعل وكانوا يذرفون بلورات من جليد بدلَ الدموع، وأصبح المخاط المتجّمد عالقًا تحت أنوفهم، صاحوا معًا في صوت واحد:

-ملكتنا المسكينة! فقط لو تمكّنا من إشعال النار لها!

في منتصف الحلقة، عُلقت واحدة من الأرجوحات مليئة

بالطحالب وداخلها قزمة كانت ترتدي ثوبًا مصنوعًا من خيوط العنكبوت اللامعة وتاجًا مصنوعًا من حراشف الصنوبر، كان شعرها الذهبي الطويل ملفوفًا حول كتفيها مثل عباءة، وكانت تتجمّد أيضًا كالجنّيات، بجانبها جثم قزم ذو وجه مؤذٍ، يلفّ زهرة بين أصابعه.

استقبل ويل ملكة الجان قائلًا في ترحيب:

-تيتانيا.

فتحت الجفون المرفرفة بتردّد ثم تنفّست بعمق وهي تقول:

-من أنت؟

ردّ عليها فيرتير وهو ينحني لها:

-أنا فيرتير... اسمي فيرتير.

-وأنا آيمي، أنا قارئة، نحن نبحث عن اللص الذي سرق صيفك، هل لاحظت أي شيء غير عادي اليوم؟

نهضت ملكة الجان من فراشها المصنوع من الطحالب وطارت حولنا، كانت قطرات من الندى المتجمد على أهداب عينيها تلمع، عيناها كبيرتان جدًّا وزرقاوين للغاية فلم تكن تبدو بشرية، قالت وصوتها واضح وحادّ مثل صوت الجرس:

-لا، لا، كل شيء كان كما هو الحال دائمًا، لقد نجحت بذور زهر الفاصوليا والخردل في تصفيف شعري وفجأة أصبح كل شيء باردًا بردا رهيبًا، وفي مرحلة ما انخفضت حرارة الماء الساقط علينا من السماء ووصل إلى مرحلة التجمّد، حتى إنّنا الآن لم يعد بإمكاننا

النوم، والقصة لا يمكن أن تستمر.

ثم حلقت قريبا جدًّا من ويل، حلقت حوله وتحسّست وجنته بأصابعها الدقيقة الحسّاسة وهمست له:

-إذًا أنت قارئ أيضًا؟

ازدردت لعابي متلعثمة:

-لماذا لا يمكن أن تستمر القصة؟

التفتت إليَّ ملكة الجان وحدّقت في وجهي قائلة:

-يجب أن يكون هناك الجني باك، سيضع عصير الزهرة على جفني حتى أقع في حبّ حائك رأس الحمار الذي سيكون هنا عندما أستيقظ، ولكن ما دمت لا أنام، فإن السحر لن ينجح.

قال القزم الذي يبدو شكله مؤذيًا، وكان يُدعى باك:

-ليساندر وديمتريوس يخافان أيضًا من النوم الآن، إنهما مرعوبان من فكرة التجمّد حتى الموت، ولكن عليَّ أيضًا أن أبلل عيونهما حتى يقعا في حب هيلينا.

سألته:

-لكن ما دمتم تتمتّعون بقدرات سحرية، أفلا يمكنكم أن تجعلوا الطقس أكثر دفئًا قليلًا؟

هزّ الجنّي رأسه نافيًا وهو يجيبني:

-لدينا فقط السحر المتاح الذي نستخدمه أيضًا في القصة الأصلية.

سألته:

-أوليس هناك أي شيء يمكن أن يساعد؟

نظر باك وملكة الجان كل منهما إلى الآخر، ثم قالت تيتانيا:

-حسنًا، ربما الضباب.

سأل باك:

-الضباب؟

ومضت أهدابُ عينيها المتلألئة وهي تشرح له:

-نعم، على أية حال الضباب ليس باردًا مثل الثلج.

عبس باك، ثم أومأ برأسه وبدأ يغمغم شيئًا ما عن الضباب القاتم والنجوم المغطاة والحجاب الليلي، توقف الثلج عن التساقط على الفور، أصبح كل المحيط أغمق ثم أغمق، نزلت الغيوم الداكنة على الدائرة وابتلعت المحيطين بداية من ملكة الجان وحتى رعاياها.

طرحت سؤالًا على باك:

-ألا يمكنك، امم، أن تجعل الضباب شفّافًا أو شيئًا من هذا القبيل؟

بجانبي سمعت أسنان فيرتير تصطكّ بعنف، لكنني لم أعد أستطع رؤيته بعد الآن، سألته:

-فيرتير هل أنت بخير؟

أجابني من اتجاه مختلف تمامًا عمّا كنت أتوقعه:

-آنسة آيمي هل تتحدثين إليّ؟

بدا الأمر كما لو أنه لم يعد بجواري، ولكن على بعد أمتار قليلة، في

مكان ما بين الأشجار، مددت يدي وتحسّست على يساري متوقعة أن أجد ويل، الذي كنت أعتقد أن عليه الوقوف هناك، لكنني لم أجد إلا الفراغ من حولي، ناديت بصوتٍ عالٍ:

-هل سمعني أحد؟ ويل؟ فيرتير؟ تيتانيا؟ باك؟

لم يجبني أحد.

تلعثمت وأنا أحاول التذكر:

-بذور الخردل؟ ماذا كان اسم الجني الآخر الذي ذكرته ملكة الجان؟ فاصوليا؟

ثم رحت أنادي:

-فاصوليا...

ضحك أحدهم على يميني.

درت حوله وتعثرت في عماء بضع خطوات نحو الصوت، لكن دون الاقتراب منه، ولكن الصوت أصبح خافتًا شيئًا فشيئًا.

وأخيرًا حل الصمت التام، توقّفت عن الحركة وقرّرت أن أحاول التقاط أي صوت في الظلام، ربما، كما اعتقدت، ابتلع الضباب كل الأصوات وأطلقها في أماكن مختلفة تمامًا، أم أنني فقدت وجهتي بسرعة كبيرة؟ لكن على الأقل كان الجو أكثر دفئًا في الغابة، أصبحت درجة الحرارة تشعرك الآن بأنك في الخريف أكثر منه في الشتاء، لكن، ألا يجعل الظلام الدامس من استمرار الحبكة وتواصل أحداث القصّة أمرًا صعبًا أيضًا؟ أم كان هناك نهاية للظلام

في مكان ما؟ هل بقيت أنا الوحيدة في الضباب الذي أحدثه باك؟

لكن هناك شيء ما أشعر به!

حدث شيء ما في الأدغال خلفي، صوت تكسّرٍ وكأن شخصًا ما داس على فرع.

تحلّيتُ بالحذر وأنا أحاول أن أشقّ طريقي إلى الغابة، كان شخص ما يتنفّس بين الأشجار فاقتربت ببطء من الصوت.

همست:

-ويل؟ هل هذا أنت؟ هل أنت هنا؟

قال صوت ذكوري:

-أنا لا أحبّك يا هيلينا، توقفي عن ملاحقتي أرجوكِ، أم تريدينني أن أقتلك في النهاية؟

أجاب صوت امرأة:

-أفضّل ترك يدك الحبيبة تقتلني على أن أعود، وعلى أي حال، ديمتريوس، لا تُثِر مثل هذه الجلبة، اذهب للنوم فقط حتى يتمكن باك من وضع تعويذة عليك.

قال ديمتريوس:

-هذا مستحيل، قلبي يخص هيرميا فقط، لا أريد أن أنساها أو أتجمّد حتى الموت الليلة.

تنهّدت هيلينا:

-خذ وشاحي ليدفّئك.

على بعد مسافة قليلة انتحب أحدهم من التأثر وبدا التنهّد مريبًا وقويًّا، ظننت أنه فيرتير، اعتقدت أنني قد عثرت عليه، وأردت أن أتوجه إليه، لكن بعد ذلك تحول النحيب إلى قهقهة وأصبح أكثر ملاءمة لشخص مثل باك، لقد غيَّرت الاتجاه بغضب وبسرعة كبيرة وتعثرت في طريقي بشجرة، اصطدمت جبهتي بجذعها بقوة إلى درجة أنني انحرفتُ بعيدًا بعض الشيء.

لففتُ في حركة شبه دورانية وأنا أتأوّه من الألم، وهبطت مؤخرتي على جذر صلب مقطوع، فركت جمجمتي وشعرت بانتفاخ تحت أصابعي أكبر من أيّ تورّم حصل لي على الإطلاق. حسنًا! عظيم! هذا ما كان ينقصني! الحقيقة، لا أنكر أنني كنت في الواقع خرقاء أيضًا، بل وفي الأدب أقل من العالم الخارجي! لكن ربما كان المرء يبحث عن مصيره الأسود حين يركض عبر غابة في أحلك ظلام وهو لا يرى أي شيء، شعرت بقليل من الدوار عندما وقفت على قدمي، كانت جبهتي تؤلمني. بدأت بتحسّس طريقي إلى الأمام بتركيز أكبر وحذر أشدّ، لم يعد هناك شيء يمكن سماعه من ديمتريوس وهيلينا كما خفَّتت ضحكات باك أيضًا. تجوّلتُ لفترة طويلة أعمق وأعمق في الغابة دون أن أسمع أي شيء، بدا لي أن المكان خالٍ حتى من الحيوانات، صرت أعتقد أنني الكائن الحي الوحيد في هذه الغابة، تحسست الأشجار من حولي متشككة ولكنني واصلت تحريك أطراف أصابعي على الجذوع والفروع بكل حذر.

كدت أتعثر عدة مرات لأن قدمي علقت في جذر أو بين نبات متسلق، واضطررت إلى تحرير شعري عدة مرات من الأغصان

والأشواك المتدلية.

لكن ظل الظلام هو سيد الموقف.

غلّفني ضباب باك تمامًا، كان السواد كثيفًا وغير قابل للاختراق ولم يتلاشَ ولو قليلًا رغم المسافة التي قطعتها، لم أكن أعرف أين كنت لفترة طويلة، أتُراني كنت أقترب من المدينة؟ هل سرتُ في دائرة حول نفسي أم لم يكن هناك نهاية ولا بداية؟ هل أصبح الظلام هو كل الوجود؟ بدأت أشعر بالخوف يتسرّب إلى نفسي.

أين أنا بالتحديد؟

أين ذهب كل من ويل وفيرتير؟ أين الشخصيات في هذه القصة؟ يائسةً قمت بسحب كل ما يمكنني الحصول عليه: سرخس، وحجارة، والمزيد من الفروع، لو كان بإمكاني فقط قلب الصفحة في مكان ما حيث أرى الضوء! لكن بغض النظر عن مقدار السحب والغيوم، لم يساعدني ذلك التخيل، لا يمكن قلب الصفحات، وظل الظلام يحيط بي. لماذا لم أجد حتى النقاط الأساسية لصفحات الكتاب؟ هل كنت بعيدة جدًّا عن أي مخرج؟ ألا يجب أن تبدأ قصة أخرى على الأقل في مرحلة ما؟ ألم يكن هناك مهرب؟

انتابني الهلع وسيطر عليّ الرعب الشديد.

همس صوت خافت في رأسي وكأنه يحاربني:

-أنت تائهة تمامًا، لن تجدي طريقك للخروج من هذه الغابة مرة أخرى أبدًا، ستموتين في هذا الضباب.

فكرت أنه لا، لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية، توقفت

وأجبرت نفسي على أخذ نفس عميق، قلت لنفسي إن الظلام لن يستمرّ إلى الأبد، في وقت ما سأقابل شخصًا من الآخرين وسنجد الطريق معًا، وقتها سأخرج من هذا الكتاب، كان عليّ أن أبقى هادئةً وأحتفظ برباطة جأشي، ملأت رئتيّ بهواء الغابة البارد الرطب، لكن ضربات قلبي كانت لا تزال تتسابق في عنف، تملّك الذعر قلبي وأطبق عليه بقبضة حديدية، ولم يكن من الممكن الإفلات منه.

وأخيرا رأيت شيئًا ما، فجأة وسط الظلام.

لقد كانت شفرة خنجر.

التمعت الحافة الفضية للخنجر أمامي مباشرة، وميضها اللامع أفقدني الرؤية للحظة، استنشقت الهواء بشدّة، كان السلاح القديم مرصّعًا بالجواهر وكان في يد شاحبة، لكنني لم أستطع معرفة إلى من تنتمي هذه اليد، ربما اختفت بسرعة في الظلام الدامس، ربما كانت اليد تطوف بلا جسد يحملها طوال الليل.

الشيء الوحيد الذي كان مؤكّدًا هو أن هذه اليد أصبحت تمتدّ نحوي الآن.

توهّج النصل في سواد الضباب بينما كان الخنجر يئزّ في الهواء، دفعه أحدهم نحو صدري، شخص ما كان يستهدف قلبي مباشرة، لحسن الحظ فقد فهمت كل شيء في جزء من الثانية، سمعت نفسي أصرخ، في الوقت نفسه قفزت إلى الخلف، تعثّرت بحجر، وسقطت، أخطأني النصل بملّيمترات، وللقيام بحركة الهروب هذه ضربت مؤخرة رأسي بشجرة.

للحظة اختفت حواسي كليًّا.

عندما عدت لاستجماع شتات نفسي، كان الخنجر واليد الشاحبة التي كانت تمسك به قد ذهبا، أغلقت جفوني وفتحتها عدة مرات، كان السواد مثاليًّا مرة أخرى، غلَّفني تمامًا، لا تشوبه شائبة وبدا لي ثقيلًا للغاية، بقيت جالسة وأسندت ظهري إلى الجذع، كان جسمي كله يرتجف.

استمعت باهتمام إلى أي صوت قد يصدر في الظلام.

هل أصبحت وحدي مرة أخرى؟

همس الصوت اللئيم في رأسي:

-ستموتين في هذه الغابة، ألا ترين أنكِ ستموتين وسينتهي الأمر كما أخبرتكِ من قبل؟ إنها مسألة وقت لا أكثر ولا أقل.

اندفعت الدموع من زوايا عينيَّ وسالتْ على وجنتيَّ، لكنني لم أمسحهما، ربما كانت مسألة وقت فقط قبل أن يجدني من هاجمني للتوّ ويحاول طعني مرة أخرى، هذا ما اعتقدته، ثم سمعت خطًى، كنت أعلم أنني يجب أن أهرب، لكن جسدي كان مشلولًا، لم يكن بإمكاني فعل شيء سوى الجلوس هناك.

كان أحدهم هنا، قريبًا جدًّا مني، بل بجواري تماما.

حبست أنفاسي.

-آيمي؟ آيمي أين أنت؟ هل كنتِ أنتِ من صرخت هكذا؟

كان هذا بالتأكيد صوت ويل ثم أضاف:

-هل كل شيء على ما يرام؟ آيمي؟

ويل فعلًا! وصلتني الإغاثة أخيرًا، تنفّست الصعداء، تمتمت بصعوبة:

-أنا هنا.

-آيمي؟

-ويل؟

اقترب مني ويل ثم لمس كتفي بيده، وتحسَّس بأصابعه منبت شعري وأسفل أذني حتى ذقني.مكتبة .. سُر مَن قرأ

شعرت به يجلس بجواري وهو يسألني:

-لماذا تبكين؟

تلعثمت وأنا أجيبه:

-أنا... لقد هاجمني شخص ما، كان معه خنجر.

-ماذا؟ معه خنجر؟ هل تأذيت؟

-لا، تمكنت من... تمكنت من تفاديه، ثم... فجأة ذهب مرة أخرى.

قال ويل متنهّدًا:

-الحمد لله، هل رأيتِ من كان؟ أو أين اختفى؟

-لا، يكفيني أنه رحل الآن، هل تعلم أين ذهب فيرتير أيضًا؟

-للأسف لا.

تنهّدت واستطردت:

-أنا أكره هذا الضباب، دع باك يوقفه فورًا.

قال ويل:

-قد يستغرق الأمر وقتًا، الرجل لديه الكثير من المرح سيسلّيه أثناء الضباب.

-عظيم!

ارتجفت من فكرة أنني عالقة في هذا الظلام لفترة أطول.

-هل تشعرين بالبرد؟

قال ويل ذلك وهو يحاوطني بذراعيه، ومن حسن الحظّ أن الظلام قام بدوره، فأنا لم أكن لأجرؤ على فعل ذلك في الضوء، لكنني الآن اتكأت عليه دون الكثير من التفكير. بدا الظلام وكأنه ينغلق علينا ويصبح أكثر إحكامًا، ممّا أجبرنا على أن يقتربَ كلٌّ منًّا من الآخر، كما لو كنا نريد ربط أنفسنا بالشجرة التي تسند ظهرنا. عندما استمعت إلى نبضات قلب ويل، هدأ تنفسي تدريجيًا، كان لقميص ويل رائحة المستنقع والصابون، ما شممته كان يشبه ستر ومساي وكان دليلًا على وجود الجزيرة خارج الظلام الحالك، رائحة تلك الجزيرة تماثل رائحة ويل.

تمتمت وأنا أُحكِم إغلاق السترة على جسدي:

-أنا سعيدة لأنني لم أعد عالقةً هنا بمفردي.

قال ويل:

-وأنا أيضًا. شكرا لأنكِ فتحتِ عينيّ على الحقيقة.

-ماذا تقصد؟

-كان من الصواب المجيء إلى هنا، إن كمَّ الفوضى في هذه القصّة لا يصدّق، وعلينا أن نفعل شيئًا حيال ذلك، لقد كنتِ على حق، يجب ألّا أختبئ في العالم الخارجي بعد الآن.

ثم تحرّك ويل قليلًا، أصبح وجهه فجأة قريبًا جدًّا من وجهي، قريبًا جدًّا إلى درجة أنني شعرت بأنفاسه الحارة على وجنتي، وقال:

-آيمي؟

كان هناك شيء يرفرف في صدري وقلت فقط:

-أجل!

همس:

-أعتقد أنه من الرائع أنك قد أتيتِ مع أمّك إلى سترومساي.

--حقًّا؟

كانت إجابة ويل ناعمة ودافئة أكثر ممّا تصورت، كانت أجابته على شفتيَّ كالفراشة التي تحطُّ جناحاها برفق، حتى جاء صوت:

-آنسة آيمي!

انتهت إجابة ويل فجأة، تنهّدت الرفرفة بداخلي.

قال ويل وهو يتركني:

-فيرتير.

عندها فقط لاحظت أنني كنت قد أغمضت عيني؛ لأنني عندما فتحتها، تحول الظلام إلى شفق، وكان الضباب لا يزال عالقًا بين العشب ونباتات السرخس، لكنه تراجع. يجب أن أكون قد مشيت بالفعل في دوائر، لقد عدنا أو بالأحرى ما زلنا في محاولة تطهير ملكة الجان، على الرغم من أنني لم أجد أحدًا من المخلوقات الراقصة وكل أثر لتيتانيا نفسها قد اختفى، لكن الأرجوحة المصنوعة من الطحالب كانت ما تزال هناك وظلت تتأرجح برفق ذهابًا وإيابًا.

وعليها جلس فيرتير يتمايل.

كان شعره يتدلى في تجعيدات مشوّشة وأوراق عالقة فيه وأغصان، تمزّق أحد أكمام قميصه المثنيّ وجواربه الحريرية أيضًا، نظر إلينا بشفاه ضيّقة، وتحولت نظراته إلى ويل ثم عاد لينظر إليَّ مرة أخرى، ثم أومأ ببطء، وبدا وكأنه قد عضّ ليمونة.

قال ويل:

-سعدت برؤيتك مرة أخرى.

تجعّد أنف فيرتير وقال متجاهلًا ويل:

-حسنًا، لقد بحثت عنكِ في كل مكان لحمايتك يا آنسة آيمي، هل أنت بخير؟ هل تأذيت؟

-مجرد خدش بسيط في جبهتي بعد أن اصطدمت بشجرة، الخدش تضاءل بالفعل، امم، أين الجان على أي حال؟

هزّ فيرتير كتفيه.

قال ويل وهو يميل رأسه إلى الوراء:

-لا أعرف أيضًا.

بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى، وأصبحت السماء تمطر علينا رقائق سميكة من الثلوج، تنخفض درجة الحرارة مع كل نفس بسرعة شديدة، قال ويل مقترحًا:

-دعونا نعُد إلى المدينة قبل أن يستحضر باك الضباب مرة أخرى، سنعود لاحقًا إلى هذه القصة، ربما سُرق الصيف في بداية المسرحية ويمكن أن تساعدنا الشخصيات هناك.

قلت وأنا أحاول إقناع نفسي:

-امم! على الأقل لن نتجمّد حتى الموت في محاولة لمعرفة ذلك.

نهض ويل وهو يمدّ يده ليساعدني في الوقوف على قدمي، قفز فيرتير من فوق الأرجوحة وغادرنا الغابة المسحورة. بعد ذلك بقليل مررنا عبر بوّابات أثينا.

انتظرت الأميرة عودة فارسها.

انتظرت لأيام وأيام.

فهل نسِيَها؟

(13)

مقعد شكسبير



كان الوقت متأخرًا بالفعل عندما قررت أنا وويل العودة إلى ستروماي، لقد استغرقنا ساعات لإجراء مقابلات مع جميع الشخصيات في حلم ليلة صيف، ومع ذلك، لم تتوَّج جهودنا إلا بنجاح ضئيل، فقط الحِرَفي، الذي أُعطي رأس حمار أثناء المؤامرة، أفاد أنه قبل وقت قصير من الأحداث، انطلق شخص مقنَّع عبر الغابة، ومع ذلك لم يكن متأكدًا ممّا إذا كان هو اللص بالفعل أم مجرّد قزم.

هذا الحصاد الهزيل أخافني، كنّا بحاجة ماسة إلى طريقة عمل أكثر فاعلية، ففي غياب خطة محكمة تجعل مسارنا واضحا، أدى الدخول في حلم ليلة صيف إلى خلق مزيد من الارتباك، وعوض أن أجد اللّصّ، كدت أُطعَن حتى الموت، ثم كانت هناك مسألة ويل، الذي تجنّبت النظر مباشرة إلى عينيه منذ أن تلاشى الضباب.

هل بالفعل قبّلني هناك في الظلام؟ تلامست شفاهنا لفترة وجيزة فقط... أم كان مجرّد خيال؟ أم تُراه بفعل سحر الجان الذي حوّل أكبر

عشقٍ إلى عبثٍ حتى إنّه قادر على العبث بمصير الملكة وإدخال حمار إلى رواية رومانسية؟ بدأت أرفرف مرة أخرى عندما فكّرت في مدى قربنا، ولكن في الوقت نفسه، كانت هناك ذكرى قبيحة شقّت طريقها أكثر فأكثر إلى السطح في ذهني خلال الساعات القليلة الماضية، كانت ذكرى رحلة مدرسية، أثناءها صمّم زملائي على لعب لعبة الحقيقة أو العقاب ثم...

صرخت بيتسي بمجرّد أن هبطنا على الحصيرة في الدائرة الحجرية:

-ويل أنت تقفز مرة أخرى!

في اللحظة التالية هرعت إلى ويل وغمرته بعناق حارٌ، ثم صرخت وهي تنفض الغبار عن شعره:

-عدت إلى طبيعتك! أخيرًا! كنت أعرف ذلك!

نهضتُ وذهبتُ على بعد خطوات قليلة منهما، سألني جلين:

-هل ذهبتما إلى كتاب الأدغال معًا؟

لكنني قد جفلت لأنني لم ألاحظ وجوده أصلاً، إذ كانت كل ملابسه رماديّة، ربما كان رداء الرهبان داخل دائرة حجرية رمادية هو التمويه المثالي، أجبته:

-نعم... امممم، في الواقع كنّا في حلم ليلة صيف و...

قال جلين، الذي كان جالسًا على إحدى الصخور ويحمل تُرمسًا بين ركبتيه:

-لا بأس! لا بأس!

كان بجانبه فنجانان فيهما بقايا الشاي، يبدو أنه هو وبيتسي كانا ينتظراننا منذ فترة، ابتسم وهو يقول:

-إذا تطلَّب الأمر تدخّل شكسبير شخصيًّا لكي يقفز ويل مرة أخرى، فهذا يكفيني، ولا بأس.

دندنت بيتسي وهي تمسك ويل من يديه وتحاول أن تجعله يدور معها حول نفسه:

-لقد اقتنعت، لقد اقتنعت.

على مضض، سمح ويل لها بتلك الحركات الراقصة، لكنه أغمض جفونه أمامها منهكًا، بينما بقيت عيني مثبتةً على فمه.

في ما مضى، أثناء تلك الرحلة المدرسية، وقع اختيار بول على العقاب، وأعطته تمارا مهمة واضحة، وهي تقبيل آيمي، كان الأمر سهلًا نسبيًّا، مقارنة بصديقه المقرّب توم الذي اضطر في الحُكم السابق أثناء اللعبة إلى تناول نصف أحمر شفاه. لم يكن يعنيني أبدا أن يقبِّلني بول، لكن حقيقةُ أنّ ذلك لم يحدث... كان بول قد اهتزّ من الاشمئزاز ورفض بشدة، قائلًا:

-يا للقرف! لكن هذه لا تعدّ من البشر ولا تُحسب منهم!

ثم صرخ:

-من الأفضل أن تعطيني النصف الآخر من أحمر الشفاه، من فضلك سأتناوله فورًا!

وبالطبع ضحك الآخرون وفكّروا في مهمة جديدة له ببساطة،

فتركتهم وذهبت لأنام.

تخلّت بيتسي أخيرًا عن ويل، كانت تلهث، لكنها كانت لا تزال مبتهجة وهي تقول:

-لقد أنهيت مهمّتك الآن، لكن عليك أن تصل إلى القلعة، كان والداك يحاولان بثّ أسمى أنواع الرعب عبر الهاتف لساعات.

هتف ويل فجأة وقد أصبح مستيقظًا:

-عفوًا؟

وقال جلين:

-من الواضح أنهما اكتشفا ما حدث في قصة هولمز ويريدان منك أن تنضمّ إليهما في البرّ الرئيس، إنهما يقولان ما دمت لم تعد تقفز فـ...

أظلم تعبير وجه ويل:

-نعم؟ هكذا إذًا.

أكّدت له بيتسي ما بدا أنه زاد من غضب ويل:

-لا تقلق، والدي خارج هذا الموضوع، لقد أعطاهما رأيه بالفعل.

زمجر غاضبًا:

هيا بنا إلى القلعة، سأتحدث إليهم.

ثم سار أسفل التلّ، تتبعه بيتسي.

في هذه الأثناء، قام جلين بوضع الفناجين والإبريق في ثنايا ردائه وعاد إلى المكتبة السرية.

أخيرًا، وقفت وحدي في منتصف الدائرة الحجرية وضغطت على صدري بالجلد الأحمر الناعم لكتاب الأدغال، وبينما أنا ما زلت أقف في السهل، أصبحت أجسام بيتسي وويل أصغر وأصغر كلما اقتربا من قلعة ماكاليستر. هبَّت الريح على وجهي وجعلت شفتيَّ تجفّان، وأعادتهما أقسى وأبرد ممّا كانا عليه قبل قبلة ويل، على افتراض أن هذه القُبلة كانت موجودة ولم تكن إحدى ألاعيب باك. في ذهني، كانت ثمّة فتاة نحيفة برأس حمار وذيل حصان أحمر تجري في غابة مظلمة ولم يلاحظها الصبي الذي قابلته لأنه كان مفتونًا برحيق زهرة سحرية.

لطالما كانت عائلة ماكاليستر فخورة بماضيها الحربي، اصطفّت دروع الفرسان والخوذات والبريد المتسلسل على جدران القاعة الكبرى، وعُلِّقت السيوف وأوسمة تبدو لامعة كالنجوم خلفهم بجانب لوحات مليئة بمشاهد المعارك. تستطيع أن تشاهد تنّين ماكاليستر من كل مكان، كان هناك شيء يهدّد حياته يتراءى أمام عينيه، كانت العائلة معروفة في يوم من الأيام بتعطُّشها للدماء، ولا يزال اللورد، الذي تُوِّج على كرسي بذراعين كبيرين، يترأّس القلعة، يحبّ التأكيد على تلك الأيّام عندما يريد تخويف شخص ما، رغم أن شقيقه آران وزوجته ليزا ماكاليستر لم يستطيعا بالطبع أن يريا مدى الوقار الذي كان يمسك به الهاتف.

عبر ويل القاعة بخطوات عاجلة ودون مزيد من اللغط تناول الهاتف من اللورد قائلًا:

-أمي؟ أبي؟ ما الأمر؟

بكت والدته على الطرف الآخر من الخطّ وهي تقول:

-كيف حالك؟

-جيّد. كل شيء على ما يرام.

-هل حقًّا كل شيء على ما يرام؟

قال والده:

-والدتك قلقة جدًّا عليك.

يبدو أنهما كانا يستخدمان مكبّر الصوت، وأضاف والده:

-لقد سمعنا بما حدث.

هل كان يتخيل ذلك فقط، أم أن صوت والده بدا أكبر سنًّا ممّا كان عليه عندما تحدّثوا آخر مرة قبل بضعة أسابيع؟ مرة أخرى أدرك كم من الوقت لم يرهما؛ لأن شهر ديسمبر كان منذ زمن طويل وهو لا يزور والديه إلا مرة واحدة في السنة، فقط في أعياد رأس السنة ليومين لا أكثر، لم يكن يستطيع التحمّل أكثر من ذلك، لو طالت به المدّة لتسلّل إليه الشعور بأنّه جزء من عائلة فقدها لفترة طويلة، لو طالت به المدّة لاشتدّ به الألم.

سأل والدُه:

-أما زلت معنا على الهاتف؟

كانت والدته تبكي بهدوء في الخلفية.

تنهّد ويل وقال:

-أنا بخير حقًّا، ما خطبكما فجأة؟

ازدرد والده لعابه وقال:

-حسنًا، بالطبع نريدك أن تنضمّ إلينا أخيرًا في البر الرئيس، الآن وقد مات شيرلوك، نحن خائفان عليك أيضًا، من يدري ماذا سيحدث بعد ذلك؟ تعال إلينا في عالم الواقع، أليس ذلك أفضل للجميع؟

تنفّس ويل بعمق، لسنوات كان والداه يحاولان إقناعه بمغادرة سترومساي، لكنه لن يفعل ذلك أبدًا، قال لهما بهدوء:

-عالم الكتب هو واقعي، لا أستطيع أن أخذله أو أتركه، كم مرة عليّ أن أشرح لك هذا؟ وما حدث مع هولمز كان مجرّد...

قاطعه والده:

-لا لم يكن مجرّد حادث!

فكّر ويل في أنه لم يكن مجرّد حادث، هو يعلم ذلك، بل ولم يؤمن لثانية واحدة بأنه كان حادثًا عرضيًّا، لكن فكرة أن يكون والداه على الرأي نفسه فاجأته، سألهما:

-كيف تعرفان كل هذه المعلومات؟

أوضحت والدته:

-لأن بروك كتب لي خطابًا، إنه يفعل ذلك أحيانًا عندما يكون وحيدًا.

-ما أعرفه هو أن بروك لا يستطيع الكتابة.

-لا، هذا غير صحيح، لكن... لقد أرسلت إليك نسخة من رسالته، قبل أكثر من أسبوع مضى، ألم تحصل عليها؟

تلعثم ويل وهو يقول:

-في الواقع لا... أنا، اممم! ولكن... أحيانًا يضيع البريد الوارد هنا.

ثم التفت إلى اللورد ولوَّح له بيده متسائلًا.

حاول عمّه ادعاء الجهل بالموضوع، لكن كان من الواضح أنه يعرف كل شيء عن الأمر تمام المعرفة، فراح ويل يحدق في وجه اللورد الذي قال أخيرًا:

-نعم نعم تذكرت، ها هو ذا، لقد وصلت الرسالة إلى ريد بطريق الخطأ ربّما.

كان ويل ما يزال ممسكًا بالهاتف، وهو يلوّح بيده المفتوحة أمام وجه اللورد ليعطيه الرسالة، تلكّأ اللورد قليلًا، لكنه فتش وسط الأوراق الموجودة على الطاولة الصغيرة إلى يمينه وأخيرًا سلّم ويل خطابًا مفتوحًا، مع كل هذا، غمغم بشيء عن شؤون الأسرة وحقّه في مراقبة الرسائل بوصفه كبير العائلة.

لم يستمع إليه ويل بتاتًا، وبدلًا من ذلك، فتح الخطاب وفهم ما تعنيه والدته، لقد كتب لها بروك بالفعل، إلا أن الأمر برمّته لم يكن في الأساس أكثر من رسم بيد طفل وألوان زاهية بأقلام التلوين، وبالرغم من ذلك احتفظ ويل بهدوء أعصابه وهو يحدق في الصورة، نسي للحظة أن والديه ما زالا على الهاتف، بل ونسي اللورد

الجالس على عرشه، حتى إنه نسي لقاء آيمي وحلم ليلة صيف.

فقد كان هولمز منقوشًا وسط الورقة، كان يرقد في بركة من الدماء تتدفق من ثقب في صدره إلى أسفل الورقة، حلَّق خنجر في الهواء فوقه، ووقف في الخلفية كل سكان الجزيرة. تعرف على نفسه في الوسط، كان راكعًا على الأرض، والدموع تنهمر من وجهه على الجثة، إلى يساره وقفت آيمي وأمّها، يدًا بيد، خلفهما جلين وكلايد وديزموند في ثياب الرهبان معتمرين أغطية الرأس وقد تجمّعوا معًا كما لو كانوا خائفين، فقط ديزموند بدا أكثر شجاعة، مدّ يده للخنجر وكأنّه كان يمسكه.

على يمين ويل كانت السيدة مايريد وبيتسي تتهامسان، وخلفه جلس اللورد على كرسيّه المتحرّك ولاح وجهه قاتمًا، كان ثمّة شخص نحيف يقفز على امتداد الأفق وفي يده خبز ومربى، كان المربى بلون الدم نفسه. كان هناك أيضًا، في مقدّمة الصورة، عند أحد أركانها، شخص لا يمكن رؤيته إلا من الخلف، كان هنالك فتاة ترتدي سروالًا أزرق، تحوّلت حوافّه إلى اللون الأحمر، وهي تشير إلى الحشد كما لو كانت تعدّه.

ازدرد ويل لعابه في توتّر بالغ.

لم يكن الأمر كذلك حين حدث، لقد وجد هو وآيمي الجثة بمفردهما، ولم يكن هناك أي شخص آخر، ما الاحتمالات الواردة بخلاف ذلك؟ ماذا رأى بروك؟

سألته والدته:

-ويل هل أنت هنا؟

تنفّس ويل بعمق ولم يرد.

-شيء خطير يحدث في سترومساي، عليك أن تبتعد عن هناك، هل تسمعني؟ تعالَ إلينا.

كانت نظرة ويل لا تزال ثابتة على الرسم في يده، ثم قال بهدوء:

-لا.

-رجاء! فكّر في الأمر مرة أخرى.

أغلق ويل عينيه وتمتم بحزم شديد:

-أنا آسف بشدّة، أعتذر لكما لكنَّ إجابتي هي لا.

كان ويل قد اتّخذ هذا القرار منذ وقت طويل، في ذلك الحين كان طفلًا وكان يريد ببساطة أن يظل في الجزيرة، أمّا الآن وخاصة بعد كل ما عرفه، فلا يوجد إلا حقيقة واحدة أمام عينيه، وهي أنه ينتمي إلى هنا، كان الأدب في حاجة إليه وهذا كل شيء.

أغلق الخط قبل أن يتمكّن والداه من قول أي شيء آخر.

تمتم اللورد بينما ويل يعيد الهاتف إليه:

-جيّد جدًّا، أنت ماكاليستر حقيقي.

هزّ كتفيه، وطوى الورقة التي تحتوي على رسم بروك، ثم دفعها في جيب سرواله وغادر القلعة، وبخطوات طويلة أسرع إلى المستنقع.

كان الظلام قد ساد بالفعل؛ لذلك لم يتمكّن ويل من رؤية كوخه إلا عندما لاح هو من تلقاء نفسه متحدّيا الظلام، جاثمًا في مكانه ينتظره بهدوء. شعوره وإيمانه كانا متّفقين على أنّ هذا الكوخ هو منزله الحقيقي. اقترب ويل من الكوخ بينما كان يفكّر في سبب عجز والديه عن فهم الأمر ببساطة. لاحظ الظل الذي تسلل إلى الجوار عبر الأدغال، بدت له فتاة تشدّ شعرها على شاكلة ذيل حصان وكأنها مألوفة له، قال متشككًا:

-آيمي، هل هذه أنتِ؟

***

استدرت إلى ويل ورأيته على بعد خطوات قليلة.

وضعت إصبعي على عجل على شفتي حتى يصمت.

سألني ويل بنظرته المندهشة دون كلمات:

-ماذا يحدث تحديدًا؟

أشرت إلى باب الكوخ المفتوح على مصراعيه، في الداخل، تحرّك شيء ما، كانت الطفلةَ نصفَ الجائعة التي أتت على ما يبدو بحثا عن شيء ما تأكله في كوخ ويل. كنت قد رأيت الطفلة الصغيرة تتجول في حديقة منزل لينوكس وتبعتها حتى وصلت الآن إلى هنا.

انحنى ويل خلف الأدغال بجواري ثم همس:

-ماذا تفعل؟

-أعتقد أنها ستصنع المزيد من الشطائر لنفسها.

هزّ رأسه وهو يغمغم:

-ليس لدي ما يمكن أكله إطلاقًا في المنزل.

-ما الذي تبحث عنه غير ذلك إذًا؟

تمتم ويل:

-لا يوجد لديَّ أدنى فكرة، لكنّ فضولي مشتعل حقًّا لمعرفة سبب مجيئها ثانية.

تجاوزت أقدامنا عتبة الباب ودلفنا معًا إلى الكوخ، لا يبدو أن الطفلة قد لاحظت قدومنا، كانت تتكئ على الصندوق المجاور للأريكة، وتبحث فيه عن شيء ما، بدا لي شعرها الملبّد على ظهرها مثل فرو حيوان بري.

سألها:

-هل تبحثين عن شيء معين؟

التفتت الصغيرة نحونا ورأتنا لأول مرة، بان الخوف في عينيها، حدَّقت فينا للحظة، بدت مرعوبة مثل أرنب محاصر، ثم أخذت نفسًا عميقًا وركضت، ضربت قدماها العاريتان ألواح الأرضية، ثم تسلقت طاولة القهوة وقفزت منها نحونا، كانت بالفعل بيننا تمامًا وهي تتلفت متوترة، لقد كانت كل حركاتها تحدث بسرعة كبيرة حتى إنّنا لم نستطع منعها من الهرب، لم تتراجع أبدا عن فكرة الهرب إلاّ حين التوت كاحلها من فرط السرعة، فحاولت أن أوقِفها مستغلة هذا الالتواء وأمسكت بثوبها، لكن النسيج كان هشًّا للغاية فتمزق وتمكنت الصغيرة من الإفلات من يدي بسهولة ثم تجاوزتنا إلى

الخارج وهرولت بعيدًا.

أسرعنا وراءها، عبر المستنقع، تمامًا كما تَبِعناها من قبل، لكنها الآن تسير في الاتجاه المعاكس، لم تجعل الفتاة النحيفة الأمر سهلًا بالنسبة إلينا على الإطلاق، لقد كانت أكثر رشاقة منّا ويبدو أنها تعرف طريقها جيدًا، ربما أفضل من ويل نفسه.

تتبّعنا الطفلة حتى وصلنا إلى مقعد شكسبير، هناك، في مكان ما بين الأدغال والمنحدرات، فقدنا أثرها فجأة، وكأنها ذابت في الهواء. لقد رحلت.

شهقت وأنا منحنية لأطلّ على الهاوية:

-ماذا لو كانت قد سقطت إلى أسفل؟

كادت الرياح تمزّق سترتي. وتحتَنا بعدة أمتار، كان البحر هائجًا يضرب وجه الصخور بأمواجه، كانت تلك المنحدرات شديدة الارتفاع ومميتة، كان الموت حتميًّا.

قال ويل:

-دعينا نأمل أنها قد وجدت الآن مكانًا جيدًا للاختباء.

عدنا إلى الكوخ وهناك أشار إلى يدي اليمنى التي كانت لا تزال تمسك الخرقة الممزّقة من ثوب الطفلة:

-ماذا تحملين في يدك؟

نظرت من كثب إلى الخرقة فوجدت أمرًا غريبًا، لاحظت أنها لم تكن قطعة قماش، بل ورقة، جثوت على ركبتي وقمت ببسط

الخرقة، كانت ورقة قديمة وقذرة حوافّها مصهودة، كان هناك خطّ منحنٍ على الظهر بدا أنه سلسلة حروف تكوّن مجموعة من الكلمات.

-أردت أن أقبض على الصغيرة، اعتقدت أنه جزء من فستانها.

لمس يدي بيده وهو يقول:

-هل لي أن أراها من قرب؟

جفلت من اللمسة بينما أخذ ويل قصاصة الورق ورفعها إلى ضوء مصباحه وهو يقول:

-تبدو قديمة.

نهضت لمشاركته النظر مرة أخرى وقلت:

-حقًّا!

-قديمة قدم بقايا المخطوطة المحترقة؟

ثم نظر كلٌّ منّا إلى الآخر.

همست:

-ماذا يعني هذا؟

قال ويل وهو يفرك أرنبة أنفه:

-لا أعرف، لكن كل ذلك... مربك للغاية، السرقات في عالم الكتب، وموت هولمز، ثم تلك الطفلة، والآن خطاب بروك لوالديَّ أيضًا، لقد رأى جثة شيرلوك أيضًا، ومن الرسم يبدو أنه يعتقد أن شخصًا ما قد طعنه.

-من إذًا هذا الشخص؟

هزّ ويل كتفيه وفجأة بدا منهكًا على نحوٍ رهيب، سقطت خصلة من شعره على جبهته واحتاج الأمر أن أستجمع كل إرادتي حتى لا أرفع شعره من على جبينه، ولأكون في الجانب الآمن ابتعدت عنه قليلًا. بالكاد لاحظت اتساع عينيْ ويل وهو يرمقني.

قال وهو ينظر إليّ باهتمام:

وأخيرًا ذلك الأمر قد حدث بيننا بعد ظهر اليوم في فضاء حلم ليلة صيف.

نوع جديد من الذعر كان قد غمرني، هل يقصد أن يتساءل الآن عن نوع التعويذة الغريبة التي سحرته وجعلته يفعل ذلك؟ أضاف:

-لم تسنح لنا الفرصة للحديث عن ذلك بعد...

أعددت نفسي للرفض الذي كان على وشك الحصول ونظرت إلى الأرض، لن أنجو من هذا الرفض والنبذ الذي تعوّدت عليه مرة أخرى، ألا يمكنه التظاهر فقط بعدم حدوث شيء؟

قال ويل هادئًا:

-أنا، حسنًا، لم أقصد الإساءة إليك يا آيمي، لقد اعتقدت فقط وقتها أنك...

ارتفعت الحرارة في وجهي.

تمتمت:

-لا بأس، ربما لم يسمح لنا ضباب باك بالتفكير بوضوح.

همس وهو يبتعد ناظرا إلى البحر:

-نعم، هل تعتقدين ذلك؟ آسف.

حاولت ابتلاع الغصة التي كانت تسدّ حلقي وأنا أسمع حفيف الأمواج.

كان الظلام قد حلّ بالكامل تقريبًا في تلك اللحظة، لكنه لم يكن بكمال ضباب باك المرعب. في مرحلة ما، ازدرد ويل لعابه وبدا متوترًا وهو يقول دون أن تحيد نظرته عن الأفق:

-إذا غيّرت رأيك يومًا ما، فأخبريني، هل يمكنك ذلك؟

توقّف نبضي لثانية ثم قلت:

-ماذا؟

هل سمعت هذا على نحوٍ صحيح؟ أصبت بالدوار وتمتمت:

-لكنني... اعتقدت... حسنًا، إنه فقط بسبب الضباب... الذي حدث بالصدفة... أقصد أنك لم تكن تريد...

تسارع نبضي لاحقًا كما لم يفعل من قبل، فقد عبَّرت شفتاه دون أي كلمات عن كل شيء، وكان لهما مذاق أحلى الكلمات، كمذاق المئات، بل الآلاف، بل الملايين من الكلمات والقصص الخيالية التي أعشقها، كان لهما مذاق البحر الذي يهدر عنيفًا من ورائنا.

تلك المرة قبَّلني ويل قبلة طويلة جدًّا ولم تكن كأختها الأولى، بل مختلفة تمامًا، بلا تمويه من ضباب حلم ليلة صيف، كانت أكثر واقعية وروعة، ربما ألأنّ للواقع مذاقًا أحلى من الخيال؟

على الرغم من أن الرياح الباردة كانت ما تزال تتخلل ملابسنا،

فإنني لم أكن أشعر بأي برودة، كان جسد ويل قريبًا مني، دافئًا وحنونًا، كانت إحدى يديه تحيط خصري والأخرى مدفونة في شعري. شعرت بكتفيه القويتين فتضخمت الرفرفة اللطيفة في صدري وتحولت إلى إعصار، وصعد الدم إلى أذني. لم يكن هذا جزءًا من رواية أدبية، بل كان حقيقيًا، واقعيًّا، بالرغم من كل هذا الوعي، انحسرت أفكاري عني تمامًا.

سألني ويل هامسًا وهو يبتسم ومبتعِدًا عن وجهي قليلًا ليتمكن من النظر إليَّ:

-هل اعتقدتِ أنني قد قبّلتك عن طريق الخطأ في ظُهر اليوم؟

-اعتقدتُ أن ياك قد سحرك، أليس هذا ما يحدث في القصة... أنّ الناس يقعون في الحبّ لأنّ الجانّ يرتّبون الأمر بهذه الطريقة؟

هزّ رأسه ضاحكًا وهو يقول:

-نعم هذا مضحك، لقد أُعجبت بك من قبل، ألم تلاحظي ذلك؟ أوليس من الجميل حقًّا أن...

توقف مؤقتًا عن الحديث عندما لفت انتباهه شيء ما خلفي ثم صرخ:

-هناك شخص ما عند الدائرة الحجرية!

استدرت أنا أيضًا قائلة:

-الطفلة؟

-شخص ما يقفز، هل ترين كيف يومض؟

كانت البوّابات الحجرية على قبّة التل سوداء في مواجهة سماء الليل، وكانت العتمة شديدة حتى إنّها حجبت من كان هناك، لكن في الواقع، كان ثمّة شيء ما يتوهج تحت أحد الأقواس، شيء صغير وقع وانزوى، قد يكون كتابًا.

مرة أخرى ركضنا على الطريق من مقعد شكسبير وعبر السهل، من حسن الحظ أن المسافة بيننا وبين البوابة لم تكن طويلة جدًّا، ولكن عندما بلغْنا الحدّ الذي يسمح لنا برؤية واضحة، كان توهج صفحات الكتاب قد اختفى تمامًا؛ غير أنّ شخصا ما كان واقفًا وسط الدائرة الحجرية، شخص كان يرتدي معطفًا طويلًا بغطاء رأسٍ مسدل إلى الخلف.

كانت السيدة مايريد!

جف حلقي وأنا أتساءل عمّ تفعل هنا.

انحنينا وراء إحدى الصخور لنختبئ، كما بدا فأن جدّتي لم تلاحظ وجودنا، كانت أكتافها تهتزّ وبدت شاحبة وهي تقف هناك ناظرة إلى الكتاب المفتوح الذي كان على بعد أمتار قليلة منها.

هل كانت السيدة مايريد هي اللص؟ رفضتُ تصديق ذلك، يجب أن يكون هذا سوء فهم، أليس كذلك؟ كانت أكبر من أن تقفز وفقًا للقواعد رغم كل شيء، ومع ذلك... ماذا كانت تفعل هنا في ذلك الوقت إذًا؟ مزّق الغضب جوانب بطني بمخالب حادّة وحفر عميقًا في أمعائي، أردت أن أهرع إليها وأهزّها وأصرخ في وجهها، لكن ويل أستوقفني، شكّلت شفتاه كلمات فهمت أنه يعني بها لا فائدة من

ذلك.

ظننت أنه كان على حق؛ لذلك اكتفيت في الوقت الحالي بمراقبة جدّتي، انفصلت بعض خصلات شعرها الأبيض عن تسريحة شعرها المثالية وكانت ترتدي قرطًا واحدًا فقط، ضغطت على شفتيها معًا في توتر، يبدو أنها كانت تنتظر شيئًا ما، أو شخصًا ما!

في الواقع، أضاء الكتاب مرة أخرى في تلك اللحظة حتى تمكنت لحسن الحظ من رؤية الغلاف، لقد كان كتاب قصص، الكتاب الذي تتدرب عليه بيتسي.

كان جسم إنسان ينمو بالفعل من بين الصفحات، أولًا ظهر شعر أشقر لامع من الورقة، متبوعًا بجبهة عالية وحواجب مرسومة تمامًا، وجفّ حلقي تمامًا عندما ظهرت بيتسي، كانت ترتدي معطفًا طويلًا داكن اللون أطل منه فستان رمادي، خرجت بأناقة من الكتاب والتقطته، قالت ببساطة:

-حسنًا، هذا كل شيء.

ثم سلّمت للسيدة مايريد شيئًا ما يبدو مثل حقيبة تسوّق فارغة، ثم وضعته جدتي في جيبها بحركات متقطعة وهي تتلفت حولها قائلة:

-هل رآك أحد؟

تنهّدت بيتسي:

-لا، بالطبع لا، أنا أعرف ما أفعل.

فركت جدّتي ذراعيها كما لو كانت ترتجف:

-جيد، إذًا قد نُفّذ كل المطلوب، شكرًا جزيلًا لكِ.

أومأت بيتسي برأسها ووضعت الكتاب في جيب معطفها، نزلت الاثنتان من التل معًا وتبعناهما أنا وويل، عندما افترقتا أخيرًا بصمت وهرعتا في اتجاهات مختلفة، انفصلنا أيضًا، فقد قرر ويل أنه سيبقى في أعقاب بيتسي، التي كانت على ما يبدو عائدةً إلى القلعة، أما أنا فقد تسللت خلف جدتي، وعلى امتداد الطريق كله رحت أتساءل عن سرّ المشهد الذي رأيناه للتو وعمّ يحدث بينهما.

هل كانت بيتسي هي اللص أم لا؟ هل هي التي دمّرت الأدب نيابة عن جدتي؟ لم يكن يبدو أن بيتسي قد سرقت أي شيء، كانت الحقيبة فارغة، لكن لماذا قفزت الليلة؟ لماذا كان من المهم ألا يراها أحد؟ لماذا كانت الاثنتان تختبئان عن بقية من في الجزيرة؟

لم أستطع التحمل أكثر من ذلك حتى وصلت إلى حديقة بيت لينوكس، كان عليّ فقط أن أعرف ما يجري هنا وعلى الفور، خطوت بجوار السيدة مايريد فجأة حتى إنها تعثّرت وكادت تقع على أحد الأسيجة الشائكة وقلت بسرعة:

-لماذا قفزت بيتسي منذ قليل من البوابة؟ ماذا تفعلان بالضبط؟

استعادت جدتي توازنها وراحت تعدّل من هندامها وقالت:

-آيمي، لقد أفزعتني حتى الموت.

لم يكن لدي الوقت ولا الرغبة في الاعتذار عن ذلك فقلت فورًا:

-هل تسرقان الأفكار؟

-أفكار؟

-ما الذي حدث عند الدائرة الحجرية؟ ماذا تفعل بيتسي بالأدب من أجلك؟

-لا شيء يثير اهتمامك يا آيمي.

أرادت أن تغادر من أمامي، لكنني لم أكن لأدعها وصحت:

-أنا لا أصدق ذلك!

-أنا آسفة، لكن لا يمكنني شرح ذلك لك.

-أنا لا أفهم، عالم الكتب في خطر، وأنت...

قاطعتني جدّتي وفي صوتها حدّة غير عادية:

-آيمي!

تلاشت حالة عدم اليقين التي شعرت بها مؤخرًا حول هوية اللص بعد ما رأيته في بوابة الدائرة الحجرية، ثم زاد الطين بلة أن أضافت جدّتي بالحدّة ذاتها:

-أنا سيدة بيت لينوكس، وكبيرة هذه العائلة، سترومساي والأدب هما كل حياتي، وعندما أخبركِ أنّ ما رأيته ليس من شأنكِ فأنا أعرف عمّ أتحدث وأعنيه.

استمررت في محاولة الضغط عليها قائلة:

-ولكن لماذا تقفز بيتسي سرًّا؟

-إنها مسألة خاصة بيني وبينها، ولقد حصلتْ على إذن مني للقيام بذلك الليلة.

-لكن...

-عالم الكتب يعمل على نحوٍ جيّد للغاية، يمكنك أن تطمئني.

ضحكت بعصبية وأنا أعقّب:

-ألم تقرئي ولو عن طريق الصدفة مؤخرًا رواية كبرياء وتحامل أو رواية حلم ليلة صيف أم ماذا؟

-أخبرني جلين عن حادث إليزابيث بينيت، الحوادث ممكنة، أفهمتِ يا آيمي، في عالم الأدب أيضًا، لكن ساقها ستُشفى وبعد ذلك ستصبح القصة كما كانت من قبل.

-لقد سقطت العربة في الخندق أساسًا لأن اللص قد ركض وضرب قوائم الخيول.

-كلام فارغ.

اعترضت غاضبة:

-ماذا عن بداية الشتاء في أثينا؟

قالت السيدة مايريد:

-هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن ذلك، سوف أسأل ديزموند ما الموضوع بالضبط.

-فكرة أن القصة تدور أحداثها في الصيف قد سُرقت! هذا هو الموضوع من دون سؤال ديزموند!

عبست السيدة مايريد وهي تقول:

-سيكون ذلك فظيعًا حقًّا، سوف أفكر في الأمر.

يبدو أن هذه كانت نهاية حديثنا؛ لأنها الآن تمكنت من دفعي بعيدًا والمضي قُدمًا، صعدت الدرج بسرعة ودخلت البهو.

لكنني لم أرغب في السماح لها بالفرار بهذه السهولة فهرولت خلفها وقلت:

-ما الرواية التي كانت بيتسي تقفز فيها الليلة؟ ماذا كانت تفعل هناك؟

قالت جدتي وهي تخلع معطفها:

-لا شيء.

-ما حقيبة التسوّق التي ناولتك إياها حين عادت؟ لماذا كنتما خائفتين من أن يراكما أحد؟ ماذا حدث بالضبط؟

-لقد استرقتِ السمع إلى حديثنا؟

هززت كتفي غير مبالية وقلت:

-لماذا لا تجيبين عن أسئلتي وحسب؟

حدّقت في وجهي فجأة وقالت:

-لأنه ليس من شأنك..

ثم عادت الحدّة إلى صوتها وهي تقول:

-اسمعي جيّدًا وللمرة الأخيرة، بيتسي قفزت بإذن مني ولن تفعل ذلك مرة أخرى، ما فعلته من أجلي قد تمّ وانتهى، وسببه لا يهمّك البتّة وليس من شأنكِ، والآن يرجى المعذرة، لقد تأخر الوقت وأنا متعبة فعلًا.

-لكن لماذا...

تنهّدت جدّتي بحرارة وقالت:

-اذهبي إلى السرير يا آيمي! عليك أن تستيقظي مبكّرةً غدًا، إلى جانب ذلك، ستوقظين المنزل كلّه بصوتكِ العالي.

ثم تركتني أقف وحيدة حائرة واختفت في أحد الممرّات.

كان الجرح مُميتًا.

وكان يعرف ذلك.

لقد عرف ذلك على الفور.

تدّفق الدم من ثقب في جسده، فراح يراقب النهر الأحمر الجاري وكأنه جاء من بعيد، شاهد القطرات المتوهجة وهي تتساقط وكأنها لا تعنيه، وكأن الجرح لا ينتمي إليه، وكأنه ليس هو من مات، بل شخص آخر.

اصطفّت القطرات بلا نهاية كما بدا له، مجتمعة في بقعة واحدة كبيرة،

حياة كانت نابضة بالحيوية، تحولت إلى بحر من اللون الأحمر القاني.

بدت هذه الحياة ممتعة.

لكنها كانت النهاية.

(14)

الأفكار

عندما دخلت أنا وويل وفيرتير إلى المحبرة في صباح اليوم التالي، كنّا مستعدّين لأي شيء، توقّعنا أن نكتشف سرقة أخرى حدثت في الليلة السابقة، لكننا لم نسمع شيئًا من هذا القبيل، بل على العكس من ذلك، فقد نشر العربي الذي طاف في الحانة على سجادة سحرية شائعة أن خزائن السلطان قد امتلأت بأعجوبة مرة أخرى، هل كان الذهب والمجوهرات مادة خامًا متجددة في عالم الأدب؟ انتظرنا سماع بعض الأخبار، ولكن ما عدا حقيقة أن المضيف قد جاء إلينا وسلم لفيرتير البريد القادم إليه (مظروفًا سميكًا من صديقه فيلهلم) لم يحدث شيء يلفت الأنظار.

عُدت أنا وويل إلى سترومساي في الظهيرة تقريبًا، لم يكن من الممكن رؤية جلين ولا بيتسي في الدائرة الحجرية، ولكن بدلًا من ذلك وصلت إلينا مجموعة من الأصوات من أسفل التل، من الحدّة التي بدت عليها الأصوات، ومن بين أشياء أخرى لاحظناها، كان اللورد هناك وكان يشعر بالضيق الشديد، فيما يبدو فإنه قد خاض مع السيدة مايريد معركة كلامية، وكان هناك المزيد من الأصوات المرتفعة.

ما الذي كان يحدث فجأة؟

أسرعنا بأقصى طاقتنا خلال الطريق المؤدي إلى المكتبة السرية، عندما استدرنا، كان وجه اللورد يتوهج حمرة، كما لو كان على وشك أن يرتفع إلى السماء من كرسيّه المتحرّك وينفجر مثل الألعاب النارية في احتفالات رأس السنة، كانت جدّتي تسير صعودًا ونزولًا عند مدخل الكهف، بينما أليكسيس تتجادل مع ديزموند وكلايد، وتناقشت بيتسي مع جلين حول احتياطات أمان ما، ولاحظت السيد ستيفنز وهو يحاول تهدئة السيدة، وفي الأخير جثم بروك بعيدًا عنهم قليلًا، كان يمسك رأسه بين يديه ويُحصي العشب عند قدميه.

سألت أنا وويل في الوقت ذاته:

-ماذا حدث؟

صاح اللورد غاضبًا بأن ما حدث لا يُصدّق ويُعدّ كارثة رهيبة، لكنّ كلماته كانت سريعة ومتعاقبة وهو غاضب جدًّا ممّا صعّب علينا الفهم، زادت السيدة مايريد في سرعة مشيها صعودًا وهبوطًا، وفكرت في لقائنا بالأمس، هل كان لهذا الحشد المتحمس علاقة بقفزة بيتسي السرية؟

كان ديزموند هو الذي شرح أخيرًا ما حدث حين قال:

-لقد اختفت المخطوطة، أنا وكلايد اكتشفنا ذلك في وقت سابق، كسّر أحدهم الزجاج وسرق حزمة الورق.

تنهّد وهو يستطرد بائسًا:

-كانت كل ما بقي لنا من وطننا.

قالت السيدة مايريد:

-كانت كنصب تذكاري للهدنة الهشة بين عائلتينا، يجب أن يكون هذا تهديدًا: من أخذها يحاول بَدء حرب قبلية أخرى.

ثم حدّقت في وجه اللورد، الذي اعتبر ذلك إهانة شخصية وغضب بشدّة، فعاد للصراخ بأصوات غير مفهومة، حتى إنه أثناء نوبة غضبه قام برش البصاق على كل شيء وكل شخص على بعد ستة أقدام منه، فتراجعت بضع خطوات إلى الوراء.

إذًا فقد فُقدت بقايا المخطوطة المحترقة، رمقني ويل بنظرة قال فيها إنه كان يفكر في الشيء نفسه مثلي: كانت الطفلة تحمل قصاصة ورق مكتوبًا عليها وتبدو متفحّمة الحواف، ألم يعنِ ذلك ببساطة أنها كانت تحمل المخطوطة المحترقة؟

من جانبها، بدأت جدّتي الآن بالصراخ في اللورد، ظننت – رغم عدم فهمي لكلماته المتلاحقة – أنه كان يدَّعي أن عائلتنا كانت وراء الجريمة. صعدت أليكسيس محمومة بين الاثنين وحاولت التوسط فقالت:

-ستظهر مرة أخرى، أنا واثقة.

لكنها لم تستطع التغلب على الاتهامات المتبادلة الصاخبة بين زعيميْ القبيلتين.

في مرحلة ما، انتهى الصراخ والشجار وقرروا أن يحوّلوا جهودهم لمحاولة معرفة الجاني، وذلك لأن جدتي اختفت فجأة في المكتبة.

سمح اللورد لديزموند وكلايد بحمله على الدرج.

تبعهم بيتسي وأليكسيس والسيد ستيفنز.

نظرنا أنا وويل إلى بعضنا.

سألته:

-هل ننزل أيضًا؟

هزّ كتفيه وهو يقول:

-وهل سيساعد ذلك في شيء؟

قلت وأنا أفكر:

-حسنًا، معك حق.

بصرف النظر عن التأكد من هوية الجاني الآن، كانت بعض قصاصات الورق المسروقة هي أصغر مشكلة في الوقت الحالي.

قلت:

-أعتقد أن الورق موجود هنا أو هناك، أليس كذلك؟

فجأة ابتسم ويل ابتسامة عريضة وقال:

-أتحبّين الفطائر؟

بدا عليّ الاندهاش وقلت:

-ماذا قلت؟

-قلت: أتحبّين الفطائر؟

-في الواقع، نعم، ولكن لمَ تسأل؟

-يمكنني أن أصنع لك البعض، أعني، يبدو أن بقية المحاضرة قد أُلغيت اليوم و... الفطائر هي تخصصي.

-تخصصك؟

اتّجه نحوي وأخذ يدي بين يديه، وسرنا متشابكيْ الأصابع وهو يقول ببساطة:

-السبب الرئيس الذي يجعلها تخصصي هو أن المعكرونة والفطائر هي الأشياء الوحيدة التي يمكنني طبخها.

ثم وضع جبهته على جبهتي وهو يقول باسمًا:

-لكن بالطبع سأتعلم طبقًا ثالثًا من أجلك، بل ربما طبقًا رابعًا.

-الفطائر رائعة حقًّا.

قال ويل ضاحكًا:

-هذا يسعدني.

ثم سرنا بعيدًا عن المكتبة، وكان ينظر بعيدًا وهو يستطرد:

-لكن كان عليَّ أوّلًا أن أسأله شيئًا.

-من هو؟

نظرت حولي لأرى عمّن يتحدّث، عندها فقط لاحظت أن بروك لم يذهب إلى المكتبة مع الآخرين، كان ما يزال رابضًا على العشب يعدّ النباتات، فسار إليه وسحب ورقة من جيبه ووضعها تحت أنفه، وسأله مباشرة:

-ماذا يعني ذلك؟ لماذا أرسلت هذا الرسم إلى والدتي؟

لم ينظر بروك ولو لمرة واحدة.

-لماذا رسمت كل هؤلاء الناس؟ ماذا تعرف عن... ماذا تعرف عن هذا الحادث؟ هل عثرت على جثة شيرلوك قبلنا؟

استمرّ بروك في العدّ المنتظم، تحرّكت شفتاه بصمت، وانزلقت يداه الكبيرتان بين طيّات العشب.

أعاد ويل الرسالة إلى جيبه ثم قال وهو يمسك كتفيه:

-بروك؟ من فضلك، هذا مهمّ جدًّا بالنسبة إلي، أرجوك قل لي ما رأيت.

ولكن حتى عندما هزّه ويل، تظاهر بروك بعدم الاكتراث، أخيرًا توقّف عن العدّ، ونهض وذهب مباشرة إلى المستنقع، أشرق سرواله الأزرق عبر الطين وهو يبتعد.

بعد نصف ساعة، وصلنا أنا وويل إلى الكوخ، اضطررنا إلى التجول قليلًا في أنحاء القرية لشراء بعض المواد الغذائية من فينلي. الآن حمل كلّ منّا كيسًا ورقيًّا يحتوي على الحليب والدقيق والسكر والبيض والمعكرونة والشوكولا وبعض الفاكهة بالإضافة إلى الخبز المحمّص حديثًا وعلبة مربّى الكرز. معًا قمنا برصّ كل شيء في كوخ ويل، ثم صنع ويل عجينة الفطيرة وأنا مستلقية في زاوية أريكته. كنت أتأمله وهو يفعل ذلك.

تساءلت بصوت عالٍ بينما كان ويل يكسر البيض:

-إذًا سرقت الطفلة بقايا المخطوطة؟

قال ويل:

-ربما اعتقدت فقط أن الورقة تبدو جميلة، على أي حال، لا أعرف بالضبط ماذا يمكن للمرء أن يفعل بمثل هذه القصاصات، لقد كانت شبه محترقة بالكامل، ولم يعد بإمكانك قراءة القصة، لم يتبقَّ منها سوى نتفٍ.

همهمت بلا كلمات، بينما راح ويل يخفق المكونات معًا، ثم سألني:

-هل أضيف لكِ التفاح أيضًا على الفطيرة؟

-نعم، وأريد أن نعرف من هي الطفلة الصغيرة ومن أين هي.

لم أستطع التخلص من الشعور بأن ذلك مهمّ جدًّا في الواقع.

هزّ ويل رأسه موافقًا وهو يقول:

-دعينا نقم بزيارة للكهوف القديمة في الطرف الشمالي خلال عطلة نهاية الأسبوع، ما زلت أشك في أنها تختبئ هناك.

-اتفقنا.

ابتسم ويل ابتسامة عريضة عذبة في وجهي وألقى أول فطيرة في الفرن، ابتسمت له بدوري وتعلقت أعيننا ببعضنا. في تلك اللحظة سقطت فطيرة أخرى من يده على الأرض، تأفف ويل محرجًا وهو يبتسم، بينما لم أستطع قمع الضحك بصوت عالٍ.

قال:

-في العادة أخبز تلك الفطائر بكل حرفية، أنتِ السبب، لقد شتَّتِّ انتباهي.

الفطيرة التي قدّمها لي ويل بعد ذلك الحادث الصغير بعشر دقائق كانت ساخنة وكثيرة السكر، كما كانت محترقة قليلًا ومفتتة الأطراف بدلًا من الاستدارة المعتادة لهذا النوع من فطائر التفاح، ومع ذلك، شعرت وكأنني لم أتناول أي شيء أكثر لذة وحلاوة منها في حياتي.

جلس ويل بجواري وأكلنا فتات الفطائر معًا حتى شبعنا تمامًا ولم يعد بإمكاننا أكل المزيد، ثم مدّ ساقيه الطويلتين بِرضا ووضعت رأسي على كتفه، وراح يداعب شعري، فكرت وأنا أستنشق رائحته التي أحبّها أنني لا أصدّق أن هذا حقيقي، وأنه كان يحدث بالفعل، تمتمت:

-هل تقصدني حقًّا؟

قال ويل وهو يداعب وجنتي بظهر يده:

-بالطبع، وستمكنين من جعلي أفقد تركيزي إلى الأبد ولن أستطيع التفكير بوضوح، بل ولن أتمكن من الطبخ لكِ مطلقًا بعد ذلك.

ثم ازدرد لعابه وهو يقول متوترًا:

-حسنًا أريد أن أعترف لكِ بشيء، ما يزال لدي كوابيس حول هولمز، كوابيس سيئة حقًّا، لحسن الحظ، عادة لا أتذكرها بالتفصيل عندما أستيقظ، كل ما أتذكره هو أنني كنت أعيش حلمًا سيئًا وأن أعز أصدقائي أصبح ميتًا. على أي حال، كل ما عليّ فعله في تلك اللحظات هو أن أتخيل وجهك وعلى الفور أشعر بأنني قد أصبحت أفضل.

ابتسمت، ثم أدار ويل وجهه لي ليُقَبِّلني، حينها اكتشفت أنّ له خصلة شعر خلف أذنه اليسرى، وعلى عكس كل الخصلات الأخرى، كانت ملتوية ومخبّأة تحت هذه الأذن.

تجعيد واحد لديه في شعره الأشعث الناعم، قمت بلفِّها على إصبعي وقررت أن هذه الخصلة المموّجة هي أفضل خصلة من شعر ويل المنسدل، عزمت أيضًا على ألا أخبره بذلك، وفي المقابل استسلمتُ للغوص في عينيه السماويتين وللاستمتاع بالقبلات.

كانت فترة ما بعد الظهر على أريكة ويل بالنسبة إلي مثل جزيرة من الضوء والدفء وسط محيط عاصف. علم كلانا أننا سرقنا تلك الساعات من الزمن وأن الفوضى ما تزال مستعرة من حولنا، لكن في تلك اللحظات الفردوسية تلاشى كل ذلك في الخلفية. كنّا سعداء بعد ظهر ذلك اليوم، على الرغم من أن شخصًا ما دمّر عالم الكتب، على الرغم من مقتل هولمز، على الرغم من وجود طفلة غامضة لا نعلم ماذا تفعل ولا من أين أتت، وعلى الرغم من محاولة شخص ما أن يطعنني، لم يكن بإمكاننا إلا أن يقع كل منّا في حب الآخر.

قضّينا الوقت بين تبادل القبلات وبين تناوب القراءة. أكلنا الشوكولا وقصَّ كل منّا على الآخر نشأته وحكاياتٍ من طفولته، اندهش ويل عندما وصفت له شقتنا التي تقع في البناية الشاهقة وقائمة طعام أليكسيس النباتية، وضحكت من فكرة وجود اللورد الغاضب على الدوام على الشاطئ في طفولة ويل وبيتسي يلعب معهما ويحفر حفرة في الرمال، بدا لي أنه من غير الواقعي على الإطلاق أن يكون هناك حفرة في رمال شاطئ ستروماي المليء

بالصخور. طلب منّي ويل، الذي أصبح رأسه الآن في حضني، أن ألتقط ألبوم الصور من صندوقه ليُريني صورًا دليلاً على صدقه. قمت بتمديد نفسي فوق مسند الذراعين لأنني كنت كسولةً جدًّا ولا أودّ النهوض بكامل جسدي ولأنني أيضًا لم أرغب في التحرك شبرًا واحدًا بعيدًا عن ويل، مددت أصابعي أكثر فأكثر، حتى كادت تصل إلى الرفّ وفي النهاية فقدت توازني.

لسوء حظي سقطتُ من على الأريكة وارتطم جسدي كله تقريبًا بألواح الأرضية الخشبية وعدت إلى أرض الواقع، كان ويل قد سقط أيضًا، لقد سحبته معي، لكن بينما كنّا ننهض من جديد ضاحكَيْن، أعدتُ النظر إلى أسفل وحدّقت في شيء اكتشفته تحت الأريكة وفمي فاغر من الدهشة.

كان ما رأيته يتلألأ ويتألق بكل ألوان قوس قزح وتنبثق منه همهمة هي بالكاد مسموعة، كما لو كانت أجسادًا صغيرة تهتزّ برفق شديد، أم أنها كانت تتنفّس؟

للوهلة الأولى كنت سأقول إنها كرات مصنوعة من الزجاج، مجموعها سبع، كل منها بحجم حبّة الجوز، متجمّعة على الأرض في الزاوية البعيدة، تلمع بين الغبار وأنسجة العنكبوت، بداخل إحدى الكرات أينعت زهرة بديعة للغاية، بينما داخل كرة أخرى كان هناك إعصار يلتفّ ويتداخل، في الثالثة جلس أرنب أبيض كان يرتدي سترة وظل ينظر بتوتّر إلى ساعة الجيب.

جفّ حلقي وأنا أفكّر ولا أصدّق، هل يمكن أن... هل كان

ذلك عن...

كان ويل ما زال يضحك وناداني:

-آيمي!

ثم لفّ ذراعيه حول خصري وجذبني مرة أخرى إلى الأريكة وهو يقول:

-هل كل شيء على ما يرام؟ هل جرحت نفسك؟

هززت رأسي نافية بلا ردّ.

أمسك ويل بألبوم الصور المفتوح ووضعه تحت وجهي وهو يقول:

-اسمحي لي بتقديم التالي؛ أنا وبيتسي في الثانية من العمر، لقد لعبت بيتسي بالفعل في الوحل معي، أتصدقين؟ ولقد أكلنا بالفعل كعكات الرمل تلك.

وضع ذراعه حول كتفي بينما تظاهرت بأنني أنظر إلى صور طفولته، لكن في الحقيقة لم أرَ واحدة منها قط؛ لأن الكرات الزجاجية السبع ما زالت تلمع في عين ذهني، طاردتُ فكرة غريبة أخرى في رأسي.

في وقت لاحق من ذلك المساء، كنت مستلقيةً على سريري في منزل لينوكس، أتصفح مكتبة قارئ الكتب الإلكتروني الخاص بي. بعد التغلب على الصدمة الأولية، هرعت لأقول وداعًا لويل ورحلت من كوخه وكأن كل شيء طبيعيًا، كانت خطتي هي القفز مباشرة إلى عالم الكتب والبحث عن أدلة من شأنها مواجهة الشك الرهيب الذي شقّ

طريقه إلى حافة وعيي منذ لحظة اكتشافي هذا، كان هناك صوت في عقلي يعتقد أنه كان عليَّ أن أمنع نفسي من التفكير بكل قوتي، وإلا فسأنهار.

لكن بعد ذلك لم أقفز؛ لأنني لم أكن أعرف من أين أبدأ البحث، وقبل كل شيء لأنني كنت خائفةً من عدم العثور على أي دليل مضاد، بدلًا من ذلك، ظلت الأشياء الفظيعة في رأسي تطوف في دوائر، والآن كنت أبحث بإرهاق عن قصة تلهيني، كان عليَّ أن أقرأ الآن بطريقة تقليدية للغاية، أو سأصاب بالجنون تمامًا، فكرت في أنني أفضِّل شيئًا جميلًا وهادئًا.

ثم وجدت مشهدًا لطيفًا في قصة هايدي، كانت الشمس مشرقة وكان راعي الماعز بيتر يسوق قطيعه إلى المرعى، هايدي كانت على العشب، تقطف باقات من الزهور البرية وتلهو بين النباتات. قرأت عدة صفحات، كلمة بكلمة، جملة بجملة، قدمي على عارضة السرير والوسادة خلف ظهري، كان هذا تمامًا ما يسمى شعورا رائعًا.

لذلك رافقت هايدي من مرعى جبال الألب نزولًا إلى المدينة، حيث التقت بصديقتها كلارا والآنسة روتنماير الصارمة، وكنت سعيدةً بها عندما تمكنتْ أخيرًا من العودة إلى الجبال وإلى جدّها الحبيب. كان من الممتع أن أقرأ بطريقتي القديمة، لقد شعرت بأنها طريقة مألوفة ومحبّبة، وكنت سأستمر في الاستمتاع بها على الأرجح لفترة أطول، لو لم أعثر فجأة على شيء في جملة ثانوية من الرواية جعلني أتساءل.

هل كان هناك شيء ما يتعلق بشاب يرتدي جوارب حريرية وسترة مخملية؟

أكملت القراءة حتى وجدت شيئًا ما في وقت لاحق لا ينتمي إلى الأحداث مطلقًا، كان همسًا ينبثق من حافة المرج يقول:

-آنسة آيمي، هناك أمر بالغ الأهمية، تعالي بسرعة!

ألقيت نظرة سريعة على هذه السطور التي لا يبدو أن لها أي علاقة بالنص المحيط بها، السطور التي تحتوي على اسمي! كنت أعرف شخصًا واحدًا فقط يناديني بالآنسة آيمي، بمجرّد أن فهمت من يناديني، تنهّدت ودفعت القارئ الإلكتروني فوق أنفي. حتى الآن مضطرة إلى القفز بعد كل شيء، رغم أنني ما زلت لا أرغب في ذلك، فإنني كنتُ أعتقد أنْ لا خيار آخرلي.

بعد برهة قصيرة في وقت لاحق هبطتُ وسط قطيع ماعز بيتر، بدأت أنوف الحيوانات الفضولية على الفور في شمِّي، حاول الثعبان الصغير أن يتسلق فخذي، وحاولت الكلبة أن تأكل ضفيرة شعري.

سحبني فيرتير من يدي وقال:

-وأخيرًا أتيتِ! ألم تَرَيْني ألوِّح لكِ؟ وليس مرة واحد بل في وقت سابق أيضًا، من خلف ظهر الآنسة روتنماير؟

تلعثمت:

-لا لمْ أرك حقًّا، ما الذي يحدث؟ ولِمَ حتى أتظاهر بـ ...

قاطعني فيرتير بسرعة:

-حسنًا، المهم أنكِ هنا الآن، علينا أن نسرع إذا أردنا أن نكون هناك في الوقت المناسب.

-نكون أين في الوقت المناسب؟

جرّني فيرتير معه إلى أدنى المراعي المتناثرة في جبال الألب، ودفعني إلى الوادي بسرعة كبيرة إلى درجة أنني شعرت بطنينٍ مدوٍّ في أذني.

وأوضح وهو في الطريق:

-اللص يتسلل مرة أخرى، لقد وجدَته الجنيات وأبلغتني، يبدو أنه في طريقه إلى التحول.

-اللص يتحول؟

-لا، يبدو أن رواية التحول هي هدفه التالي، الآن عليكِ عدم التهاون في هذا الأمر.

تعثرت بعده دون أن أفهم وقلت بطريقة ليست أنيقة للغاية:

-هاه؟

-إنه يضرب ضربته مرة أخرى، وقد اختار رواية التحول لفرانس كافكا، ألا تعرفين الكتاب؟

راجعت في رأسي القراءات المدرسية في السنوات القليلة الماضية مرة أخرى، بينما جذبني فيرتير إلى أحد الشوارع، وبعد ذلك بوقت قصير إلى مدينة من القرن الماضي، تذكرت بشكل غامض قصة رجل استيقظ في الصباح واكتشف أنه تحول إلى خنفساء عملاقة بين عشية

وضحاها، يا للروعة! الحشرات هي المخلوقات التي أحببت أن أقابلها بالطبع، خاصة عندما تكون طوال القامة مثل البشر!

لكن احتمال التقدم على اللص هذه المرة قضت على مخاوفي على الفور.

توغل فيرتير على عجل في شقة رمادية كئيبة، وبأكثر دقة في غرفة صغيرة، كانت ضيقة وقديمة الطراز، معلقة على أحد جدرانها صورة لسيدة ترتدي معطفًا من الفرو، ورجل نائم في السرير، كان يجب أن يكون هذا هو جريجور سامسا، الشخصية الرئيسة في القصة. في الوقت الحالي، لا يمكنك حقًّا معرفة أنه كان رجلًا يتجول عادة في جميع أنحاء البلاد مسافرًا بغرض العمل؛ لأنه في هذا المشهد كان في هيئة خنفساء سوداء ضخمة، ومع ذلك لم يستيقظ بعد، كان ما يزال لا يعرف شيئًا عن تحوله، وهذا يعني أننا كنّا قبل بداية القصة.

نظرت إلى الخنفساء الضخمة القابعة تحت الأغطية، كانت درعها تلمع باللون الأسود، بينما كانت مجساتها على الوسادة، وقدماها الصغيرتان عالقتين. سرت رجفة أسفل عمودي الفقري شفقة على هذا الوحش، كم هو مسكين جريجور سامسا!

في هذه الأثناء، لم يكن فيرتير يركز على النظر إلى الرجل الخنفساء في سريره. تطلّع من النافذة ونظر إلى الشارع ثم تمتم:

–سيكون هنا قريبًا، قريبًا جدًّا.

لسوء الحظ، لم أعد متأكدةً ممّا إذا كنت أريده حقًّا أن يقع في شَركنا، كل هذا أصبح بالنسبة إلي يتوقف على من هو... أخذت

نفسًا عميقًا وأجبرت نفسي على التركيز على ما يحدث هنا في تلك اللحظة. همست حتى لا أوقظ جريجور سامسا:

-كيف تعرف أن هذا هو المكان الذي يريد اللص أن يسرق شيئًا ما منه؟

أجابني بسؤال آخر قائلًا:

-حسنًا، ما الذي كنتِ ستأخذينه من التحول إذا كنتِ تبحثين عن الفكرة الأساسية للنص؟

ثم أجاب عن سؤاله وقال:

-حسنًا، إنه قطعًا التحول نفسه.

أشرت إلى الوحش وأنا أقول:

-لكنه قد تحوّل بالفعل إلى خنفساء.

أومأ فيرتير ثم راح يتطلع برأسه في أرجاء الغرفة صعودًا وهبوطًا وهو يتمتم:

-لأن هذا هو المكان الذي تبدأ منه القصة، في الحقيقة، لو كنتِ تعلمين، لا يوجد جريجور سامسا دون تحول، لكن انظري.

ارتجفت أطراف أصابعه وهو يضعها على بقعة من رأس الخنفساء توهجت بضعف عندما لمسها ثم قال:

-هذا هو المكان الذي تجلس فيه فكرة هيئة الخنفساء، إذا منعنا اللص من الحصول عليه فسوف...

قاطعه حفيف شيء خارج الباب.

صمت فيرتير ووضع إصبعه على شفتيه، استمعنا بإمعان إلى الحفيف ولكن بقي كل شيء صامتًا، في المقابل فتح جريجور سامسا عينيه، نظر لفترة إلى بطنه المنتفخ وساقيه الرقيقتين، ثم حاول أن ينقلب على جانبه، لكنه استمر في التأرجح على ظهر الخنفساء المستديرة. أخيرًا نظر إلى المنبّه المجاور لسريره، والذي قرأ فيه السابعة إلا ربعًا، فصُدم، ربما لأنه في تلك اللحظة لاحظ وجود فيرتير ووجودي حذو الحائط المقابل في الغرفة، فانحنت قرون الاستشعار نحونا في دهشة.

صدر صوت امرأة من الجانب الآخر من الباب تنادي:

جريجور، إنها السابعة إلا ربعًا، أليس عليك المغادرة؟

أجاب جريجور سامسا بصوتٍ حفيفٍ وهو يحاول النهوض من السرير:

-بلى، بلى، شكرًا لك يا أمي، لقد استيقظت بالفعل.

لكنه لم يستطع النهوض، لم يستطع الوقوف على بطنه.

كان للغرفة بابان آخران وقد تحدث والد جريجور من خلف أحدهما، بينما ظهر صوت شقيقته جريتيه من خلف الباب الآخر، أراد كلاهما معرفة سبب عدم ذهاب جريجور إلى العمل منذ فترة طويلة وإذا ما كان مريضًا.

تحرّكت أرجل الخنفساء في الهواء بلا حول ولا قوة، وراحت تجدّف أكثر فأكثر في الفراغ، ثم أصبح هناك طَرق على أبواب الغرفة من جميع الجوانب. سألتُ فيرتير:

-هل نساعده؟

هزّ رأسه نافيًا بقوة وهو يقول بهدوء بينما يتطلع من النافذة مرة أخرى:

-لا، ليس مسموحًا لنا بالتدخل.

يبدو أنه كان يعتقد أن اللص سوف يسير في الشارع في أي لحظة، في الواقع يبدو أنه قد قلب صفحات القصة بمهارة كما فعلنا؛ لأنه بعد ذلك بوقت قصير كان هناك صرخة خلف الباب حيث كانت تقف والدة جريجور.

صرخت:

-بماذا تفكّر؟ من أنت؟

سأل والد جريجور ملتاعًا:

-ما الذي يحدث؟

وصرخت جريتيه:

-هل حدث شيء ما؟

توسّلت والدة جريجور:

-اخلع غطاء الرأس الذي تواري به وجهك وعرِّف بنفسك من فضلك.

ثم صاحت:

-ماذا دهاك لقد جرحتني!

صرخ والد جريجور:

-ما هذا؟

-لقد دفعني جانبًا بقوة.

-من الذي دفعكِ؟

-حسنًا، الغريب!

توقفنا أنا وفيرتير عن التنفس بينما استمرّ جريجور سامسا في التأرجح ذهابًا وإيابًا بصعوبة على ظهره من أجل دفع نفسه إلى حافة السرير ثم هبط أخيرًا على السجادة مُحدثًا دويًّا.

صاحت جريتيه:

-ربما هو السيد كبير الموظفين!

-بالطبع يمكنني التعرف عليه حين أراه يقف أمامي.

-اعتقدت أنه كان يرتدي غطاء رأس يخفي وجهه.

-وماذا في ذلك؟

ثم سمعنا الأم تلهث لتتنفس وهي تقول:

-هذه غرفة ابني، من فضلك توقف عن العبث بقفل الباب!

في الواقع يمكننا الآن أن نراقب من داخل الباب كيف دُفع المفتاح ببطء خارج القفل، وسقط إلى أسفل ليستقرّ على شريط من الورق لم يكن موجودًا من قبل، سحب اللص الورقة من أسفل الباب وعليها المفتاح، ثم سمعنا نقر فتح القفل، دُفع مقبض الباب إلى أسفل، انفتح الباب، في البداية ظهر ظل، ثم اقترب الجسد ببطء من الباب، ولمعت عباءة سوداء من خلفه.

انقض فيرتير على الشخص المغطى بمجرّد أن وطِئَت قدمه أرض الغرفة.

أخيرًا! بالطبع كان عليَّ مساعدته، قفزت إلى الأمام ناحيته أيضًا، كانت هذه هي اللحظة التي انتظرناها طويلًا، أن نقبض على اللص! كل ما كان علينا فعله هو الإمساك به ونزع الغطاء الغبي عن وجهه، ولكن ما الذي كنا سنكتشفه تحته؟ هل أردت حقًّا معرفة الحقيقة؟ في هذه الأثناء، تسللت إليَّ شكوك جدية؛ لذا ترددت في منتصف حركة نزع الغطاء ونسيت لجزء من الثانية أن أهتم بموضع قدمي، فتعثرت بجريجور، الذي كان ما يزال ملقًى على الأرض، وضربت رجلاه المتلألئتان فيرتير وأسقطته أرضًا أيضًا.

ذهب عنصر المفاجأة.

قبل أن نتمكن من النهوض مرة أخرى، تحرك اللص والتفت إلى الجانب الآخر، ثم دفع والدة جريجور جانبًا مرة أخرى وقلب الصفحات.

حدث كل هذا بسرعة كبيرة حتى إنّنا لم نلاحظ في أي اتجاه اختفى.

لهثت عندما عدت للوقوف على قدمي:

-اللعنة!

لكن فيرتير، الذي كان يمسح العرق عن جبهته بمنديل من الدانتيل، هزّ كتفيه وقال وهو يرفع ذقنه باتجاه رأس جريجور، الذي ما يزال لديه سرّ التحول:

-إذًا لم نتمكن من التعرف عليه.

على الأقل لم يتمكن اللص من الحصول على الفكرة، لقد منعنا ذلك؛ تبادلنا أنا وفيرتير الابتسامات، صحيح أننا لم نتمكن من القبض على اللص، لكننا على الأقل أنقذنا رواية التحول، أليس ذلك إنجازًا أيضًا؟

سألته:

-ماذا لو عاد؟

-لا أعتقد أنه سيحاول هنا مرة أخرى. في كل الحالات، تم تحذير الجميع الآن.

التفتَ إلى عائلة جريجور، الذين اندفعوا أيضًا إلى الغرفة وحدقوا في الخنفساء الضخمة ثم قال:

-عليكم أن تعتنوا به، من الآن فصاعدًا لا بدّ أن يحظى بعناية خاصة.

أومأ أفراد الأسرة برؤوسهم، ولكن كان من الواضح أنّ الجميع مصدومون.

قلت:

-وعلينا نحن التفكير في كيفية المضيّ قدمًا.

تلاشى غضبي من أن اللص قد نجا بأعجوبة من بين أيدينا وأفسح إنقاذ القصة المجال لحماس بهيج حفّزني على المواصلة، حتى إنه قد دفع خوفي ممّا كان قابعًا تحت الغطاء إلى الخلفية مؤقتًا، المهم هو أننا تمكنّا أخيرًا من إيقاف اللص، تمكنّا من إنقاذ عمل واحد على

الأقل وشعرنا بالرضا.

بعد نصف ساعة، تجولت أنا وفيرتير أمام المؤلفين الروس المجاورين وجلسنا في مقصورة قطار أنيقة تعود إلى القرن التاسع عشر على الطريق بين سانت بطرسبرغ وموسكو، كان هناك عاصفة ثلجية هائجة أمام النافذة وفي مقصورة ما من العربة المجاورة جلست آنا كارنينا البائسة، التي كانت في الماضي صديقةً حميمةً لأليكسيس.

ومع ذلك، فقد استمتعنا بالدفء المنبعث من مدفأة القطار وبالمقاعد الناعمة داخل مقصورتنا. كانت المدفأة مصباح غاز غمر المفروشات والسجّاد الفاخر بضوء دافئ، وكان فيرتير، الذي لم يركب قطارًا قط في حياته، مسرورًا بصوت احتكاك العجلات والوهج البعيد للقطار البخاري عندما لاح في منعطف ما بين الثلوج المتساقطة بكثافة أمام أبصارنا. في الدقائق العشر الأولى من رحلتنا، كان مبهورًا تمامًا بالنافذة وظل محدِّقًا في ما يمرّ بنا من مناظر طبيعية لا يمكن إلا أن تكون خافتة في الظلام. تركته يستمتع أثناء التفكير فيما وجدته تحت الأريكة في كوخ ويل.

بدأت أخيرًا في الكلام مع فيرتير:

-بافتراض أنه تم العثور على الأفكار الأساسية المسروقة، هل يمكن للمرء... اهم... إعادتها؟ هل ستعمل القصص مرة أخرى بعد ذلك؟

تمتم فيرتير دون أن يرفع عينيه عن النافذة:

-من المحتمل.

ثم هلل مثل طفل صغير عندما أطلق المحرك البخاري صافرة.

ظللت صامتة لبعض الوقت، ربما يمكنني إعادة الأفكار إلى القصص دون أن يلاحظها أحد، لكن هذا وحده لن يكون كافيًا ما دام اللص مستمرًّا في سرقة الأفكار الأخرى...

-كيف نعرف إلى أين سيذهب بعد ذلك؟

انفصل فيرتير عن المنظر بعد كل ذلك التأمل وهزّ رأسه ذهابًا وإيابًا. تردّد للحظة، ثم سحب من جيب داخلي في سترته الرسالةَ السميكةَ التي تلقّاها في ذلك الصباح وفتحها وهو يجيب:

-حسنًا، لنقل الحقيقة، ناقشنا أنا وصديقي بالمراسلة فيلهلم الأمر لفترة وتوّصلنا إلى استنتاج مفاده أنه يجب أن يكون هناك هدف محدّد وراء السرقات.

عدّلت من جلستي وانتبهت وأنا أقول:

-وما هو ذلك السبب يا ترى؟

وضع فيرتير أطراف أصابعه على بعضها واستطرد:

-حسنًا، كان يجب بالطبع أن أتحدث إليك بشأن هذا الأمر في وقت سابق، يا آنسة آيمي، ولكن منذ أن تما تحالفنا مؤخرًا...

صمت قليلًا وهو ينظر بعيدًا، هل كان مجرّد تخيل أم كان لديه شعور بالإهانة؟ أكمل:

-حسنًا، لم أكن متأكدًا من أنني يجب أن أخاطر بذلك، ولهذا السبب فضّلت التزام الصمت في الوقت الحالي.

فتحت فمي لتوبيخ فيرتير، أردت أن أخبره أن ذلك كان سخيفًا وبالطبع يمكننا الوثوق في ويل، لكن الكلمات لم تستطع تجاوز شفتي.

نظر فيرتير في عيني مباشرة وسلمني قطعة من الورق، كانت قائمة مكتوبة بخط يده المتعرّج، نص القائمة كان:

<u>أفكار مسروقة:</u>

1. أليس في بلاد العجائب (ساعة أرنب وسترة).
2. الجمال النائم (نوم طويل).
3. صورة دوريان جراي (صورة شخصية).
4. الملك إيرل (الملك).
5. ساحر أوز (عاصفة).
6. الأمير الصغير (زهرة).
7. حلم ليلة صيف (الصيف).
8. ؟
9. ؟
10. ؟

سألته:

-وماذا عن الكنوز من حكايات ألف ليلة وليلة وكنز دراكولا؟ وحادث عربة إليزابيث بينيت؟

لكن فيرتير استوقفني وقال:

-لم تُسرق أي أفكار في تلك القصص.

قرأت مرة أخرى ما كان قد كتبه في القائمة بتمعُّن ثم قلت:

-وماذا تمثل علامات الاستفهام الثلاث في النهاية؟

انحنى فيرتير إلى الأمام وأمسك بيدي:

-إنها جزء من نظريتنا..

بدت الإيماءة غير مناسبة، لكنني كنت متحمّسةً للغاية، ومتشوقةً جدًّا لفهم نظريّته ومعرفة ما الذي يراه مدعاةً للقلق، كان وجهه الشاحب الآن قريبًا جدًّا من وجهي، قريبًا جدًّا إلى درجة أنني تمكنت من رؤية كل رمش من رموش عينيه الطويلة، ثم همس:

-نخشى أن يكون لدى الشخص الذي يسرق أفكارًا أساسية قوية مثل هذه التي جمعها، ليجعلها شيئًا واحدًا فقط في ذهنه، نخشى أن يرغب هذا الشخص في خلق قصّة جديدة منها.

ثم ارتجف بعد أن تفوّه بهذه الكلمات.

تلعثمت:

-قصة جديدة؟

لقد كرّس فيلهلم المخلص نفسه بعمق لدراسة سجلاّت عالمنا في الأيام القليلة الماضية واكتشف أن ذلك ممكن، ولكن فقط إذا وضعت تحت سيطرتك عشرًا من أقوى الأفكار في التاريخ الأدبي.

أُصِبت بقشعريرة سرت عبر رقبتي، قلت:

-وفقًا لتلك النظرية لم يتبقَّ سوى ثلاثِ أفكار، كان يجب أن يكون التحوّل هو الكتاب رقم ثمانية.

أومأ فيرتير برأسه، لكنني ما زلت لم أفهم الأمر برُمّته، فاستفهمت:

-لكن لماذا... أعني إذا أراد شخص ما كتابة قصّة جديدة، فلماذا لا يكتب فكرته وينتهي الأمر؟ لماذا يتعين على الشخص استخدام أعمال الآخرين؟

اقترب مني فيرتير أكثر، شعرت بأنفاسه الحارة على شفتي، تفوح منه رائحة النعناع والبنفسج وهو يهمس:

-مثل هذه الأساسيات القوية لا يجدها المرء ملقاة في الشارع، بل من الصعب جدًّا ابتكارها، كما أنه ليس لأيٍّ كان القدرة على إبداع شيء جديد، شيء جديد متكامل مثلنا نحن شخصيات الأعمال الأدبية.

شيء ما صفع زجاج النافذة من الخارج بقوة، شيء كان من الواضح أنه أزرق للغاية بالنسبة إلى ندفة ثلج.

جفلنا! أخيرًا تراجعت عن أنفاس فيرتير ذات رائحة البنفسج وأطلقت يدي من قبضته، ثم نهضت وفتحت نافذة المقصورة، وفي إطارها كانت جنية صغيرة تتشبث مقاومة الريح، هبطتْ مع فتحي للنافذة عاصفة من هواء الليل الجليدي وموجة من الثلج وسقطت على المقعد المجاور لي. تجمّد جناحاها بشدة وأطلقت صفيرًا وهي تخبرنا برسالتها إلينا، بدت كعاصفة شديدة حتى إنّ صوتها تصدّع من الحماس، كان عليها أن تكرّر ما قالته ثلاث مرّات

قبل أن نفهم أنّنا فرحنا بإنجازنا الصغير اليوم في وقت مبّكر جدًّا على ذلك:

-بينما كنّا نسير عبر الشتاء الروسي، كان اللص قد واصل اقتحامه لعالمنا، كان في رواية الحالة الفريدة لدكتور جيكل ومستر هايد، ولم يختفِ الآن سوى السيد هايد نفسه!

عضضت شفتي وأنا أفكر قائلة: اللعنة! ما كان علينا أن نفلته؟ كيف يجب أن نحمي الأدب إذا كان من السهل جدًّا عليه العثور على ضحية أخرى بمجرد تدخلنا في مكان ما؟

بينما أخرج فيرتير قلمه، وشطب علامة الاستفهام بعد النقطة الثامنة، مستبدلاً إيّاها بعنوان الكتاب، عادت دائرة التفكير في رأسي إلى التسارع مرة أخرى، كانت تطوف بسرعة كبيرة جعلتني أشعر بالتوعّك. إذا كان فيرتير وصديقه فيلهلم على حق، فسيقوم شخص ما باختيار أعظم أعمال الأدب العالمي للخروج منها بقصة جديدة، لكن من هو الذي يرغب بقوّة في عمل ذلك؟

هل هي بيتسي؟ أم السيدة مايريد؟ جفّ حلقي وفكرت بهدوء وحيادية: أم أن الجاني ببساطة هو ويل؟

كانت الأميرة في ريعان شبابها وقمة جمالها.

هبط شعرها إلى كعبيها وكانت ترتدي أفضل الملابس يومًا بعد يوم، عندما كانت تضحك فقط، كان كل فرد في المملكة يشعر بالسعادة فورًا.

كانت أجمل طفلة في البلدة كلها.

(15)

المنسي

طارد رنين جرس الهاتف الخلوي أحلامي المضطربة، وشعرت أن عقلي قد تحول إلى إسفنجة مبللة بين عشية وضحاها، وأصبح الآن ينزلق داخل رأسي، تأوهت وأنا أهز ساقي على حافة السرير وأخذت أحدّق في الصباح الكئيب، على الأقل استطعت التفكير بوضوح مرة أخرى إلى أن فهمت الآن فقط ما يجب فعله.

كان الوقت مبكّرًا، حتى أن الشمس لم تكن قد بدأت في نشر أشعة الشروق، وما زال هناك متّسع من الوقت حتى موعد دروس القفز في الكتب في المكتبة السرية، ترنّحت في الحمّام، ثم التقطت بعض الملابس عشوائيًّا من الأرض وانزلقت فيها. أثناء تنظيف أسناني، استخدمت يدي الأخرى لربط شعري في كعكة فوضوية عند مؤخرة رأسي. لأنني لم أنظر في المرآة أصلاً، لاحظت فقط على الدرج أنني كنت أرتدي السترة البشعة التي اشترتها لي أليكسيس في ليرويك، لكنني لم أهتم بالمرة.

في الطابق الأول التقطت شريحة خبز محمّص من مائدة الإفطار

عندما مررت بها سريعًا، ثم دلفت عبر بوابة المدخل نحو الحديقة، الحصى الندي كان ينكسر تحت قدمي، ويملأ الهواء البارد الرطب رئتي. غادرت حديقة منزل لينوكس، لكنني لم أسلك الطريق إلى المكتبة السرية، بل أسرعت إلى المستنقع، وكأنني تذكرت أن عليَّ الاستعجال، بدأت في الجري، أخبرني شيء ما في رأسي، ذلك الشعور الغامض، أنه من الأفضل عدم إضاعة المزيد من الوقت.

كنت أتنفس بقوة عندما وصلت إلى كوخ ويل، ودون أن أطرق دخلت واندفعت نحو الأريكة.

اندهش ويل، الذي كان على وشك إدخال ساقيه في سروال من الجينز، فتشابكت ساقاه من المفاجأة وتعثرت قدمه بالموقد فسقط وهو يقول:

-آيمي! مرحـ... مرحبًا، هل حدث شيء؟

لم أهتم بالردّ عليه، لكنني ألقيت بنفسي فورًا على الأرض، تحسّست مكان اختباء الأفكار تحت الأريكة بكلتا يدي، نظرت في كل زاوية، بل ومسحت خيوط العنكبوت جانبًا، لا شيء هناك! لم أجد شيئًا!

اقترب مني ويل وقال:

-آيمي، ما الخطب؟ هل كل شيء على ما يرام؟

قفزت وتراجعت بعيدًا عنه وصحت:

-أين هي؟

إذا أردت حقًّا – كما قال فيرتير – إصلاح القصص، فقد كنت بحاجة إلى الأفكار الأساسية، لكني كالعادة كنت متأخرةً جدًّا، كان عليَّ أن أصفع نفسي بسبب هذا التأخر الغبي.

كررت مرة أخرى:

-أين هي؟

رفع ويل حاجبيه، كان يحدّق فيَّ وهو لا يفهم:

-أين ماذا بالضبط وماذا تقصدين؟

همست:

-الأفكار، لقد كانت هنا بالأمس، رأيتها يا ويل بعيني، أين هي إذًا؟

كلما طالت مدة الحديث عن ذلك، ارتفعت موجة الخوف بداخلي، وهددتْ بالانهيار على رأسي في أي لحظة وبأن تغمرني لأغرق فيها.

في الواقع لم أرغب في أن يجيبني ويل، لم أرغب في سماعه يعترف لي بذلك، أردت فقط العثور على الأفكار الأساسية ومن ثم إعادتها.

عبس وقال:

-أفكار؟ أيّ أفكار؟ ماذا تقصدين؟

قلت على نحوٍ قاطع:

-الأفكار المسروقة، الأفكار التي خرجت وبعدها اختفت من عالم الكتب، كانت بالأمس تحت أريكتك.

نزل على ركبتيه ونظر تحت الأريكة وتحت كل أثاث الكوخ وهو يقول:

-تحت أريكتي؟

في هذه الأثناء، تصاعدت موجة الخوف، وزحفتْ على صدري وتصاعدتْ حتى اصطدمت بحلقي مخلّفة ألمًا، ثم انهارت مع هدير مزَّق كل شيء في داخلي. أصبحت الرؤية بالنسبة إلي غير واضحة، وفجأة بدا أن الكوخ قد أصبح أصغر من حولي، وكأنه سيصغر ويصغر حتى يخنقني بالجدران القذرة، كل ذلك بسبب حقيقة كانت مؤلمة جدًّا حتى إنّه يصعب عليَّ الاعتراف بها. بعد برهة قصيرة، هرولت إلى الخارج.

ارتجفت، سقطت أمام الباب ودفنت وجهي في كفَّيْ يدي، لم يكن أبدًا هناك أي أصدقاء حقيقيين لي في هذا العالم، كان من الأفضل عدم الوثوق بأحد، ألن أتعلم هذا الدرس أبدًا؟

دارت ذراع حول كتفي، كان ويل قد جلس بجانبي، ورائحته التي أحببتها تغمر أنفي، كنت أرغب في الابتعاد عنه والهرب، لكنني لم أجد القوة للقيام بذلك.

تمتم ويل:

-إذًا اكتشفتِ وجود الأفكار المسروقة أمس ولم تخبريني عنها؟ هل تعتقدين أنني أخفيتها بالفعل تحت الأريكة؟

لم أُجب.

تنهّد ويل وبدا صوته حزينًا:

-لم أكن أنا من فعلت ذلك يا آيمي، لم أكن أنا، هل تسمعينني؟ من فضلك صدّقيني، لم يكن لدي أي فكرة عن وجودها هناك.

قلت له حائرة:

-حقًّا ليس أنت؟ لكن... كيف وصلت إلى هناك... وأين...؟

فكّر ويل للحظة، ثم قال كمن وجد ضالته:

-أعتقد أنني أعرف الآن من أخذها.

ثم نظر إليّ مباشرة في عيني ولم أستطع رؤية أي ملامح للكذب في عينيه بينما كان يتابع:

-الليلة، عندما استيقظت من أحد كوابيسي، كانت الفتاة الصغيرة مستلقيةً على السجادة أمام الأريكة، اعتقدت أنها كانت نائمة هناك وتركتها لحالها، لكن الآن أظن أنها قد أخذت الأفكار، هل تتذكرين؟ لقد أمسكناها عندما كانت تعبث بأشيائي أول أمس، ربما تركت هذه الأشياء هنا عندما هربت منّا، حسنًا، من الواضح أنها عادت لتأخذها ببساطة مرة أخرى.

أغمضت عينيّ وفتحتهما أكثر من مرة وأنا أفكر، ما كان يقوله كان منطقيًّا! كان له معنى رائع! وهذا الشعور قتل الخوف والألم وكل الأفكار المروّعة في داخلي بضربة واحدة.

ألقيت بنفسي بين ذراعي ويل من الفرحة ببراءته، والتصقت به بشدة حتى إنني عضضت شفته عندما قبّلته، لكنه لم يستأ. عدنا إلى الطريق الموحل، قبّلته مرة أخرى وقبّلني. فكّت يدا ويل العقدة الفوضوية في شعري ودُفنتا فيه بينما اختفت كل الأفكار السلبية من

رأسي.

لكن الأفكار السلبية لم تذهب إلى الأبد، قلت عندما التقطنا أنفاسنا:

-إذًا فإن للصغيرة علاقة بالسرقات.

أومأ برأسه، وبدا شعره أشعث أكثر من المعتاد، وكانت شفتاه أكثر احمرارًا وهو يقول:

-يجب أن نعرف المزيد عنها على وجه السرعة.

بعد نصف ساعة كنّا نسير عبر الجزيرة جنبًا إلى جنب، لم تكن ستروماساي كبيرة وكنت أعتقد أنني قد رأيت كل زاوية في تلك الجزيرة بالفعل، لكنني وجدت الآن أن هذا لم يكن صحيحًا على الإطلاق. قادني ويل إلى الشاطئ ومن هناك شمالًا على طول المياه، وسرعان ما ظهرت قلعة ماكاليستر بجانبي وأذهلتني، فلم أكن قد رأيت القلعة من هذا الجانب قط. بدت أبراجها المتحدية أعلى من الجانب الأرضي، وكأنها أصابع عملاق قبيح تخدش السماء. كان الحجر الأسود الذي استخدمه أسلاف ويل لبناء القلعة مساميًّا ومليئًا بالشقوق والأعشاب الضارة، كما كانت هناك بوّابة مسدودة من جهة الشاطئ، وخلفها ممرّ يأكل بعمق أحشاء الأساسات، أوضح ويل لي أنه يؤدي إلى الأبراج المحصّنة القديمة حيث كانت عائلة ماكاليستر تحبّ دائمًا تجويع أفراد قبيلة لينوكس.

ومع ذلك، لم تكن القلعة أقصى نقطة في شمال ستروماساي كما كنت أعتقد سابقًا، فخلفها تمتدّ عدة طرقات من الأحجار الخشنة بدت

وكأنها تشقّ طريقها إلى البحر الرمادي الصخري، كانت ضيقة جدًّا حيث لا يمكن البناء عليها، وبمرور الوقت فتحت المياه عددًا لا يحصى من الكهوف والوديان فيها، ممّا جعلها تبدو وكأنها سلاسل جبلية صغيرة. لم يكن هناك المزيد من الممرات، وضاق الشاطئ وتوقف تمامًا في النهاية، مستعمرة فقط من الببغاوات تعيش هنا وتنظر إلينا بريبة.

حينها توقّفنا.

قال ويل وهو يضع ذراعًا حول كتفي:

-مرحبًا بك في نهاية العالم.

تنهّدت، وقد أعجبني جمال طبقات الصخور التي تتخللها الأمواج، لكنني كنت خائفةً قليلًا من حمل خطواتنا أبعد، وفقًا لمهارتي المحدودة وحوادث تعثر قدميَّ المتكررة، ستكون معجزة لو تمكنت من الوصول إلى إحدى القمم دون وقوع حادث، أليس كذلك؟

يبدو أن ويل كان يفكر في الشيء ذاته. انزلق بصره على حذائي الخفيف المصنوع من الكتان وقال:

-علينا أن نكون حذرَين، تحت سطح الماء توجد صخور ذات حواف حادة في كل مكان ولا يمكن رؤيتها؛ لذلك إذا وقعت في الـ...

قاطعته وأنا أضحك:

-هذا هراء، سنفعلها. لحسن الحظ، أنا لست فتاة خرقاء كما تعلم.

في اللحظة الحاسمة، تسلّقت أفضل حجر تالٍ يبرز من الماء وانزلقت على الفور على كتلة من الطحالب بدت هي الأضخم. في الثانية التالية، كنت على ركبتيَّ في الماء ومددت يديَّ لويل.

قال ويل وهو يسحبني إلى أعلى:

-أنت على حق، ستكون مثل لعبة أطفال.

ثم أمضينا الساعات التالية نتدافع على طول لسان الشاطئ، باحثَين ومحدِّقَين في كل كهف وخلف كل حافة. كان هناك شَقّ تفوح منه رائحة العرق ولكن لا أحد فيه، دفعتنا الريح وقاومناها بعزم ولم تكن الصخور أقل زلقًا للأسف. مرارًا وتكرارًا انزلقت قدمي وكان لا بد أن ينقذني ويل، وفي كل مرة كاد السقوط يكون حتميًّا، حتى إنّني كدت أهوي على رأسي في البحر وربما كنت سأحطم جمجمتي على الصخور التي كانت تلمع تحت الماء إذا لم يمسك ويل بمرفقي ويسحبني بقوة لإنقاذي.

بعد لحظات تعثري، كان ويل يسلّط مصباحه على كل فتحة، مهما كانت ضيّقة، لكن كل ما وجدناه كان عبارة عن برك صغيرة بمياه خضراء وأعشاش طيور مهجورة. على الأقل في أول شقّين. فقط عندما كان الوقت قد مرّ بالفعل ووصلنا إلى قمّة الرأس الثالث للصخور، انزلق مخروط الضوء فجأة فوق شيء آخر، شيء لا ينتمي إلى هذا المكان.

كان الكهف مختبئًا خلف ستارة من الطحالب، لم نكن لنلاحظه على الإطلاق إن لم يكن في اللحظة نفسها التي مررنا فيها قد دخل

أحد الببغاوات ذات الألوان الزاهية، ذلك الطائر كان قد اختلس النظر من خلال الشجيرات، ثم طار بعيدًا عندما فتح جزءًا في ستارة الطحالب، شققنا طريقنا بين الطحالب والنباتات وتركنا ضوء النهار خلفنا، لم يكن كهفًا كبيرًا على نحوٍ خاص، في الواقع كان أوسع قليلاً من كَوَّة، ولم تكن الطفلة هناك، ومع ذلك، كنّا قد وصلنا إلى غايتنا.

راح ويل يسحب الهواء إلى رئتيه ثم يزفر في نفس حاد.

همست:

-ماذا؟

لكن لم أحصل على إجابة.

بدا صوت الأمواج باهتًا في ذلك المكان، كما لو كان بعيدًا، كانت جدران الكهف رطبة وجميعها مغطّى تقريبًا بالنباتات البحرية. في مكان واحد فقط، فوق ما بدا كسرير بدائي، كانت هناك صخرة، ظل الضوء المنبعث من المصباح عالقًا هناك، ليلتقط الحروف الحمراء المتلألئة:

لقد استيقظت

وقفنا هناك، وزحفت قشعريرة باردة أسفل ظهري.

كان الطلاء مجعّدًا كما لو أن شخصًا ما قد حاول خدشه، حدّق ويل طويلًا في الكلمات، أستطيع أن أقول من خلال النظرة على وجهه إنه كان يفكر في هولمز.

تركته بينما كنت أتفقّد ما اعتقدت أنه سرير، وكان أول شيء

لاحظته أنه لم يكن سريرًا طبيعيًّا على الإطلاق، إنما فقط يبدو مثل الصخرة الممهّدة وقد نما عليها نبات متسلّق من الأرض وطحالب، بل وفُرش بالنباتات البحرية وبقايا السفن، وبمرور الوقت لا بد أن طبقة سميكة مثل المنضدة قد تشكّلت. كانت ذلك الفراش من النباتات والطمي مبسوطًا في المنتصف، جسد ما كان قد ترك بصمة هناك، كانت البصمة المطبوعة على ما بدا مثل المنضدة بحجم طفل ولاح كما لو كان هذا الطفل مستلقيًا في سرير من الطحالب لفترة طويلة، إلى درجة أن النباتات المتسلقة قد نمت من حوله. يمكنك أن ترى أثر منحنى الرأس، وشكل الكتفين، وحتى أثر القدمين واليدين، كأن الجسد لم يتحرّك شبرًا واحدًا أثناء نومه الطويل، كم من الوقت كان عليك أن تمكث بلا حراك للسماح لشيء كهذا بالظهور؟

تحسست بيدي النباتات المتسلّقة والطحالب بحثًا عن الكرات الزجاجية المتلألئة، لكن الأفكار الأساسية لم تكن هنا أبدًا كما لم نجد الطفلة، ومع ذلك في المقابل اكتشفت شيئًا آخر، شيئًا يشبه القوس المعدني، كان خشنًا من جانب واحد وممتلئًا بالطحالب والأعشاب الضارة من الجانب الآخر، أخرجته من تشابك النباتات وقلت لويل:

-ويل، هلاّ تسلّط الضوء هنا عندي لحظة؟

أطلق ويل مخروط الضوء نحوي.

ما بدا للوهلة الأولى يشبه شظايا السفن المعدنية كان في الحقيقة مغلّفًا بحجارة شبه مستديرة، وكانت هذه الحجارة متّسخة، عندما خدشت طبقة الطمي التي كانت فوقها، توهّج شيء أحمر فجأة بين

أصابعي، غطّست الشيء في بركة من الماء على الأرض وفركته بكمّ سترتي حتى سقط المزيد والمزيد من الأوساخ، وفي النهاية ظهر الياقوت! لم يكن القوس في يدي قطعة غريبة من حطام السفن كما تخيّلت، بل قد كانت تاجًا.

سألني ويل:

-هل هذا تاج؟

هززت كتفي حائرة وقلت:

-من المحتمل.

ثم مررت بإبهامي على إحدى الجواهر وكأنني أتأكد أكثر واستطردت:

-نعم، أعتقد ذلك.

-ماذا يعني ذلك؟

تجوّلت بنظري مرة أخرى على أثر الجسم الصغير فوق ما يشبه السرير، من الواضح أن الطفلة كانت مستلقيةً هنا، ربما لفترة طويلة حقًّا، أتكون تلك الفترة لسنوات عديدة؟ فكرت في الأمر لفترة من الوقت بينما كان ويل يفحص الإكليل، قلت أخيرًا:

-إنها شخصية من كتاب، يجب أن تكون واحدة منهم، نوعًا من الأميرات أو شيئًا من هذا القبيل، بل وأعتقد أنها تأتي من أسطورة جلين وكلايد وديزموند نفسها.

هتف ويل متفاجئًا:

-ماذا؟ ما الذي يجعلكِ تظنين ذلك؟

-حسنًا، لقد سرقت قصاصات المخطوطة ومن الواضح أنها كانت ترقد هنا قبل ذلك بوقت طويل، أليس كذلك؟ انظر كيف نمت النباتات حول أثر جسدها، ألم تقل إن شخصيات الكتاب تأخذ قيلولة طويلة كل مائة عام؟

-نعم، ولكن لأكثر من ثلاثمائة عام؟ علاوة على ذلك، لم ينجُ من الحريق سوى الثلاثة.

-ربما فقد أسلافنا المسار في الفوضى في ذلك الوقت ولم يعرفوا كم شخصًا نجا بالتحديد.

بدأ ويل يحاول التصديق وقال وهو يترك نفسه للسقوط على فراش الطحالب الزلق:

-نعم، بالتأكيد! لم يلاحظ أحد ذلك، وعندما استيقظت، كتبت ذلك هنا على الحائط وكتبت الجملة نفسها خلف الموقد عندي، أم ماذا تعتقدين؟ ألا تبدو القصة غير قابلة للتصديق؟

اعترفت:

-حسنًا، هذا غريب حقًّا.

ومع ذلك، شعرت أن قطع الأحجية كانت تتجمع تدريجيًّا في رأسي، فتمتمت:

-رغم غرابة القصة، فإنني متأكدة من صحة ما أقول، إنها أميرة من أسطورة ديزموند وتريد العودة مرة أخرى؛ لذلك هي بحاجة إلى

أفكار من عالم الكتب، هل ترى؟ إنها تريد إصلاح المخطوطة!

غمرتني رعشة ارتياح الآن بعد أن فهمت أخيرًا ما كان يجري، عرفت فجأة ما يتعيّن علينا القيام به، قلت له:

-إذا استطعنا معرفة المزيد عن القصة المحترقة، فسنكون على علم بالطريقة التي كانت تسير بها الأحداث ونوقفها، إذًا...

قاطع ويل سيل كلماتي المتحمس:

-آيمي، ما الذي تتحدثين عنه؟ أي طريقة؟ وكيف يمكن أن يكون هناك فجأة وسيلة لإصلاح المخطوطة؟

جلست بجانبه وأخبرته عن نظرية فيرتير وقائمة الأفكار المسروقة:

-يعتقد فيرتير أنه بمجرد أن يتحكم السارق في عشر أفكار أساسية، يمكنه إنشاء قصة جديدة بالكامل، عندها ستتمكن من إعادة تجميع بقايا قصة مدمرة، هل فهمت ما أعنيه؟

نظر إليَّ للحظة وهو يفكر ثم أومأ برأسه:

-حسنًا! لذلك نفترض أنها وجدت طريقها إلى عالم الكتب وتريد إصلاح الملحمة الخاصة بها... وإذا اكتشفنا أي الفكرتين ما زالت تحتاج...

-بالضبط، ثم يمكننا منعها ومواجهتها.

استقر تعبير قاتم على وجه ويل، والتمعت عيناه السماويتان وهو يقول:

-وبعد أن ننجح في ذلك فإنني سأكون متحمّسًا جدًّا لسماع

تفسيرها لما فعلته بهولمز.

أخذت يديه في يدي وضغطت عليهما، حين لاحظت أنه يجزّ على أسنانه لتذكر هولمز، كانت عضلات وجهه ترتعش فقلت له وأنا أخرجه معي من الكهف:

-تعال، هيا لنخرج.

لكي نكون في الجانب الآمن، بحثنا أيضًا في قمة الصخرتين الرابعة والخامسة عن الأميرة، فقد كان من الممكن بطريقة ما أن تكون مختبئة بالقرب منا، لكن لم نجد في أي كهف أشياء مثل سرير من الطحالب أو تاج من الياقوت الأحمر الدموي، ولا حتى أثر موحل لقدم طفل على الحجارة.

عندما عدنا أخيرًا، كان المساء قد أسدل ستائره وكل عضلة في جسدي تؤلمني، بينما كنّا نسير على طول الشاطئ، مرورًا بقلعة ماكاليستر ومقبرة الغواصة الصدئة، ما كانت أفكاري ما تنفكّ تدور حول الأميرة وخطّتها. من ناحية، شعرت بالارتياح لأننا توصلنا أخيرًا إلى نظرية مفيدة، ومن ناحية أخرى، كان لدي شعور بأن شيئًا ما حول هذه المسألة لا يزال غير صحيح، لكن ما هو؟ صور ضبابية لفيرتير ومطارداتي للّص ظلت تحوم في ذهني، كان هناك وعي كامن في تلافيف دماغي بفكرة ما، شعرت بها، لكن كلما حاولت الإمساك بها أكثر، تلاشت أفكاري.

ويل أيضًا بدا مستغرقًا في تفكير عميق، وتراءى لي وكأن نظرته قد ضاعت في مكان ما داخله، كلانا كان عليه أن يستوعب ما

اكتشفناه، وكان هناك الكثير للوقوف عنده! أشياء مهمة لم نتمكن من التفكير في كل جوانبها الضائعة.

في المكتبة السرية، قبّلني ويل على وجنتي ونزل الدرج الحلزوني ليسأل جلين وكلايد عن أسطورتها، كنت سعيدةً جدًّا لتفادي جلين بعد تخطي الفصل دون عذر، واستمررت في السير نحو منزل لينوكس لمقابلة ديزموند، لقد أمضى اليوم مع أليكسيس وربما كان لا يزال معها، فكرت أنه ربما يمكنه أن يساعدني.

بينما كنت أعبر الحديقة، كانت الرياح تهب بالفعل حاملة معها أصوات أليكسيس وديزموند نحوي، وقد بدت قادمة من فوق فأوقفت سيل أفكاري في الوقت الراهن. تتبعت الأصوات إلى أعلى وصعدت أخيرًا بعد بضع دقائق عبر الفتحة إلى سطح القصر، سرعان ما تدحرجت من الكوة إلى النافذة حيث كان والداي يجلسان فيها وهما يشعران بالاسترخاء.

ابتسما عندما رأياني، ولاحظت سلة طعام موضوعة بينهما، كان كل واحد منهما يحمل ككأسًا من النبيذ. وبينما كانا يجلسان هناك، جنبًا إلى جنب، بوجنات متوهجة وعيون مشرقة، بديا وكأنهما مثال للسعادة.

جلست بجانب أليكسيس، التي استقبلتني بإحدى البطانيات القديمة حول كتفي وقالت:

-يا طفلتي الزرافة كيف حالكِ، يبدو عليكِ الإرهاق.

دفع ديزموند طبقًا من الشطائر نحوي ثم سألني:

-هل تريدين؟

أومأت برأسي موافقة، حتى أني لم أكن قد لاحظت مدى جوعي، لكن في تلك اللحظة أدركت أنني لم أتناول أي شيء منذ شريحة الخبز في ذلك الصباح، ربما لهذا السبب لم أعد أستطيع التركيز جيدًا؟

شرب أليكسيس وديزموند نبيذهما بينما كنت أتناول شطيرة تلو أخرى، وكان الضباب الذي استقرّ في ذهني يتلاشى شيئًا فشيئًا مع كل قضمة، كانت هناك شطائر نباتية مع الخضراوات المشوية والحمص، ولكن كان هناك أيضًا بعض التونة والجبن في الأعلى. واحدةً تلو الأخرى، دخلت ثلاث شطائر من كل نوع في معدتي، بينما كنت أمضغ، شاهدت الشمس تغرق في البحر وتسللت السيدة مايريد عبر البوابة الحديدية إلى المستنقع مرتدية سترة من الصوف قبيحة ألوانها تمامًا مثل تلك التي كنت أرتديها، كنت قد شبعت أخيرًا حتى صرت جاهزة للحديث عن سبب مجيئي إلى هنا.

بدأت بسؤال ديزموند دون مزيد من اللغط:

-في قصتك، هل كانت هناك أميرة أيضًا؟

اختنق وسعل وكأنه قد تفاجأ:

-أستميحك عذرًا! ماذا... آه، أجل، نعم، كان هناك.

ثم حاول تسليك حنجرته بمزيد من السعال وأكمل:

-أنت تعرفين ذلك يا آيمي، لا بدّ أنني قد أخبرتك بالفعل، لقد جئت من قصة خيالية، هناك كنت فارسًا أرسلته أميرة لقتل وحش.

كنت أعرف بالفعل قصة الفارس مع الوحش، لكنني لم أكن متأكدةً ممّا إذا كان ديزموند قد ذكر لي الأميرة من قبل، فسألته:

-هل كانت... ما تزال طفلة؟

أنزل جفنيه وقال بهدوء:

-نعم.

-كيف كانت تبدو؟ هل كانت ترتدي تاجًا مرصّعًا بالياقوت؟ كم كان عمرها تقريبًا؟

وضع ديزموند طبقه الزجاجي بقوّة على السطح وهو يقول:

-لماذا تريدين أن تعرفي كل هذا؟

ثم أبعد نظره عني واستطرد:

-لا أحب الحديث عن موطني... لا يزال الأمر صعبًا بالنسبة إلي.

-لم أكن لأسألكَ أيضًا إذا لم يكن الأمر مهمًّا، لكن الأمر يتعلّق بالسرقات في عالم الكتب، قد يكون لديَّ أنا وويل دليل و...

رفع ديزموند حاجبيه:

- هل يؤدي هذا إلى قصتي بطريقة ما؟

نظرت إليَّ أليكسيس بفضول منتظرة إجابتي.

قلت:

-على الأقل هذا ما يبدو عليه الأمر، ألا يمكنك إخباري بالمزيد عن المحتويات؟ هذا الوحش، على سبيل المثال، هل كان تنّينًا أم ماذا؟

فجأة اخترقتني نظرته، وكأنه أصبح شديد الغضب:

-لا! ماذا قال لك كلايد وجلين؟

قلت بسرعة:

-لا شيء، لم يخبراني بشيء.

وحين هدأتْ ملامح ديزموند قليلًا أضفت:

-أنا... أريد فقط أن أكتشف بعض الأشياء، هل حدث إعصار بالصدفة؟ أو حدث نوع من التحول؟ تمامًا مثلما دخل جريجور سامسا في طور الخنفساء، أو كما تحول د. جيكل إلى السيد هايد، أعني...

قاطعتني أليكسيس قائلة:

-آيمي، قصة ديزموند كانت حكاية خرافية من القرون الوسطى.

قلت:

-وماذا في ذلك؟

لم يقل ديزموند شيئًا إضافيًا، بل شحب وجهه وكان يحدّق في نقطة ما من مكان ما في عتمة الليل.

إذ من هناك تناهى إلى مسامعنا فجأة صوت بكاء طفل، بدا الأمر وكأنه نوبة بكاء حزينة لفتاة صغيرة.

عندما عرفت الأميرة بموت الفارس، بكت.

بكت بمرارة.

مَن يمكنه أن يحميها من الآن فصاعدًا؟

من يمكنه أن يقاتل من أجلها الآن؟

كانت الأميرة خائفة، والخوف نفسه كان أسوأ من أن تكون وحيدة، كان الخوف هو الوحش الذي يضربها بمخالبه الحادة.

وحش رهيب.

(16)

الأميرة

لقد وجد السيدة عند الفجر.

لم يكن ويل قادرًا على العودة إلى النوم بعد أن غرق في العرق إثر الاستيقاظ من كابوس آخر، ارتدى ملابسه وخرج للسير في الشفق الضبابي، وكان قد فكر في إخراج كلب باسكرفيل من روايته واللعب بالعصيِّ معه، على الرغم من أنه كان قد تعهّد بعدم وضع قدمه في قصص شيرلوك مرة أخرى، وقد قفز إلى عالم الكتب حصريًّا من قصة بيتر بان لعدة أيام، ولكنه كان قد افتقد الكلب أكثر ممّا أراد أن يعترف به؛ لهذا السبب كان يحتفظ دائمًا بكلا الكتابين في جيوب معطفه، تحسّبًا من تغيير رأيه، إذا جاز التعبير. التفكير جعل ويل يشعر بالضغط على صدره، فقد فكر في أنف الكلب الكبير الرطب، وعينيه الوفيتين، وخفوفه التي هي بحجم الصحن، هل كان هذا هو الوقت المناسب لرؤيته مرة أخرى؟

لم يعد يستطيع الإجابة عن أسئلته لأن عينيه قد وقعتا عليه في تلك

اللحظة، حاول التقاط أنفاسه المرتبكة، اعتقدَ أن الكلب كان نائمًا هناك، رأى الكلب يرقد بين النباتات وليس بعيدًا عن كوخه، وكأنه كان ينتظره، لكن بالطبع لم يكن ما رآه صحيحًا؛ فلم يحرّر أحدٌ الكلبَ العملاق من قصته، وما زال يطارد المجرمين في المستنقع الأدبي للرواية وليس الحقيقي في سترومساي. كان الجسد القابع بين الزهور الأرجوانية الصغيرة نحيفًا جدًّا بالنسبة إلى الكلب ولم يكن أشعث على نحوٍ مبالغ فيه، كان جسمًا بشريًّا، كان السيدة مايريد.

جلس ويل على ركبتيه بجانبها.

كانت السيدة صامتة بعينين مغلقتين، بدت أصغر بكثير من المعتاد، هشَّة مثل دمية، كانت مستلقية على ظهرها، إحدى يديها على بطنها والأخرى بجانب وجهها، وتحوَّل حزام سترتها الصوفية ذات الألوان الزاهية إلى اللون الداكن، كما تناثر شيء مبلل على القماش، وهو شيء كان يومًا ما أحمر ودافئًا وجاء من ثقب في صدرها.

فكّر ويل في أن هذا المشهد يذكّره بما حدث لهولمز، كان هذا كل ما يمكن أن يفكر فيه. غاضبًا اقتلع مجموعة من الزهور وسحقها بيديه، هذه المرة لا يمكن أن نفترض أن معدنًا من حطام السفن قد جرحها، هذه المرة لم يكن الجسد المسجى لصديقه الأكبر والمفضّل.

ولكن لم يفُت الأوان هذه المرة.

ارتفع صدر السيدة وهبط على نحوٍ ملحوظ، كانت تتنفس ببطء، لكنها كانت تتنفس على كل حال!

هرول ويل سريعًا.

خلال عدوه سقط في المستنقع، ثم قام ووصل إلى الدائرة الحجرية، لم يكن بعيدًا، لقد كان هناك بالفعل، خطا عدة خطوات سريعة، وكانت صور رفوف الكتب في المكتبة السرية تتجول أمامه، ومعها صورة كلايد وجلين، اللذين لم يرغبا في إخباره بأدنى شيء عن قصتهما الخيالية في الليلة السابقة، كانا يقفان في ورشتهما ويساعدان في إعادة فتح مجموعة من قصائد الحب، عندما رأيا تعبير ويل وضعا الكتاب جانبًا بلا مبالاة، في الطريق شرح لهما ما حدث.

أسرع جلين معه إلى المكان الذي ترقد فيه السيدة، كان كلايد يتمتم بشيء عن أنه سيتولى مهمة إخبارهم في منزل لينوكس.

كانت السيدة مايريد ما تزال تتنفس.

تحسّس جلين نبضها.

بينما وقف ويل عاجزًا لا يدري كيف يتصرف، وراح يهتزّ في وقفته متوتّرًا.

سرعان ما وصل الآخرون، كانت أليكسيس وآيمي ما تزالان ترتديان المنامات، وكان ديزموند يحيط كتف أليكسيس بذراعه، تحدث السيد ستيفنز بشكل محموم في هاتف قديم الطراز، ثم وقفوا معًا حول الجسد الشاحب وانتظروا وصول النجدة. انتحبت أليكسيس بهدوء، وارتجفت آيمي، بينما أمسك ويل بيدها واعتصرها بين يديه.

كان قد رآها في منامه هذه الليلة أيضًا، على الأقل ذُكِر اسم آيمي، أم ماذا؟ كانت ذكرى تفاصيل الحلم تتلاشى بالفعل من عقله، لكن بقي هناك حدس. كالعادة، ظهرت جثة شيرلوك في كابوسه، لكن

هذه المرة لم يقف ويل وحده فوق الجثة، فقد كانت الأميرة هناك، كانت تحمل خنجرًا في يديها وسألته عن آيمي، لم يتذكر ويل كيف كان الموقف بالضبط، لكن يبدو أنه أجاب إجابة لم ترُق للأميرة، وبعد ذلك في وقت لاحق تذكر أنها قد بدأت بالبكاء بصوت عالٍ وهي تضرب الأرض كطفل صغير.

كانت المروحية تقترب منهم، كانت مروحتها تلفّ الهواء لفًّا، ودارت فوق الجزيرة، ربما كانت تبحث عنهم، ثم شرعت أخيرًا في الهبوط، واستقرت على أرض الجزيرة ولم يهدأ محرّكها.

فجأة حدث كل شيء بسرعة كبيرة.

قفز طبيب الإسعاف بسرعة من الطائرة وفي اللحظة التالية وُضعت كانيولا في ذراع السيدة مايريد، وقال إنه لا بدّ من نقلها إلى المستشفى، أخذها المسعفون إلى المروحية على نقالة، ذهب كل من أليكسيس والسيد ستيفنز أيضًا لمرافقة السيدة إلى المستشفى في البر الرئيس، طقطقت الأجنحة الدوّارة مرة أخرى، وارتفعت المروحية في الهواء.

راقبوها وهي تبتعد حتى تحولت إلى نقطة صغيرة في الأفق.

ضغط ويل شفتيه معًا وهو يفكر، ماذا لو كانوا قد وجدوا شيرلوك عاجلًا؟ هل كان سيؤخذ في مروحية الإنقاذ أيضًا؟ هل كان سينجو؟

كان جلين هو أول من كسر حاجز الصمت حين قال:

-يجب على أحدنا أن يخبر اللورد بما حدث.

وبالطبع كان على حق.

على الرغم من أن كل ساكن في سترومساي قد لاحظ المروحية، فإن اللورد كالعادة كان يتوقع تقريرًا رسميًّا، ويريد أن يسمع القصة بالتفصيل من أحد أفراد عائلته.

قال ويل:

-أنا سأفعل ذلك.

أومأ جلين برأسه مجيبًا:

-جيّد، ونحن سنكون في المكتبة في حال احتجت إلى مساعدتنا.

ثم غادر هو وكلايد مكان الحادث أيضًا، وأصبح ويل بمفرده مع آيمي، كانت النباتات قد أصبحت حمراء حيث كانت السيدة ترقد، وكانت آيمي لا تزال ترتجف، خلع ويل سترته وأحاطها بها، فانزلقت آيمي داخلها، بعد لحظة تشبثت بيده مرة أخرى، كما لو كانت ستغرق في منتصف المكان دونه، سألته:

-هل يمكنني أن آتي معك؟ لا أريد أن أكون وحيدة.

أجابها فورًا:

-بالطبع ستظلين معي.

معًا شقَّا طريقهما إلى القلعة.

***

كانت قلعة ماكاليستر غير مريحة ومليئة بتيّارات الرياح من الداخل كما هي في الخارج، كان نسيم البحر يتطاير عبر الشقوق في الجدران،

وكانت النوافذ متسخة وصغيرة جدًّا إلى درجة أستحالة مرور أي ضوء عبرها، ربما كانت كوّات في السابق وقد تم تزويدها بألواح، لتتلاءم مع فوّهات المدافع، ولا محل للأشعة الشمسية فيها.

قادني ويل عبر ممّرات القلعة التي بدت وكأنها متاهة من الظلال، ما زلت لا أصدق ما حدث، جدتي المسكينة! بدأت أرتجف بشدة مرة أخرى حين عاودت التفكير، لكن لم يعد الخوف هو ما جعلني أرتجف، بل تحوّل الآن وأصبح الغضب هو ما يسيطر عليَّ، كيف يمكنك طعن شخص ما في صدره ببرودة شديدة؟!

تسلل الغضب حارًّا عبر عروقي، وكان ينبض في صدغي، كنت متأكدةً من أن الجاني هو الأميرة فقط، فمن على هذه الجزيرة غيرها سيهاجم جدتي؟ ولكن ما هي المشكلة الحقيقية بالنسبة إلى هذه الطفلة؟ تخيلت كيف سأجدها أخيرًا، وكيف سأهزها حتى تشرح لي كل شيء. السرقة من الأدب كانت شيئًا كافيًا، كان فظيعًا، لكن مهاجمة شخص...! مجرد فكرة طعن شخص ما! لمع الغضب في عينيَّ، وشكّلت يداي قبضتين، بالطبع لم تكن الأميرة هنا لأضربها بقبضتي، لم يساعدني غضبي على الإطلاق في الواقع.

تنفست بعمق وقررت لمرة واحدة أن آخذ طريقة التفكير من فيرتير، وذلك يعني مقاربة الحوادث منطقيًّا، صعدت أنا وويل سلسلة طويلة من الدرج إلى أحد الأبراج الشاهقة وحاولت التركيز على التخلص من الغضب، استغرق الأمر عدة طوابق، لكن طريقة التفكير المنطقي نجحت بعد ذلك: مع كل خطوة بدت الأدلة أكثر وضوحًا بالنسبة إلي، بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى أسفل

الدرج، مثل فيرتير، كنت قد أعددت قائمة في رأسي:

افتراضات الاعتداء على حياتي:

1. كعكة مسمومة في أليس في بلاد العجائب.
2. سقوط صخرة في الدائرة الحجرية.
3. مهاجمتي بالخنجر في حلم ليلة صيف.
4. هجوم بالخنجر في ستروممساي (أصاب جدتي عن طريق الخطأ).

لقد خطر لي منذ بعض الوقت أن أحدهم ربما حاول تسميمي في بلاد العجائب، أكدت جدتي منذ البداية أن الطعام في عالم الكتب لا يمكن أن يفسد، وبما أن هذا الهجوم لم يكن المحاولة الوحيدة لقتلي، فلا يبدو أنه من السخف أن يتعمّد شخص ما تمرير الكعكة إليّ، إلا أن السمّ لم يكن قويًّا بما يكفي لقتلي فعلًا.

الشيء التالي هو سقوط الصخرة وكانت قاب قوسين أو أدنى من أن تسقط عليّ، فلا يبدو أن الحجر، الذي ربما كان يستقر هناك منذ العصور القديمة، بدأ فجأة في التحرك في اللحظة نفسها التي كنت أقف فيها تحته، بدا لي وكأنها لمسة من غير الممكن بتاتًا أن تكون مصادفة، ولحسن الحظ سحبني ويل بعيدًا في الوقت المناسب.

كان هجوم الخنجر في حلم ليلة صيف واضحًا وصريحًا، كما حدث في المستنقع الليلة، لكن بينما اختفت الأميرة مع الأولى دون أن تحقق

شيئًا، فقد أخطأتْ الشخص في الثانية، لم أكن أعرف من أين أستمدّ هذا اليقين، لكنني كنت على يقين تقريبًا من أن الهجوم كان يستهدفني بالفعل، فقد فكرت الآن في أنني قد ارتديت بالأمس السترة نفسها تقريبًا التي ارتدتها جدتي، تم العثور على السيدة أيضًا على مقربة من كوخ ويل، ربما اعتقدت الأميرة في الظلام أنها أنا في طريقي إلى ويل، ولكن لحظة... ما الذي جعل جدتي تذهب إلى هناك أيضًا؟ نفضت أي فكرة سخيفة من رأسي في الوقت الراهن. بشكل عام بدت قائمتي منطقية إلى حد ما بالنسبة إلي وقرّرت كتابتها في المنزل وعرضها على فيرتير اليوم، بقي فقط سؤال واحد مفتوح وكان ذلك للأسف الأكثر أهمية، كان السؤال عن سبب كل هذا.

ذهبنا أنا وويل إلى غرفة البرج، كانت الغرفة مظلمة ورطبة، كانت هناك لوحات لأسلاف ماكاليستر على الجدران، كان اللورد جالسًا إلى مكتب ضخم، ينقل الأرقام والمبالغ إلى دفتر الرواتب وفق الإيصالات التي سلمتها بيتسي إليه. فتح اللورد فمه عندما رآني إلى جانب ويل، لكنه لم يقل شيئًا.

سألت بيتسي:

-ماذا حدث؟

أبلغهم ويل بما حدث.

استمع اللورد في صمت، وظلت تعابير وجهه قاتمة، لكنه أبدى اهتمامًا شديدًا عندما ذُكر اسم السيدة مايريد وكل ما عقَّب به في النهاية كان فقط قوله:

-أتمنى أن تستطيع النجاة من الحادث.

وبعد أن قال ذلك زحفت قشعريرة باردة داخلي من مؤخر ركبتي، حول احتمال أن تكون جدتي... حتى الآن لم أرغب في الاعتراف لنفسي أن إصاباتها قد تكون خطرة للغاية.

كانت بيتسي أيضًا تشحب مع كل جملة نطق بها ويل، كانت كومة الإيصالات قد انزلقت منها ووقعت على الأرض، وبدلًا من ذلك أصبحت تتشبث بحافة المكتب بشدة حتى إن مفاصل أصابعها كانت قد جفّ منها الدم.

نظرتُ في عينيها بتمعُّن وقلت:

-هل أرادت السيدة مقابلتك مرة أخرى؟

جفّ حلق بيتسي وهي تتلعثم:

-ما... ما الذي تتحدثين عنه؟

تحوّل رأس اللورد إلى بيتسي، وكانت حواجبه تزحف بغضب إلى جبهته مثل اليرقات المشعرة.

قالت بيتسي بصوت يرتجف وهي تعضّ شفتيها:

-أنا... ليس لدي أدنى فكرة عمّا تعنيه آيمي... أنا...

قاطعتها:

-أنتِ تعرفين إلى أين كانت ذاهبة.

لم تُجِب، ولكي تتمكن من القيام بذلك، تركت حافة المكتب وخطت خطوتين غير ثابتتين نحو الباب، ثم هرعت فجأة من أمامنا

وهرولت على الدرج. أدرت كعبي وركضت وراءها، بالكاد سمعت اللورد يطلب من ويل التقاط الإيصالات الساقطة على الأرض.

انطلقت بيتسي بسرعة على السلّم داخل البرج، كانت تثب متجاوزة درجتين في كل مرة، ثم دلفت إلى أحد الممرات، وهرعت في خطوط متعرجة بين الردهات والغرف، لكن كان لا يمكنها أن تتخلص مني، مهما حاولت جاهدة. بدا وكأن بيتسي ستسقط أيضًا، انزلقت أخيرًا إلى غرفة بها ورق حائط وردي، كان من المستحيل الاستمرار في هذه المطاردة. لاهثة ألقت بنفسها على كرسي مبطّن أمام طاولة الزينة، وعقدت ذراعيها على صدرها ورفعت ذقنها بتحدٍّ بينما اقتربت منها، لمع على شعرها الأشقر اللونُ الأحمر في المرآة المضاءة خلفها وهي تصيح:

-ماذا تريدين مني؟

مرهقةً تمامًا من العدو، وقفت أمامها وحاولت الحصول على ما يكفي من الهواء لأتمكن من استجوابها، لا أعلم كيف تمكنت بيتسي بالفعل، حتى بعد هذا السباق عبر القلعة، من أن تبدو وكأنها المرشحة لتكون ملكة جمال تجلس قبل وقت قصير من التقاط المجلات لصورها؟ وضعت يدي على جنبي الذي كان يؤلمني وسألتها:

-ماذا... ماذا تعرفين بالضبط؟

-لا شيء، لا أعرف أي شيء.

جلست أمامها وقلت:

-بيتسي! جدتي في المستشفى وقد طعنها أحدهم طعنة قد تكون

مميتة، أفهمتِ؟ لذا أسدي لي معروفًا واتركي الإنكار جانبًا.

ثم تزايد خفقان قلبي بين ضلوعي:

-والآن أجيبيني، لماذا خرجت جدّتي إلى المستنقع الليلة الماضية؟ ما هي خطتكما؟

وضعت بيتسي رأسها بين يديها وأطلقت شهيقًا حارًّا وتمتمت:

-لقد كنت أساعدها فقط، فقد جاءت إليَّ قبل بضعة أسابيع وطلبت مني... القيام ببعض الأشياء من أجلها؛ شيئين في الواقع في عالم الكتب، أرادت مني أن أقفز من أجلها ليلًا، وأن أجلب لها بعض الأشياء: بعض الذهب، القليل من الكنوز، القليل فقط، بالكاد يمكن ملاحظته.

شهقت مصدومة:

-لقد سرقتما الأدب!

-لا، نحن... حسنًا، نعم، لقد سرقنا الأشياء، ولكن فقط من أجل سترومساي، أقسم لكِ أننا لم ننوِ أخذ فكرة واحدة، لقد قفزت فقط إلى القصص الخيالية والروايات التي يوجد فيها وفرة من الذهب على أي حال، يمكن للسلطان في قصة علاء الدين الاستغناء عن بضعة كيلوجرامات من الأحجار الكريمة، هل سبق لك أن رأيت كم هو ثري؟ لكننا أعدنا كل شيء قبل أيام قليلة على أي حال لأن جدتك أصيبت فجأة بالأنفلونزا.

-أو لأنها شعرت كم كانت مذنبة.

-هكذا تظنين؟

ثم توتّرت وهي تستطرد:

-هل تجدين أنه من الأفضل ألّا يكون هناك قافزون في الكتب بعد الآن؟

-ألّا يكون هناك قافزون في الكتب بعد الآن؟ ماذا تقصدين؟

-ثروتكم قد نفدت تمامًا، أنتم مفلسون. في رأيك، كم يكلّف الإنفاق على جزيرة لقرون وعملك هو القراءة فقط؟ لفترة طويلة كانت عائلتك ثرية للغاية، لكن عبر الأجيال... أصبحتم مفلسين، بعد أن احترقت قلعتكم واضطررتم إلى بناء قصر جديد، انحدرت ثروتكم بحدّة. بالمناسبة، لا يبدو الأمر مختلفًا كثيرًا بالنسبة إلى عائلتي، لدينا عدد قليل من المدخرات لأن قلعتنا ما تزال موجودة، ولكن ستنتهي أيضًا في مرحلة ما، لقد أردنا أنا وجدّتك ضمان استمرار وجود السلالتين من خلال إنعاش حساباتكم قليلًا وإعطاء اللورد شيئًا للقيام به، حتى نتمكن من البقاء هنا، وهكذا يمكننا القفز ويمكننا أن نستمر في الاعتناء بالأدب يا آيمي.

حدقّت فيها بصرف النظر عن حقيقة أنني كنت أتساءل لبعض الوقت عن مدى جودة الأدب الذي كنّا نتجول فيه، ربما كانت الأحداث برمّتها قد تبدلت بفعل أشخاص من الخارج على نحوٍ لا يصدق!

عقّبت على حديثها:

لا يمكننا استغلال عالم الكتب هكذا بكل بساطة، من الجيد أنك قد أعدت الأشياء إلى أماكنها مرة أخرى.

قالت بيتسي وهي تميل بالمقعد على حافة منضدة الزينة:

-أف! لقد مللت.

سمحت لنفسي الآن فقط بالنظر حولي وفهمت أن هذه هي غرفتها، كان من الواضح أنها كانت أكثر نبضًا بالحياة من بقية قلعة ماكاليستر، الكتب التي لم تعد مناسبة للقراءة على الرفوف، بينما الكتب التي ترغب في قراءتها كانت مكدسة بجانب السرير، وعلى طاولة السرير كانت هناك صورة لامرأة ترتدي فستانًا صيفيًّا أزرق فاتحًا تشبه إلى حد كبير بيتسي. بعد لحظة من الصمت قلت بهدوء:

-اعتقدت أن الأدب مهم جدًّا بالنسبة إليك، يقول ويل إنك قد تفعلين أي شيء لحمايته.

قالت بيتسي بنبرة قاطعة:

-هل تفضّلين أن نغادر سترومساي؟ ستنتهي ثرواتنا وينتهي تاريخنا إلى ذلك عاجلًا أم آجلًا، ثم ينتهي كل شيء بنّته عائلتانا على مدى أجيال؛ ممّا يعني أننا لا يمكننا القفز مرة أخرى يا آيمي!

هززت كتفي بلا ردّ، لم يكن هذا هو الوقت المناسب لإخبار بيتسي عن موهبتي الخاصة، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن وضع العائلتين المالي مصدر قلقنا الأكبر في الوقت الحالي، بعد أن قُتلت جدتي تقريبًا أو ربما كانت تقاتل من أجل حياتها في هذا الوقت.

عدت إلى الموضوع وقد لاح سؤال بخاطري:

-إذا كانت الكنوز قد عادت إلى أماكنها، فماذا كانت تفعل السيدة هناك الليلة الماضية؟

شحب وجه بيتسي مرة أخرى وتشنّجت كتفاها ثم قالت:

-كان خطئي، طلبت منها مقابلتي مرة أخرى في الدائرة الحجرية، يجب ألا نتخلّى عن سترومساي وعالم الكتب، فهما بيتي! لذلك أردت إقناعها بأخذ بعض الذهب من القصص الخيالية، لكنها... لم تأتِ.

أردفتُ قائلةً:

-لأن أحدهم أوقفها.

نظرت بيتسي إلى أسفل وهي تتجنب النظر إليّ ولم تقل سوى:

-نعم.

عندما وصلنا أنا وويل إلى عالم الكتب في وقت متأخر من الصباح، علمنا بالفعل من تعابير وجه فيرتير أن شيئًا ما قد حدث مرة أخرى، في المحبرة أخبرْنا بعضنا بما استجدّ من أحداث. بدا الأمر وكأن الأميرة قد استخدمت الليل جيدًا على نطاق واسع، ليس فقط لطعن جدتي، وإنما أيضًا لتصير هذه الفكرة التاسعة في يديها؛ لأننا في الآونة الأخيرة علمنا أن الشر قد اختفى من مرتفعات ويذرنج، وشرح لنا فيرتير أن القصة اختلفت الآن على نحوٍ لا يمكن تخيّله، حيث أصبحت الشخصيات لطيفة ومهذبة وغير عدائية كما ينبغي. في الأساس، لن يكون هناك أي من الأحداث على الإطلاق.

ناقشنا قوائمنا وتخميناتنا لبعض الوقت، ووفقًا لنظريتها فإن الأميرة كانت تفتقد لفكرة واحدة فقط الآن، لكن أي فكرة؟

ما القصة التي ستسرق منها في المرة القادمة؟ لم نحصل أنا ولا ويل على أي شيء جديد حول القصة الخيالية المحترقة حين حاولنا في الليلة الماضية، كل ما نعرفه هو أن الأمر يتعلق بفارس أرسلته أميرة لمحاربة وحش ومات في النهاية، وما نعرفه هو أن الفارس والأميرة قد نجيا من النيران، كما اكتشفنا منذ ذلك الحين، وأن كليهما يعيش في سترومساي.

سأل ويل بعد العديد من الافتراضات:

-ماذا عن الوحش؟ إذا كان قد حُرق مع المخطوطة، أفلا تحتاج إلى وحش جديد؟

هزّ فيرتير رأسه ذهابًا وإيابًا وهو يفكر:

-هذا ممكن، إنه لأمر مخزٍ أن يكون هناك الكثير من المخلوقات الرهيبة في الأدب.

ذكَّرته أنها تسرق الأفكار الأساسية فقط، قائلة:

-نعم، لكن يجب أن تكون قصةً يلعب فيها الوحش دورًا بارزًا.

خلال نصف الساعة التالية، أجهدنا عقولنا بحثًا عن وحش موجود في رواية نعرفها، ومن الممكن أن يكون مناسبًا أيضًا لقصة الأميرة، وكلما زاد عدد روايات الرعب التي نذكرها، أصبح فيرتير أكثر قلقًا، وربما كان الأمر الأكثر أهمية من الاستغراق في التفكير هو أن نسافر إلى هذه القصص لنقبض على الأميرة وننتظرها هناك كما

فعلنا في رواية التحول، وفي النهاية هدأ فيرتير وعاد إلى الإنصات ووعد بإبلاغنا بمجرد اكتشاف أي شيء.

من ناحية أخرى، عدت أنا وويل إلى العالم الخارجي لمواصلة البحث عن الأميرة. أثناء تجولنا في المستنقع، قرأنا الصفحة الأولى من بيتر بان على فترات متقطعة متّفق عليها، وقد اتفقنا أن يطلق إلينا فيرتير إنذارًا من خلالها بمجرد حدوث شيء غير عادي.

بدا المستنقع وكل مدينة سترومساي فارغًا أكثر من المعتاد اليوم، ربما لأن أليكسيس والسيد ستيفنز كانا ما يزالان مع السيدة مايريد في المستشفى، وربما لأنه في وقت مبكر من المساء هطل المطر بكثافة وكأن دلوًا يُدلق بقوّة من السماء، وأصبحت المناظر الطبيعية ملفوفة بلون رمادي لا يمكن اختراقه حتى صارت كل شجيرة شبيهةً بالأخرى.

كان من المستحيل في مثل هذا الطقس إيجاد شخصٍ إلاّ برغبة منه. في غضون فترة زمنية قصيرة جدًّا، بلّلنا المطر أنا وويل تمامًا، وكان علينا أن ندرك أنه لا فائدة من المحاولة مرة أخرى في ظل هذه الظروف، قرّرنا العودة إلى كوخ ويل، لكن قبل أن نصل إليه بقليل، سمعنا صوت شخص أمامنا وبدا منزعجًا من المطر، كدت أصرخ من الصدمة.

لم يكن الأميرة؛ بل كان شخصًا طويلًا جدًّا وعريض المنكبين حقًّا، كان شخصًا يرتدي سروالًا أزرق وقميصًا باهتًا، والزغب على خدّيه يتلألأ مثل فرو حيوان أشعث رطب، ثم نظر إلي من كثب.

قال بروك:

-آيمي؟

كانت هذه المرة الأولى التي أسمعه فيها يقول شيئًا غير الأرقام، مدّ يده الضخمة إليَّ، في البداية أردت التخلص منه، ثم لمحت المفتاح الذي كان يمسكه بيده، كان ضخمًا للغاية وصدئًا.

-ما هذا؟

قال بروك وهو يمسك بيدي ويضع فيها المفتاح:

-إنه... إنه...

كان أثقل ممّا يبدو عليه، تساءلت:

-إنه مفتاح؟

هزّ رأسه بالإيجاب وقال:

-مفتاح، آيمي، أميرة، فارس، انتبهي.

-ماذا تقصد بذلك؟ هل تعرف أين هي الأميرة؟

ثم أمسك بكتفي وجذبني نحوه حتى كاد أنفه المنحوت بخشونة يلمسني. كرر بصوت خافت هذه المرة:

-انتبهي.

ثم تركني مرة أخرى وأشار إلى المفتاح وأومأ نحوي، قبل أن أتمكن من الرد، كان قد استدار واختفى في الضباب الرمادي.

تطلعنا إليه أنا وويل بأفواه فاغرة.

شعرت بوخز في ذراعي من المكان الذي ضغط عليه بروك بقوة ثم سألت ويل:

-ما هذا الذي حدث الآن؟

هزّ كتفيه حائرًا:

-ليس لديَّ أي فكرة، لكن المفتاح يبدو مألوفًا، أعتقد أنني أعرف ماذا يفتح.

ثم أعاد خصلة من الشعر المبلل كانت ملتصقة بجبهتي وقال:

-تعالي معي!

-إلى أين؟

-إلى القلعة.

لذلك أدرنا ظهورنا إلى كوخ ويل، الذي كنّا على بعد أمتار قليلة منه، وكافحنا يدا بيد للسير خلال العاصفة. كانت الريح تحمل الأمطار أفقيًا تقريبًا فوق الجزيرة وكانت القطرات الجليدية تؤلم وجهي، لكن هذا لم يهمّني كثيرًا، المفتاح كان كالوعد بالنسبة إلي، فقد كان يقودني إلى باب، وخلف ذلك الباب كانت هناك قطعة من الحقيقة تنتظر، نعم يجب أن يكون الأمر كذلك.

وصلنا إلى قلعة ماكاليستر ودعسنا البرك في أروقة القلعة، سار ويل مباشرة إلى المطابخ القديمة، حيث كان الناس يطبخون على نار مفتوحة، وهناك فتح بابًا متآكلة قشرته الخارجية، ظهر خلفه سلّم حلزوني، قفزت إلى أنوفنا رائحة عفن، إلى جانب موجة من الهواء

البارد. نزلنا الدرجات التي تم بناؤها جيدًا، في عمق أساسات منزل عائلة ماكاليستر، وهناك سرعان ما أدركت المكان الذي تمّ فيه سجن العديد من أسلافي.

كنّا في طريقنا إلى الأبراج المحصّنة.

وصلنا إلى مكان أعمق، كان غير ممّهد وأكثر وعورة من الأنفاق التي اضطررت إلى السير عبرها في طريقي بين الصخور تحت القلعة، لم يكن هناك كهرباء، كل ما كان لدينا هو كشّاف ويل الذي تراقص ضوؤه أمامنا وفوق الصخور المتسخة. على الرغم من الجدران السميكة، كان بإمكانك سماع صوت البحر فتذكرت المدخل من الشاطئ الذي مررنا منه بالأمس فقط. هنا وهناك سُمح بوجود بعض الأبواب والنوافذ ذات القضبان في الجدران، وكانت الزنازين خلفها في سواد تام، وبدت الأقفال كبيرة وصدئة، لكن المفتاح لم يكن مناسبًا لأي منها.

واحدًا تلو الآخر، حاول ويل أن يتطلع إلى كل الأبراج المحصنة، وجميعها كانت فارغة، لماذا استخدمت عائلة ماكاليستر الكثير من الأبراج المحصنة؟ سرت قشعريرة باردة فوق ظهري حين وجّه ويل ضوء الكشاف على جمع من الآلات الغريبة، أومض من بينها شيء خشن، شيء من الواضح أنه قد استُخدم يومًا ما، شيء حاد ومؤلم للغاية.

تحسَّست حتى وصلت إلى يد ويل واقتربت منه، أصبح النفق الآن منخفضًا جدًّا حتى إننا اضطررنا إلى الانحناء، لكننا واصلنا المشي،

وفي النهاية، عند منعطف ما، أصبح النفق أكثر ضياء من حولنا. كان أحدهم قد أشعل عدة مشاعل على الحائط كلٌّ منها وُضع بين قوسين، تطايرت ألسنة اللهب وأدركنا أنّنا بلغنا آخر زنزانة محصّنة مع آخر ضوء كان يومض.

هذه الزنزانة الأخيرة لم تكن فارغة. كان فيها سرير ضيق، وعلى السرير جلست طفلة في ثوب ممزّق وشعر متسخ منتشر حولها مثل معطف، انعكس ضوء النار في العيون الداكنة، وهذا يعني أن بروك قام بما كنّا نحاول فعله، لقد أسر الأميرة، كنت أعرف أن المفتاح مناسب، حتى من دون أن أجرِّبه.

أسقط ويل الكشّاف بمجرد أن اكتشف وجود الصغيرة، اهتزت كتفاه وفكّاه بقوة شديدة إلى درجة أن أسنانه راحت تصطكّ. تردّد صدى الصوت الذي أحدثته أسنان ويل في الزنزانة ممّا جعل شعر قفاي يقف، لكنّ الأميرة لم ترمش بعينيها ولو لمرة واحدة.

للحظة بدا الأمر كما لو أن ويل على وشك الاندفاع إلى باب الزنزانة، فيهزّ القضبان ويبدأ بالصراخ في وجه الأميرة: لماذا فعلت هذا بهولمز؟ لكنه قبل حدوث ذلك جمع شتات نفسه مرة أخرى وصعد إلى الطفلة بهدوء مفاجئ، بدا أن نظراتهما تتصارع، قال بهدوء رغم أن الكلمات كانت ترتجف في حلقه:

-أعطني المفتاح يا آيمي.

كان معدن المفتاح قد دفّأ يدي. مررت بأناملي على الملمس الصدئ وفكرت في جدتي والمظهر الدموي الذي كانت ترقد فيه، فكرت في

الفوضى في عالم الكتب والقصص التي تم العبث بها بقسوة، وفكرت في هذه الطفلة التي حاولت قتلي، ثم وضعت المفتاح في جيبي وأخرجت زفيرًا حارًّا وقلت:

-لا.

نظر ويل إليَّ متفاجئًا.

فقلت:

-لا يمكن أن تسبِّب المزيد من الضرر أثناء وجودها هنا على كل حال، ويمكننا التفكير بسلام.

-نفكر في ماذا؟

قلت بصراحة:

-فيما سنفعله بها.

لوَّح ويل بذراعيه في الهواء أمام وجهي ثم تنهّد أخيرًا وقال:

-حسنًا فهمت.

أجبته فقط لأكون قد قلت شيئًا:

-اتفقنا.

كانت الأميرة الصامتة في زنزانتها شبحية وغير واقعية للغاية، لكنها كانت هناك.

وقفنا لفترة من الوقت وحدَّقنا في الفتاة الصغيرة التي كانت تميل رأسها وهي تنظر إلينا بدورها، كنت أتوقع أن تشتعل الكراهية داخلي بمجرد أن نجدها، والغضب والتعطش للانتقام، لكني انتابني الآن

شعور غير مريح إطلاقًا ومربك قليلًا؛ فقد شعرت أن المطاردة الطويلة، التي كنت أنا وفيرتير ويل نحاول أن نكسبها منذ أسابيع، قد قدَّم لنا بروك نهايتها على طبق من الفضة، ثم تساءلت في داخلي: والآن؟

مرة أخرى، حدثني عقلي بالشك في أن هناك خطأ ما في الأمر برمّته.

سألت الأميرة:

-أين الأفكار المسروقة؟ أين أخفيتِها هذه المرة؟

لكنها بالطبع لم تُجِب، بدلًا من ذلك، خفضت عينيها وابتعدت عنّا، كان ظهرها هزيلًا جدًّا ومرفقها عالقًا في الشعر المعقود، لا بد أنها كانت نصف جائعة، تسللت لمسة من الشفقة إلى ذهني، كان المفتاح ثقيلًا على فخذي، هل قلت: شفقة؟

سحبت ويل بسرعة بعيدًا عن باب الزنزانة، ولأن الكشاف كان قد انكسر عندما سقط، سحب ويل أحد المشاعل من محمله، ثم تركنا الفتاة الصغيرة، لكننا استطعنا أن نسمع كلماتها حين وصلنا إلى زاوية النفق.

قالت بصوت طفولي حاد مثل الجرس، كما لو أنها كانت تعزي نفسها:

-كانت تعرف أنه سيوقف الوحش.

خرجنا بخطى متسارعة، وركضنا عبر الممرات الحجرية وصعدنا السلم، عبر ممرات القلعة، سرعان ما صعدنا إلى المطر مرة أخرى.

أصبحت العاصفة أكثر عنفًا، واندفعت إلى البحر، كان وميض البرق قد أشعل السماء، حيث تجمعت جبال سوداء من السحب الداكنة، لكنني رحّبت بالقطرات الجليدية على بشرتي، بدا الأمر كما لو أنها أزالت حيرتي، أزالت الريح كل المشاعر، أسكت الرعد الأصوات الهامسة في مؤخرة رأسي، ثم استبدالها بأفكار واضحة وباردة، أفكار مثل الزجاج المتجمد؛ قارصة وحادة. وأخيرًا عندما مشيت في المستنقع بجانب ويل، أدركت ما كان يزعجني منذ أمس، أدركت أخيرًا ما هو الخطأ في كل شيء.

لم يكن اللص الذي قابلناه أنا وفيرتير في رواية التحوّل بحجم هذه الطفلة.

كان أكبر حجمًا.

كان طويل القامة مثل رجل بالغ.

لقد استغرق الفارس وقتًا طويلًا حتى يفهم معنى ما يحدث له.

وقتًا طويلًا جدًّا.

كيف لم يلاحظ التحوّل؟

وماذا فعل حياله؟

(17)

الوحش

لقد فاتنا إنذار فيرتير.

قضّينا أنا وويل الليلة في كوخه، نتناوب على مراقبة إذا ما اكتشف فيرتير شيئًا جديدًا وإذا ما كان سيتّصل بنا، بينما كان أحدنا ينام على الأريكة، كانت مهمّة الآخر هي مراقبة الصفحة الأولى لبيتر بان، لكن في مرحلة ما بدا أن هذا النظام لم يعد فعّالًا بعد؛ لأنني عندما فتحت عينيَّ عند الفجر، لم يكن هناك أي أثر لويل.

نسخته من بيتر بان كانت وحيدة على السجادة أمام الموقد، كان الكتاب لا يزال مفتوحًا، واكتشفت للوهلة الأولى اسمي على الصفحات عدة مرات، والذي نادى به شابٌّ كان يرتدي جوارب حريرية خلال الحدث. قرأت مباشرة بعد الجمل القليلة الأولى من بيتر بان عن حقيقة أن كل طفل يجب أن يكبر في مرحلة ما:

-آنسة آيمي! لقد عاد. الأوديسة! إنها الأوديسة هذه المرة! تعالي

بسرعة!

في هذه المرحلة، اختفى فيرتير في خلفية القصة، ولكن بعد فترة وجيزة من وصف القبلة، التي كانت مخبّأة لدى والدة ويندي في زاوية فمها، ظهر مرة أخرى:

-آنسة آيمي! أين أنتِ كل هذا الوقت؟ هل سأذهب وحدي؟

بعد بضعة أسطر كان فيرتير يركض صعودًا وهبوطًا على نحوٍ محموم:

-آنسة آيمي؟

قلبت الصفحات، في الواقع لا بد أن فيرتير سافر إلى الأوديسة دوني؛ لأن الحبكة في الصفحة الثانية تطورت كالمعتاد، لكن فيرتير ظهر في الصفحة الثالثة، وقد اقتحم القصة بين فقرتين، هذه المرة في ملابس مبللة وبدت حالته مزرية وهو يصرخ:

-آنسة آيمي! أنتِ متأخرة جدًّا! سرق اللص أحد وحوش البحر والآخر... يا للهول! ها هو ذا مرة أخرى! النجدة!

ثم اختفى من الكتاب مرة أخرى.

بينما كنت أقرأ هذه السطور، هرعت للخروج من الكوخ إلى المستنقع. أين كان ويل بحق السماء؟ لماذا لم يوقظني؟ هل قفز إلى الأوديسة دوني؟

أثناء الجري، بحثت في بيتر بان عن مزيد من الأدلة، وبالفعل

وجدت شيئًا: في الصفحة الخامسة ظهر فيرتير مرة أخرى مع صراخه عدة مرات:

-النجدة! النجدة!

متبوعًا بصوت أرجل كائن قوي تضرب الأرض من خلفه وتقترب أكثر فأكثر، ثم غادر الرواية إلى الأبد، هل أنقذه ويل بالفعل وأعاد الوحش إلى الأوديسة؟

ركضت إلى الدائرة الحجرية وعندما وصلت إلى هناك كنت متأكدةً من العثور على نسخة مفتوحة من الأوديسة تحت إحدى الأقواس، لكن يبدو أنني كنت مخطئة، لم يكن هناك كتاب واحد، لا الأوديسة ولا أي كتاب آخر، استنتجت أنه بناء على ذلك لم يكن أيًا منّا داخل عالم الأدب في الوقت الحالي، كان فيرتير يقاتل الوحش الذي كان يطارده بمفرده، وقد أهدرت وقتًا ثمينًا في الركض إلى هنا، لماذا لم أهرع لنجدة فيرتير مباشرة من الكوخ؟

اللعنة! اللعنة! اللعنة!

ثم ألقيت بنفسي على الأرض، ودفعت بيتر بان على وجهي، بعد لحظات قصار، رأيت ضباب الرسائل أمام عيني، وجذبتني إلى القصة.

***

كان ويل يتكئ على موقد قلعة ماكاليستر القديم، انجذب نظره إلى الباب الذي يؤدي إلى الأبراج المحصنة، كان الباب مواربًا، ألم يغلقه هو وآيمي بشكل صحيح في الليلة السابقة؟ اقترب منه وحاول

أن يتذكر، لكن الضباب كان يحوم في رأسه.

ونزل الخطوات إلى أسفل.

منعه الضباب من التفكير بوضوح، لم يعد متأكدًا بوضوح من سبب قدومه، إذا كان صادقًا، فإنه فجأة لم يعرف كيف وصل إلى هنا...

لا بد أنه قد نام لأنه كان يحلم بهولمز، الذي ما يزال ميتًا، وبالأميرة التي نادته: يا هولمز. كان الغضب ممّا فعلته الفتاة الصغيرة بأعزّ أصدقائه يجرح مشاعره بالفعل ويحفر في أمعائه، هل دفعه اللاوعي إلى القلعة لمواجهة الأميرة مرة أخرى؟ ليجعلها تنظر في عينيه وتشرح له سبب قيامها بذلك؟ أم للانتقام منها؟

وصل ويل إلى قمة الدرج، ثم أحاط به الظلام، ودون كشّافه اضطُرَّ إلى تحسس طريقه على طول الجدران الرطبة، لكن هذا لا يهم. امتلأت رئتاه برائحة الأبراج المحصنة، مزق الغضب بطنه وشق طريقه عبر صدره، وراحت مخالب الغضب تحكّ ضلوعه.

لماذا قتلتِ الأميرةُ هولمز؟ كيف فعلتْ ذلك؟ ماذا كان يعرف؟

تعثر ويل في الظلام، وتخبَّط تحت السقف المنخفض. انزلقت أصابعه فوق الصخرة والقضبان، حتى إنه مرت على يده حشرة مشعّرة بها الكثير من الأرجل. أخيرًا، استدار عند الركن الأخير من النفق، لم يتبقَّ سوى شعلة واحدة على الحائط، ولكن ضوءها يخترق عينيه، سحبها من محملها ودار حولها، ملوِّحًا باللهب نحو الزنزانة الموجودة خلفه.

اندفع دم الغضب إلى أذنيه الآن، لكنه قاوم الرغبة الخارقة في إلقاء الشعلة عبر القضبان في وجه الأميرة النحيلة. بدلًا من ذلك، اقترب أكثر وتطلع نحو الزنزانة، كان سرير الأطفال في مكانه، والظلال نفسها التي تربض في الزوايا كما كانت في الليلة السابقة.

لكن الأميرة غابت.

هل رحلت حقًّا؟

نعم هربت ولم تكن هناك، كان باب الزنزانة مفتوحًا.

ركل ويل الجدار الصخري غاضبًا، كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ هل أطلق أحدهم سراح الطفلة الصغيرة؟ آيمي من فتحت لها؟ أم أنها تمكنت من الهروب بمفردها؟

بدا القفل غير تالف، كما لو كان مفتوحًا بمفتاحه بكل بساطة.

اللعنة! فرك ويل عينيه بإبهامه وسبّابته، على الأقل كان الغضب قد ابتلع الضباب الذي كان قد ملأ رأسه. إذا هربت الأميرة، فربما لم يكن هناك ما يمنعها من ارتكاب سرقة أخرى، ربما تكون قد اخترقت عالم الكتب بالفعل مرة أخرى، ربما فيرتير قد أرسل إليهم الإنذار المتفق عليه بالفعل!

لماذا بحق السماء ترك كتاب بيتر بان وراءه؟ ألم يكن دوره في المتابعة والمراقبة؟

طارت قدمه عبر الأنفاق وصعد الدرج، انطلق بسرعة عبر المطبخ القديم، مرورًا بالممرات المليئة بالهواء البارد، ثم إلى بوابة القلعة، بعد بضع دقائق وصل إلى كوخه.

نادى وهو يندفع إلى الداخل:

-آيمي، عليك أن تستيقظي، أنا...

لكن لم تعد آيمي على الأريكة، وذهب بيتر بان أيضًا، عض ويل شفته بشدة حتى إنه ذاق الدم، وللحظة تجولت نظراته في أرجاء الغرفة محمومًا، كما لو كان يتوقع أن يكتشف وجود آيمي أو الأميرة خلف الموقد أو بجوار الباب، لكن بالطبع كان هذا غير ممكن، تحول ويل إلى الجهة الأخرى وركض.

لا بد أن فيرتير قد أرسل لها علامة وناداها، ربما كانت آيمي في عالم الكتب، لكن مِن غيره، ماذا لو احتاجت مساعدته؟ لماذا ذهب إلى الزنزانات الملعونة؟ كيف يمكن له أن يخذلها هكذا؟ هرع ويل إلى البوابة بأسرع ما يمكن، فقد كان عليه أن يقفز، وعلى الفور. ربما بالرغم من كل شيء كان لا يزال لديه فرصة للوقوف إلى جانب آيمي وفيرتير وإيقاف الأميرة.

بخطوات عريضة صعد التل واقتحم الدائرة الحجرية، ووجد ما كان يتوقّعه، كان بيتر بان مفتوحًا تحت أحد الأقواس، ويبدو أن آيمي قد قفزت بالفعل، ومع ذلك كان هناك شخص ما يقف وسط الدائرة الحجرية.

ضحكت الأميرة عندما رأت ويل، لم تكن ضحكة طفلة عادية بل كانت ضحكة ملكة، كانت ترتدي تاجًا بلون الدم على رأسها، قالت وهي تمدّ ذراعها وكأنها تتوقع منه أن يركع ويقبل يدها الممدودة:

-ستأتي معي.

***

كان الوحش الذي طارد فيرتير أقبح وحش رأيته في حياتي، كان يبدو وكأنه نقانق عملاقة مغطاة بألواح ضخمة، وبعد ذلك عرفت أن اسمه نقانق البوق. لسوء الحظ كان حجم النقانق بحجم القطار السريع، كان له أسنان بارزة من أحد طرفيه، تراصّت في صفوف حادة واحدة حذو الأخرى في المريء الضخم. لم يكن لهذا الكائن أعين على الإطلاق، أو على الأقل لم أستطع رؤية أي شيء يشبه العيون، وكانت أرجل الوحش صغيرة، بالكاد قادرة على تحمل وزن هذا المخلوق، وكان من الواضح أن الوحش يتحرك على نحو طبيعي في الماء.

ولكن حتى على اليابسة، لم يكن الوحش بطيئًا، عندما هبطت في كتاب بيتر بان، كان فيرتير يلاحقه عبر نيفرلاند ومن خلال الروايات المجاورة.

شهق فيرتير عندما انضممت إليه:

-الآنسة آيمي، يسعدني أن أراكِ.

تمتمت من خلال الأسنان المشدودة:

-وأنا أيضًا.

رائحة الفم الكريهة جعلتني أشعر بالغثيان فقلت:

-علينا أن نعيده إلى قصته.

قال فيرتير:

-فكرت في ذلك أيضًا، ولكن بعد ذلك أصبحت مشغولًا للغاية فقط بالبقاء على قيد الحياة.

قفز الوحش نحونا قفزة هائلة وصلت به قرب مؤخرة رأس فيرتير إلى درجة أنها قطعت القوس المخملي الذي يضعه في شعره الطويل.

تنحّينا إلى الجانب وتدحرجنا على منحدر، ثم ركضنا، أحيانًا جنبًا إلى جنب، وأحيانًا افترقنا لإرباك الوحش، ثم حاول الوحش ضربنا مرة أخرى وأفلتنا منه، وصلنا معًا إلى الأوديسة والمضيق حيث يعيش الوحش، لكنّه لم يُظهر أي اهتمام بالمكوث، لسبب ما لم يرغب في العودة إلى موطنه وكان حريصًا على أكل فيرتير.

صرخ فيرتير أخيرًا:

-لدي فكرة!

بعدها انقلبنا من جزيرة إلى أخرى، وكان الوحش لا يزال قريبًا من أقدامنا، لكننا كنا بالفعل قد تركنا الأوديسة مرة أخرى لجذب الوحش إلى الحرب والسلم هناك بين خطوط العدوّ في معركة أوسترليتز. يا للغباء! حتى قذائف المدفع لا يبدو أنها قادرة على إيذائه.

في منتصف المطاردة شعرنا بأننا نفقد قدرتنا تمامًا على التنفس، وكنّا في كثير من الأحيان نهرب بأعجوبة من فم الوحش، وراح فيرتير يشهق بصوت عالٍ حتى خشيتُ أنْ يفقد الوعي في أي لحظة؛ لذلك عندما مررنا بسلسلة من الحكايات الخرافية، اتبعت فكرة خطرت لي وسحبت معي فيرتير المتعثر إلى رابونزيل،

حيث صعدنا برجًا مرتفعًا بارتفاع ناطحة سحاب على ضفيرة الفتاة المحاصَرة. وصلنا إلى الأعلى هناك وشاهدنا الوحش يدور حول جدران البرج ويقفز مرارًا وتكرارًا، كان فيرتير يقصّ عليّ بجمل قصيرة متقطّعة ومفاجئة ما حدث قبل وصولي وأنفاسه لا تزال تتهدّج ووجهه كان محتقًا.

من الواضح أن اللص لم يكن مصمّمًا تمامًا اليوم كما كان في غزواته السابقة، لقد شوهد وهو يتجول في الأوديسة لفترة طويلة، كما لو كان مترددًا فيما إذا كان عليه فعل ذلك حقًّا والتحكم في الفكرة العاشرة. ومع ذلك، في النهاية قام بفعلته وأخذ الوحش وسرقه من بين وحوش البحر التي وصفها فيرتير بأنها أقبح وأكثر رعبًا من الوحش القابع في انتظارنا عند أسفل البرج. حاول فيرتير إيقاف اللص وتمزيق غطاء رأسه، لكن وحشًا ثانيًا انتبه إليه فاضطر إلى الفرار.

قال نادمًا:

-لم يكن لدي خيار سوى الهروب يا آنسة آيمي.

-أنا آسفة جدًّا لأنني تأخرت.

لوّح فيرتير بيديه نافيًا:

-أنا من فشل، عندما أُتيحت لي الفرصة للقبض على اللص، ولَّيت هاربًا بدلًا من إنقاذ الأرواح؛ لأنني جبان.

قلت:

-هراء، أنت واحد من أشجع الأصدقاء وأفضلهم على الإطلاق.

بدأ وجه فيرتير يتوه بأكثر كثافة ثم غمغم:

-آنسة آيمي.

ثم تحسّس يدي بيده، سحبت يدي منه بسرعة وذهبت للتطلع من النافذة ونظرت إلى الوحش، لقد حاول بحماس شديد تسلق البرج بأرجله التي تشبه أرجل الزواحف.

فكرت في إمكانية وجود حيلة ما تصلح لتهدئته، سألت:

-هل تعرف أي شيء عن أحداث الأوديسة؟ كيف تحارب الشخصيات الوحش؟

قال فيرتير:

-امممم، أعتقد أن أوديسيوس سيتجنبها قدر الإمكان.

اندهشت:

-يتجنبها؟ هل هي فتاة؟

أومأ فيرتير برأسه:

-اسمها تشاريبديس وهي تخلق دوامات مميتة.

لذلك كان اسم الوحش هو نقانق البوق، اسم قبيح مثل شكله الخارجي. قلت مشيرةً إلى الفم المليء بالأسنان حتى يكاد ينفجر:

-إذا سألتني عن رأيي، فإنها مميتة جدًّا ولا تحتاج إلى دوامة.

تنهّد فيرتير وتحسّس مؤخرة رأسه وهو يقول:

-نعم هذا صحيح.

عندها فقط لاحظت أن الوحش لم يقضم فقط القوس الذي يضعه في شعره، إنما قضم جزءًا كبيرًا من ذيل شعره، ثم أضاف:

-لكن بوجودك هنا لن تتمكني من إحداث فرق، يجب أن تقفزي مرة أخرى إلى العالم الخارجي وتحاولي إيقاف اللص من هناك، ربما يا آنسة آيمي لم تصل الفكرة الأخيرة بعد إلى الزنزانة حيث توجد الأميرة.

كنت أعرف أنه كان على حق، وصرت خائفة لبعض الوقت من حدوث شيء فظيع لسترومساي بمجرد أن تمتلك الأميرة جميع الأفكار العشرة، سألته:

-وماذا عنك أنت، ماذا ستفعل؟

كان لدي شعور بأنني سأترك فيرتير في خطر مرة أخرى.

قال وهو ينظر في اتجاه رابونزيل ويبتسم:

-حسنًا، سأبقى هنا مع هذه الفتاة الجميلة بعيدًا عن الوحش.

فأشارت له رابونزيل موافقة بخجل.

صحت وأنا أجرّ حجرًا ضخمًا من الحائط:

-حسنًا، سأعود إليك بأسرع ما يمكن.. اعتنِ بنفسك، اتفقنا؟

ثم طويت الصفحة فوقي، وعدت إلى الصفحة التي أتيت منها في كتاب بيتر بان بأسرع وقت ممكن، ومن هناك قفزت مرة أخرى إلى سترومساي.

أدركت أن شيئًا ما كان خطأ بمجرد أن هبطت قدماي هناك.

سمعت صوتًا عاليًا يقول:

-تعالي إليَّ.

ثم اكتشفت وجود الأميرة في وسط الدائرة الحجرية، بينما يقف ويل على يساري وعيناه مثبتتان على الصغيرة، بدا مرتبكًا كما لو كان يعاني من صعوبة في التفكير بوضوح.

وقفت على قدمي وأخذت يده ثم همست له:

-أين كنت؟ ولماذا هي حرة طليقة؟

ولكن قبل أن يجيب ويل، ضحكت الأميرة بصوت عالٍ وصاحت:

-رائع! هذا رائع! إذًا ستصحبانني أنتما الاثنان.

ثم التقطت بعض قصاصات الورق المحترق من أعماق ردائها وتركتها تتناثر تحت إحدى البوابات، بعدها وضعت اثنتين من كرات الأفكار الأساسية المتلألئة أمامها. في إحدى الكرات، طفت زهرة الأمير الصغير، وفي الأخرى قفز الأرنب الأبيض من أرض العجائب، ثم دمجهما مع بقايا المخطوطة، وفجأة ظهرت عدة صفحات خالية من العيوب؛ لذا كان الأمر كما توقعنا: لقد أرادت إصلاح قصتها، بل لقد فعلت ذلك حقًّا.

تسارعت ضربات قلبي.

ابتسمت الأميرة، ثم قالت مشيرة إلى الصفحات الجديدة:

-تعاليا الآن.

لكن بالطبع لم أتزحزح من مكاني، ودون أن يرفّ لها جفن، زرعت الأرنب والزهرة في قصتها، والآن تريدنا أيضًا أن نسافر معها إلى حكايتها الخيالية ذات الأفكار المسروقة، وكأن كل ما فعلته ليس سيئًا أبدًا؟ ماذا كانت تعتقد تلك الفتاة الصغيرة؟

قلته لها:

-إذا كنتِ تعتقدين أننا سنقفز إلى هناك معك، فهذا يعني إذًا...

قاطعتني الأميرة قائلة:

-نعم هذا بالضبط ما أعتقد أنه سيحدث.

وفجأة لم تعد تبدو مثل الطفلة نصف الجائعة التي تعرفنا إليها أول مرة، بل انعكس عمرها الحقيقي في عينيها. لم تكن هناك فتاة صغيرة أمامنا، لقد كانت أميرة عمرها قرون، بدت وكأنها شخص لم يعتَدْ على رفض أوامره وهي تقول:

-أنا آمركما.

هززت كتفي ساخرة، هل كانت ستجبرنا على القفز بالقوة أم ماذا؟

كررت الأمر قائلة:

-أنا آمركما.

كانت لا تزال تبتسم وهي تستطرد:

-وإذا لم تفعلا ما آمركما به، فسأحطمها على الصخور.

ثم أخرجت المزيد من الأفكار الأساسية من جيب ردائها، تعرفت فورًا على الإعصار والنوم الذي يخص الجميلة النائمة وأصبت

بالرعب، نعم، يبدو أنها كانت تعرف كيف تجبرنا، وللأسف كانت طريقتها ناجعة للغاية.

همست الأميرة:

-سوف أدمّرها كلها دمارًا لا حياة بعده.

تلعثمت:

-إذًا... ستبقى مخطوطتك كومة من قصاصات الورق المحروق.

-هراء، ما يزال هناك الكثير من الأفكار في الأدب يمكن سرقتها.

حدقت فيها متأملة توهج الأفكار الأساسية بين يديها النحيلتين قليلًا: الإعصار الذي دونه لم يعد ساحر أوز موجودًا عمليًّا، يدور في كرة بلورية. بدت الجميلة النائمة هادئة كما كانت مستلقية ونامت بينما كانت تتسلق الورود الضخمة في غرفتها. لم أكن لأترك الأميرة تحت أي ظرف من الظروف تدمّر القصتين، حاولت التماسك وأنا أسألها:

-لكن لماذا؟

كنت أفكر بعمق ماذا عليّ أن أفعل، كان دافعي الأول هو أن أكسب وقتًا حتى أتمكن من الانقضاض عليها، لكن كان يخيفني احتمال أنها ستكسر الأفكار قبل أن أصل إليها.

سألتني الأميرة:

-لماذا ماذا؟

-لماذا يجب أن نأتي معك؟

حاولت أن ألفت انتباه ويل بنظرة من زاوية عيني، كان ما يزال يبدو مرتبكًا، هل سأكون قادرةً على إعطائه إشارة غير واضحة للأميرة؟ ربما لو قمت بإلهائها يمكنه أن...

-أحتاج إليكما من أجل قصتي، ما زال فيها الكثير من الفراغات هنا، والآن تعاليا فورًا.

حاولت أن أفكر، لكن ظلت الفكرتان نفسهما تدوران في رأسي كل منهما حول الأخرى، سوف تدمر القصص، وكان علينا ربح الوقت، فسألتها:

-كيف خرجت من الزنزانة؟

بدلًا من الإجابة، أخرجت الأميرة فكرة أخرى، كانت لوحة الشاب تطفو في الكرة وتنظر إلينا بعيون واسعة، لا بد أن هذه كانت صورة دوريان جراي. في اللحظة التالية، تطايرت الفكرة المتلألئة في الهواء وتحطمت على إحدى الصخور.

كانت الرنة تصمّ الآذان.

فتح الرجل في الصورة فمه بدهشة.

ثم ذهب إلى الأبد، وقفت هناك متحجرة ولم أستطع أن أرفع عيني عن الزجاج المكسور.

فعلت ذلك بكل بساطة! فعلته حقًّا.

كانت الأميرة ترفع بالفعل كرات الأفكار الأساسية المتبقية فوق رأسها وتستعد للإلقاء بها، لكن كنت ما أزال متسمرة في مكاني من

الدهشة لا أستطيع التحرك، كيف يمكن أن تتحول الأفكار إلى شظايا على العشب وتصبح غير مرئية؟ لم يبقَ شيء من وميضها، لا شيء يذكِّر بالفكرة التي كانت تحتويها الكرة الزجاجية.

مدت الأميرة يدها وألقت الجهال النائم بعيدًا.

كان ويل هو الذي تدخل في تلك اللحظة، في ثانية واحدة ألقى بنفسه بين الفكرة وبين الحجر الذي كان يهدد بتحطيمها بمجرد سقوطها عليه، اصطدمت كتفه بالحجر وبدت صدمة عنيفة لعظامه، لكنه تمكن من التقاط الكرة الزجاجية.

وبينما بدأت الأميرة في محاولة إلقاء الإعصار على إحدى الصخور الأخرى صاح ويل:

-لا! سنأتي معكِ.

قام وأراد أن يسحبني معه إلى الممرّ الذي تنتظرنا تحته الصفحات الجديدة المنبعثة للتو من رماد المخطوطة القديمة، ثم تمتم بصوت منخفض بالكاد كنت أستطيع سماعه:

-ليس لدينا خيار آخر، ما دامت الأفكار ما تزال موجودة على نحوٍ ما، تظل لدينا فرصة لإعادتها.

استطعت أخيرًا الخروج من حالة الذهول التي اعترتني، تبعته عبر الدائرة الحجرية وكنا هناك، حين أمسك ويل بيدي شعرت بيده المتعرقة بشدة، لم أصدّق ما كنّا نفعله في تلك اللحظة، لقد كنّا على وشك القفز في مخطوطة دُمرت منذ زمن بعيد حتى إنه لا أحد يمكنه العيش فيها، كان ذلك خطِرًا، وكان الأمر مخيفًا.

لكن لم يكن لدينا خيار آخر.

للحظة صغيرة، ترك ويل يدي لالتقاط الصفحات البيضاء الكثيرة، ثم حشرت الأميرة جسدها بيننا، جفلت عندما لمس جسدها النحيل جانبي، كانت رائحة الأميرة أبعد ما تكون عن النظافة وبدت قميئة على نحو غريب، شعرها المتسخ لامس وجنتي، رمشت عيناي وعندما فتحتهما مرة أخرى كان شخص ما يقوم بدفع الكلمات فوق وجهي.

كلمات لم يقرأها أحد منذ وقت طويل.

الكلمات التي بدأت بالتراقص والتمايل والتداخل فيما بينها.

كانت النيران ما تزال مشتعلة.

تسللت رائحة النيران إلى أنفي قبل أن تقع عليها عيناي، حتى عندما كنت ما أزال في الطريق إلى القصة، ملأت رائحة الحرائق رئتيَّ، عضضت شفتي وحاولت ألا أستنشق الكثير من الدخان.

انتهى بنا المطاف وسط منطقة جبلية وعرة بدت لي كواحدة من مناطق المرتفعات الأسكتلندية وكانت تحترق في كل زاوية وركن، في كل مكان أكلت النيران التكوينات الصخرية والمروج الخضراء وقطعان الأغنام والقرى في الوديان، فقط أربع صفحات أو خمس من الكتاب كنّا فيها وقد بدت وكأنها لم تمسّها النيران، أينعت الأزهار على قمة التل عند أقدامنا، وعلى اليسار ارتفعت قلعة ذات أسوار فضية ونوافذ مصنوعة من الزجاج الملون، بدا كل هذا وكأنه خيالي للغاية في مقابل الدخان الأسود الذي تراكم في الأفق.

فردَت الأميرة ذراعيها، ودارت حول نفسها وهي تهتف بصوتٍ عالٍ:

-لقد اشتقت إليكِ أيتها ألأنهار! لقد حلمت بك يا قصري الكبير! لقد عدت أخيرًا، هل تسمع؟ أنا عدت مرة أخرى! والآن سأبقى إلى الأبد، نحن الثلاثة سنبقى إلى الأبد.

لم تجب الأنهار ولا القلعة، فقط طقطقت النيران من بعيد، كان صوت النيران يذكرني بضحكة خبيثة.

بينما كانت الطفلة الصغيرة لا تزال مشغولة بتحية العشب والسماء التي كانت مشتعلة أيضًا في العديد من الأماكن، انتهزت الفرصة وانقضضت عليها.

كان الأمر سهلًا، بل بصراحة يبعث على السخرية أيضًا، وقعت الأميرة على الأرض، واصطدمت مؤخرة رأسها بالأرض بقسوة، ضغطت على كتفيها بكلتا يديّ وركبتي على صدرها، كنت أكبر وأثقل بكثير من الأميرة، لكنها لم تحاول إبعادي.

بدلًا من ذلك ابتسمَت.

تبتسم مرة أخرى!

تحت الطين الذي تشبعت به بشرتها لاحظت نمشًا على بشرتها الطفولية، ولفتت انتباهي عيناها ذواتا اللون الأزرق الجليدي اللامع.

ضغطت عليها بقوة وهي ساقطة فوق العشب وصرخت:

-لماذا تفعلين ذلك؟ هل تدركين عدد القصص التي أخذتِ منها

أهم أفكارها فقط لحفظ هذه القصة؟ لقد دمّرتها!

قالت الأميرة:

-نعم، أعرف ذلك، ولكن هذا هو بيتي، لا يمكنني الاستمرار في العيش خارج موطني أكثر من ذلك.

-ولكن ديزموند وجلين وكلايد يستطيعون.

ظهر تعبير الازدراء على وجه الأميرة:

-ديزموند وجلين وكلايد خانوا حكايتنا الخيالية، لم يحاولوا حتى حفظها ولو لمرة واحدة، بل إنهم استسلموا لمصائرهم، أصبحوا يحبّون الحياة في العالم الخارجي، فلم يعد لديهم الحق في أن يكونوا جزءًا من هذه القصة مجددًا.

-على حدّ علمي، لقد عشتِ في كهف ما على سترومساي لفترة طويلة دون سرقة الأفكار، أليس كذلك؟ لماذا غيرت رأيكِ فجأة؟

هزت الأميرة رأسها غير مبالية، لاحظت ندبة حرق رقيقة أسفل رقبتها قد اختفت في مكان ما خلف أذنها ثم أجابتني:

-كان ذلك في الماضي حين حدثت المصيبة، لكنني تمكنت وقتها من العثور على بقايا المخطوطة المحترقة وأن أغادر القصة، في الدخان تشبثت بملابس أحد أسلافك، يا آيمي لينوكس، لكنني كنت ضعيفةً جدًّا وعزلت نفسي بعيدًا عن الناس في كهف بجانب البحر، حيث فقدت الوعي. لسنوات عديدة انجرفت روحي في الظلام وعاهدت نفسي أن أفعل كل ما في وسعي لإنقاذ قصتي إذا تمكنت من الاستيقاظ مرة أخرى، كنت آمل أن يفعل رعيتي

المخلصون الشيء نفسه، ربما وجدوا طريقة للعودة منذ فترة طويلة. وبعد ذلك، قبل بضعة أسابيع، نجحت أخيرًا: فتحت عيني. تجولت في أرجاء سترومساي، راقبت سكان الجزيرة وأدركت أن ديزموند وجلين وكلايد لم يفعلوا شيئًا على الإطلاق، لقد عاشوا بينكم كبشر مثلكم! حتى إنهم خدموكم وتولوا مهمة تعليمكم!

أغلقت الأميرة جفنيها للحظة وعندما فتحتهما مرة أخرى كان هناك وهج غريب في عينيها، خاصة حين همست:

-أدركت في تلك اللحظة أنني سأحتاج إلى فارس جديد.

-ماذا تقصدين بذلك؟

تجعدت شفتاها وهي تواصل الهمس:

-كنت بحاجة إلى فارس يسافر إلى عالم الكتب من أجلي، ويسرق التحول من أجلي، ويلتقط وحشًا أخافه، مع نوم طويل لهذا الوحش، وبالطبع الأهم من ذلك هي الزهور الجميلة والصيف، والحيوان الناطق الذي يمكنه أن يرافقني، والشر؛ فالشر لا يمكن أن يكون مفقودًا أيضًا.

ضحكت فجأة وصاحت بصوت عالٍ في وجهي حتى أجفلتني:

-كان يجب أن أحصل على الكثير من الأفكار، ولكل ذلك كنت بحاجة إلى فارس.

تلعثمت وأنا أحاول الفهم:

-لكن...

كما توقعت فإن الأميرة حقًا لم تتصرف بمفردها، لا بد أن شخصًا ما قد ساعدها؛ لذلك لم يكن اللص الذي رأيته بحجم طفلة، وبالطبع كان من المنطقي أنها استأجرت فارسًا لتنفيذ السرقات. في قصتها، ترسله أخيرًا ليقتل الوحش من أجلها، كان من عادتها أن تكلّف شخصًا آخر لحل مشاكلها، لكن...

ازدردت لعابي وأنا أفكر!

كان ديزموند هو الفارس حينها.

فجأة وجدت صعوبة في التنفس، أم أنّه الدخان يندفع إلى رئتيّ ويحرق أفكاري؟

كانت الأميرة ما تزال تضحك بينما كان ذهني منتعشًا ويعمل بأقصى سرعة، كان لدي شعور بأن التُّرُوسَ في عقلي صارت تتشابك واحدًا تلو الآخر خلف جبهتي ثم انطلقت في الدوران.

لم تعد الأميرة تعتبر أنّ والدي يستحقّ أنْ يكون جزءًا من حياتها أو من قصتها الخيالية... ألم تقل شيئًا عن فارس جديد الآن؟

لم يكن ديزموند، لا، لم يكن قادرًا على العودة إلى عالم الكتب مثل الأميرة نفسها. اندفعت مني موجة من الارتياح وتنفست الصعداء، لكن لفترة وجيزة فقط، فكرتُ: من يكون إذن؟ من كان غيرُنا على اتصال بالصغيرة؟

كانت التُّروس في رأسي تعمل بامتياز، لقد جمّعت كلمة واحدة، هي اسم شخص في الواقع.

بروك!

بروك الذي أغلق الباب على الأميرة وأعطاني المفتاح، ألم يقل شيئًا عن الأميرة والفارس؟ هل جعلته يسرق من أجلها؟ هل حاول تحذيرنا؟

عدّلت من جلستي على الأرض لأتمكن من تحسّس جيبي الذي كان فيه مفتاح الزنزانة.

لم يكن موجودًا! كانت جيوبي فارغة.

هل أصبح بروك هو فارس الأميرة الجديد؟ هل أمرته باستعادة المفتاح وتحريرها؟ كان عليه أن يفعل كل شيء...

أصدرت صوتًا وهي تبتعد!

اللعنة!

لم أسيطر على جسد الأميرة جيّدًا للحظة واحدة فقط، لكن ذلك كان كافيًا، لقد نجحتْ في الوصول إلى كرة زجاجية في جيبها، وأن تخرج فكرة أساسية أوّلية وتلقيها على جدار القلعة.

تحطمت الكرة الزجاجية على الجدار تمامًا، مثل تلك التي كسرتها على الدائرة الحجرية، لكن هذه المرة حدث شيء مختلف؛ لأننا كنّا هذه المرة في عالم الكتب، حيث لا تضيع الأفكار، لا شيء ولا أحد كان فانيًا في الأدب.

ارتفع شيء بين الشظايا، شيء ظل يكبر، في البداية اعتقدت أنه كان عمودًا رقيقًا من الدخان يتصاعد بين الشظايا، لكن عمود

الدخان هذا نما بسرعة وانتفخ حتى أصبح سميكًا مثل أحد أبراج القلعة، وامتدّ حتى لامس السماء، وراح يدور ويزمجر بصوت أعلى بكثير من النار التي حولنا.

كان شعري يرفرف أمام وجهي، واخترقت الريح ملابسي بعنف، أخذتني عاصفة ودفعتني بضع أقدام إلى الوراء، بعيدًا عن الأميرة التي عادت الآن للوقوف على قدميها وراحت تتأمل زوبعة ساحر أوز بعيون مشرقة، صفّقت فرحًا، ولم تهتزّ أي خصلة من شعرها الملبّد.

من ناحية أخرى، بالكاد استطعت الوقوف، كان شيء ما قد ضرب ظهري، لا، كان شخصًا يحاول التمسك بي، كان ويل لحسن الحظ، وقد صرخ بشيء في أذني، لكنني لم أستطع فهمه.

الأميرة أيضًا حرّكت شفتيها، وكأنها تتحدث إلى العاصفة، وكأنها تريد أن تأمرها بشيء، ثم فجأة أشارت في اتجاهنا وبالفعل بدأ الإعصار يتحرك، بدأ في الدوران نحونا مباشرة.

انطلقنا أنا وويل راكضيْن.

سقطنا أسفل التل، وتعثّرت أقدامنا بالأنقاض، حاولت التمسك بالأرض متشبّثة بالزهور وخصلات العشب حتى لا أطير، ثم عدت للركض مبتعدة عن المكان، ولكن عندما طويت الصفحة فوقنا أخيرًا، لم يكن هناك شيء خلفها سوى جدار من اللهب، نارٌ بقدر ما تراه العين! تم تدمير المخطوطة بالكامل في هذا الاتجاه، تركت الصفحة وعدت إلى الصفحات الجديدة مرة أخرى.

واصلنا الجري حول التل في عماء.

أصبحت العاصفة قريبة جدًّا الآن وهي تشدّ ملابسنا وتكاد تمزّقها، تمسّكنا أنا وويل ببعضنا شديدًا، بطريقة ما تمكّنا من الوصول إلى الجانب الآخر من التل، هذه المرة كان ويل هو من سحب الحجر، لكن العودة إلى الوراء كانت أيضًا مستحيلة، يبدو أن النار التهمت القصة بأكملها، حتى الأفق كان قد تحول إلى بحر من النيران، لم يكن لدينا أي فرصة للهرب من الكتاب إلى جزء آخر من عالم الكتب.

كنّا عالقيْن كتائهيْن تقطعت بهم السبل في جزيرة صحراوية، مع مجنونة وإعصار مدمّر يطيعها.

لكن ربّما يمكننا العودة إلى سترومساي! سحبت ويل إلى المنحدر معي، لنعود مرة أخرى إلى حديقة القلعة حيث توجد الأميرة، حتى نعود إلى البقعة التي هبطنا فيها.

ثم نادت الأميرة بشيء حتى تتبعتنا العاصفة، وحاصرتنا في دوائر سريعة حتى أجبرتنا على التوقّف إذا لم نرغب في أن يتم القبض علينا وإلقاؤنا في النار.

تلاصقنا بأكبر قدر ممكن، وبدت العاصفة وهي تقترب وتتشكل في دوائر أصغر فأصغر، كان قلب ويل ينبض بشدة حتى أنني شعرتُ به ينبض على ظهري.

وفجأة هدأ هدير العاصفة، كان الأمر كما لو أن شخصًا ما قد كتمَ الصوت، كان الإعصار ما يزال يدور حولنا، كبير ورمادي

ومرعب، لكنه فجأة صمت تمامًا.

جاءت الأميرة إلينا وقالت:

-كما ترون، هذه مملكتي، كل شيء وأي شيء يطيع أوامري.

وفي تلك اللحظة بدت لي وكأنها طفلة مرة أخرى، كالطفل الذي يصرخ ويهذي حتى يرقص أبواه على لحن صفّارته الجديدة.

أشارت إلى العاصفة فبدأت تتقلص، اجتمعت جوانبها حتى أصبحت سميكةً في شكل قلم رصاص، ثم انقلبت إلى الداخل، وتكوَّرت في كرة، في اللحظة التالية كانت مرة أخرى عبارة عن فكرة أساسية متلألئة على العشب.

وضعت الأميرة الكرة الزجاجية في ردائها وقالت:

-كان ذلك مجرد مثال، الآن أنتما تعرفان ما أنا قادرة عليه في هذا العالم؛ لذا من الأفضل أن تطيعاني وتنفذا ما أطلبه منكما، سأصلح القصة وبعد ذلك ستكونين أنتِ يا آيمي الشخصية الجديدة لـ...

قاطعتها وقلت لها:

-انسَي ذلك تمامًا، لن أكون أي شخصية في قصتك.

حدقت الأميرة في وجهي:

-يمكنني أن أرميك في النار في أي وقت، ألم تفهمي؟

تأففت وقلت لها:

-إذًا لماذا لا تفعلين ذلك؟

ثم رحت أتذكر الكعكة المسمومة والصخور والخنجر وأضفت:

-لن تكون المرة الأولى التي تحاولين فيها قتلي. لأكون صادقةً، أنا مندهشة قليلًا لأنك توقفت فجأة عن فعل ذلك.

هزّت كتفيها غير مبالية وقالت:

-لقد غيرت رأيي للتو، في البداية أردت إبعادك عن طريقي، هذا صحيح، كنت أخشى أن تفشل خططي بسببك، وإلى جانب ذلك، لم أرغب في مشاركة فارسي مع أحد، وبالتأكيد لن أشارك وحشي أيضًا، لكن الآن غيرت رأيي، الآن أريدكما معًا من أجل قصتي.

-ماذا تقصدين؟

انتشر شعور بعدم الارتياح في معدتي.

تساءلت الأميرة:

-أين ذهب ذلك الأرنب الغبي؟

ثم وقفت على رؤوس أصابعها وتطلّعت إلى التل، لكنني لم أهتم بما تقوم به وكررت سؤالي:

-سألتكِ: ماذا تقصدين؟

وقفت الأميرة مرة أخرى على كعبيها وقالت:

-إنه أمر سهل الفهم، عندما يتم إصلاح القصة، ستكونان أنتما الشخصيات، احترسا، سوف أريكما.

ثم أصبح صوتها أجش وهي تصرخ بجلال:

لقد اخترتك، هيا اركع أمامي.

تأففت وأنا أفكر أنه من الواضح أن الطفلة الصغيرة أكثر جنونًا مما كنت أعتقد إذا اعتقدت أننا سنترك أنفسنا لنعيش فقط كدُمى في

حكايتها الخيالية.

ولكن بجانبي كان هناك شيء ما يتحرك، في البداية لم ألحظ سوى حركة من زاوية عيني، ولكن كان ذلك كافيًا، فالتفتُّ لأتأكد ممّا رأته عيناي.

بجواري، غاص ويل في العشب، حنى رأسه باحترام، فصرختُ به وأنا أهزّه:

-قف على قدميك، ماذا حدث لك فجأة؟

ثم صرخت في وجه الأميرة:

-ويل لن يكون فارسك أبدًا، اتركيه بسلام.

كنت غاضبة للغاية حتى إنني بصقت كل كلمة عند قدميها، واحدة تلو الأخرى وأنا أردّد:

-اتركيه بسلام!

تظاهرت الأميرة بأنّها لم تسمع شيئًا واستمرّت في الحديث مع ويل وسألته بصوت غريب يختلف عن صوتها:

-هل تقسم على اصطياد الوحش وقتله وعدم الراحة حتى أكون -أنا أميرتك- بأمان مرة أخرى؟ هل تقسم بحياتك؟

ثم رفع ويل رأسه ونظر إليها، ظهر وهج على ملامحه، وتطلع إلى الفتاة الصغيرة القذرة اللصة الحقيرة...

أجابها ويل وقد بدا خانعًا على نحوٍ غريب:

-أقسم بحياتي.

صرختُ:

-لا، لن يفعل.

واندفعت إليه، ثم صفعته بكل قوتي، أولًا يمينًا ثم يسارًا ثم يمينًا مرة أخرى، وبالفعل وكأنه قد رُفعت غشاوة عن عينيه من جديد، رمش ونظر إليَّ ثم همس:

-آيمي! هل كل شيء على ما يرام؟ هل تمكّن منّا الإعصار؟

هززت رأسي وجذبتُه إلى قدميَّ، نظر حوله كما لو كان يرى التل والقلعة والقصة الكاملة التي كنا فيها لأول مرة.

ابتسمت الأميرة، وقالت:

-جيّد جدًّا، كيف ستكون الأحداث إذًا بين ويل والوحش؟

وبكل سرعة، أخرجت فكرتين أساسيتين من جيب ردائها وألقت بهما علينا: الأولى كانت التحول الذي حدث للدكتور جيكل الوارد في كتاب السيد هايد. أصابت ويل في رأسه ثم انكسرت، تسرب منها سائل متلألئ على خدّه، ثم تحطمت الفكرة التالية على صدره، لقد كانت الوحش المسروق من الأوديسة.

صرخت:

-لا!

كان دافعي الأول هو إبعاد القطع المكسورة عن ملابس ويل، لكن شيئًا ما منعني من ذلك، رغم أن كل شيء داخلي أراد حمايته من هذه المجنونة، ربما كان مشهد وجهه هو الذي ردعني إذ تجمد في قناع خلال برهة وصار ويل فجأة لم يعد يشبه نفسه على الإطلاق، هل كان مجرّد تخيّل أم أن أنفه قد اتسع فعلاً؟

اهتزّت أكتاف ويل، وكبرت رقبته بوصة بوصة أمامي وصارت مشدودة، ثم تحوّل كل شيء بسرعة كبيرة، في غمضة عين، تحولت زرقة عينيه السماويتين إلى اللون الأرجواني، ثم توهج باللون الأحمر، ونما أنفه في كتلة ضخمة، وأصبحت أسنانه طويلة ومدببة، ثم خرج رأسان آخران من ثنية رقبته.

صرخت بالدرجة التي جعلت الرعب يجمّد الدماء في عروقي.

قالت الأميرة في هذه الأثناء:

-هل تعرفين؟ أنا سعيدة حقًّا لأنني لم أقتلك بعدُ يا آيمي، ما أعنيه هو: من كان من المفترض أن يصطاده وحشي أيضًا؟ في كل قصة يجب أن يكون هناك ضحية، شخص يمكن أن يكون خائفًا ومرعوبًا، شخص يموت في النهاية.

وكان الشيء الذي يقف أمامي في تلك اللحظة وحشًا حقيقيًّا بحجم منزل كامل، وله ثلاثة رؤوس على ثلاثة أعناق طويلة ملتفة ومنحنية في كل الاتجاهات، كان جسد الوحش مغطى بأشواك، ومخالبه الحادة محفورة في الأرض وأعينه الستُّ الحارقة تنظر إليَّ جائعة.

أومأت له الأميرة برأسها حاثّة إيّاه.

كان قد تحوّل إليه.

بالفعل، لقد تحوّل طوال الوقت.

لم يفهم الفارس لماذا لم يلاحظ ذلك.

لا بد أن لعنة قد حلت به بمجرد أن أصبح فارس الأميرة.

كانت اللعنة مريعة.

ولكن الآن لم يكن ليستطيع مكافحة اللعنة.

على الرغم من أنه يعرف الحقيقة الآن.

على الرغم من أنه أدرك الآن أنه هو نفسه الوحش.

كان الفارس هو الوحش.

وكان الوحش هو الفارس.

ولكن هل كانت الأميرة تعرف ذلك؟

(18)

الفارس

صرخت:

-توقف! توقف!

لم أكن أعرف إذا ما كنت أعني الوحش أم الأميرة.

نظر إلي بعيونه الموزّعة على الرؤوس الثلاثة، بينما سال لعابه من كل الأفواه.

أغمضت عينيَّ كطفل يعتقد أن إغلاق العين سيجعله غير مرئي، لكن بالطبع سيتمكن الوحش من أكلي حتى لو لم أشاهده، أنفاسه الساخنة الرطبة كانت تلفح وجهي بالفعل.

لم أجرؤ على فتح جفوني، لم أكن أريد أن أرى ويل وهو بهذه الحالة، ترنّحت إلى الخلف وفقدت توازني على المنحدر وسقطت. بعد ذلك، هبطت بخَرقٍ على كتفي الأيسر، ثم تدحرجت من أعلى التل، وارتطم رأسي بحجر، وفقدت توازني تمامًا للحظة.

قفز الوحش ورائي، شعرت بالوهج الحارّ عندما أطلق زفيرًا من

أحد الرؤوس الثلاثة نحوي، وكانت الفكوك الضخمة موجهة مباشرة إلى قلبي. مع آخر ما لدي من قوة رميت نفسي جانبًا، لكنني علمت أن الأوان قد فات، لم يكن هناك مفرّ، اخترقت أسنانه الحادة سترتي، لا أحد يستطيع أن يوقف ما حدث لويل الآن.

لا أحد سوى الأميرة.

ضحكت الأميرة، ثم صفقت بيديها، وقالت وكأنها تداعب قطًّا صغيرًا:

-جيّد، هذا جيّد وجميل، أحسنت، تعالَ إلى هنا!

لقد تركتني الأسنان على قيد الحياة!

بينما كان يعود إليها، راحت أقدامه ومخالبه تهزّ الأرض من حولي، لكن زئير الوحش أصبح أكثر هدوءًا ثم صمت أخيرًا. عندما فتحت عيني لأتطلع، كان الوحش قد ذهب وكانت الأميرة تمسك بالأفكار الأساسية المتلألئة مرة أخرى.

ثم رقد ويل بجانبي على العشب.

لقد نام!

تقلّص أنفه إلى حجمه الطبيعي، وأصبح شعره أشعث كالعادة، وكان له رأس واحد فقط يرتكز على رقبة طويلة طبيعية، انحنيت عليه، وأصابعي ترتجف، وتحسست وجنته وخدّه.

ثم فتح عينيه ونظر إليَّ نظرة غير واضحة وتثاءب ثم قال:

-آيمي! ماذا حدث؟ هل أنا... نائم؟

مسست وجهه وقبّلت جبهته:

-لا لم تكن نائمًا، لقد حوّلتك الصغيرة وسحرتك.

جلس مذهولًا وقال:

-أنا قد تحولت؟

-للحظة، لم تعد أنت، بل كنت وحشها، وقبل ذلك... قبل ذلك، حاولت أن تجعلك فارسها.

همست الأميرة فجأة بجوار أذني:

-لم أحاول، لقد فعلتها من وقت طويل.

تكثف الشعور بالاستياء في معدتي، وطعمٌ مرٌّ كان قد تجمّع في فمي، لكن عقلي لم يكن قد فهم بعد. في الوقت الحالي كنت مشغولة للغاية بالتحرك السريع، أردت أن أمسك بالأميرة، وأردت أن...

حين التفتُّ لم تعد ورائي، لكنها كانت تطارد ظلًّا أبيض بعيدًا، كان الظل ينطّ عبر الزهور ويبدو أنه في عجلة من أمره.

صرخ الأرنب الأبيض وهو ينظر إلى ساعة جيبه:

-يا عزيزتي! سوف أتأخر، يا عزيزتي!

ثم انحنى تحت يدَي الأميرة وانطلق بسرعة إلى بوابة القلعة.

لهثت الأميرة خلفه وهي تقول:

-أطلب منك التوقف فورًا!

تجمّد الأرنب في منتصف قفزاته وصفّق على بطنه في المرج، التقطته الأميرة ووضعته تحت ذراعها. قالت له بالنبرة نفسها التي تحدثت بها

إلى الوحش قبل بضع دقائق:

-جيّد!

واتسعت عيون الأرنب من الخوف، لكنها لم تقل شيئًا آخر.

صارت ساقي أقل قوّة عندما عادت الأميرة إلينا.

قالت وهي تخدش عنق الأرنب:

-كان من السهل أن أجعل من ويل فارسي.

لقد حاولت التظاهر بأنّني قد متّ، بل ومن الأفضل أن أكون قد تُوفّيتُ بالفعل، كان الأمر سخيفًا للغاية إلى درجة يصعب تصديقها، أردت أن أضحك لكنني لم أستطع، بدلًا من ذلك، سيطر عليَّ الخوف مرة أخرى، وجف حلقي، الخوف نفسه الذي تملّكني قبل أيام قليلة، في الصباح الذي اعتقدت فيه أن ويل هو اللص.

تابعتْ الأميرة:

-التقيت به للمرة الأولى قبل يومين من وصولك إلى سترومساي.

بينما تتحدث بدا العالم وكأنه ينهار من حولي، ويل الذي وقعت في حبّه كان... كان... التفكير يؤلمني كثيرًا.

ركّزت عيناي على عيني الأرنب، واندفع الدّم إلى أذني، شعرت بالنار تحرقني من الداخل، ومع ذلك سمعت كلمات الأميرة واضحة تمامًا في رأسي، كلمات مثل شفرات حادة.

-كان ويل يمشي مع كلب ضخم في المستنقع، اختبأت خلف بعض الشجيرات وعندما مرَّ بجانبي قمت برش السم

عليه، تركت السم يتسرّب إلى ذهنه وأجبرته على السمع والطاعة لي من الآن فصاعدًا. في اليوم التالي، سمحت له بقتل عدد قليل من الإوز في إحدى القصص الخيالية كاختبار، لكن السم لم يتطور تأثيره على نحوٍ كامل بعد، وكان هناك شيء ما فيه ما يزال يتمرّد، إلى درجة أنه كتب شيئًا ما على جداره بدماء الحيوانات النافقة؛ لتحذير نفسه حين يفيق أو لتهديدي، لا أعلم، لكنه نقش الكلمات نفسها على الصخرة في كهفي أيضًا، ربما أراد أن يظهر لي أنني لا أسيطر عليه، لكنه كان مخطئًا بالطبع.

جفّ فمي بشدّة، وخفت من أن تتكتل حصاة في حلقي، حصاة ستهبط إلى صدري وتسبّب خدشًا دمويًّا في روحي.

حاولت أن أصدّق، ويل هو الفارس؟ ويل هو اللص؟

ويل الذي وضعت كل ثقتي فيه.

التفتُّ إليه ببطء، كان ما يزال جالسًا بجواري، ومازال الذهول باديًا عليه قليلاً، حدَّق في الفضاء كما لو أنه لم يسمع أي شيء تقوله الأميرة.

-ثم أمرته بسرقة الفكرة الأولى من أجلي، هذا الأرنب الناطق، وقد نفذ المهمة على نحوٍ رائع، فيما عدا ذلك كان على هولمز الغبي الظهور، بالطبع أدرك على الفور أنه كان خطّ يد ويل على الحائط في كوخه، وجمع خطوط الأدلة واحدًا واحدًا وأراد مساعدة ويل.

تنهّدت الأميرة وهي تستطرد:

-كان علينا أن نزيحه عن الطريق، لحسن الحظ قد أطاعني فارسي بلا تفكير.

كانت روحي تنزف وأصابني حديثها بالدوار.

همست:

-لا، لا يمكن.

قالت الأميرة:

-بل يمكن.

-لا يمكن أن يضرّ ويل بهولمز، وقد ساعدني في مطاردة اللص، لماذا كان يفعل ذلك إذا كان هو نفسه اللص؟ أنا لا أصدّقك.

لم أصدّقها، أو لم أكن أرغب في تصديقها.

لكنني صدّقتها على أي حال وكرهتها بشدة.

قامت الأميرة بتثبيت الأرنب تحت ذراعها ومالت إلى ويل، الذي لم يكن يتحرّك بعد، وضعت أصابعها في حذائه الأيمن للحظة، ثم سحبت شيئًا من الزاوية، شيئًا من الفضة، شيئًا كان مقبضه مرصعًا بالمجوهرات المتلألئة.

توهّج الخنجر على نحوٍ مخيف في ضوء النار.

وكأنه آلة، مدّ ويل يده ليلتقطه، التفّت أصابعه حول المقبض بينما انحنت الأميرة إلى الأمام وهي تهمس بشيء في أذنه.

استغل الأرنب الأبيض لحظة تشتيت انتباه الأميرة، وقفز من ذراعها وأسرع بعيدًا.

من ناحية أخرى، بدا أن قدمي لم تعد قادرة على حملي لو أردت الهروب؛ لذا لم يكن لدي خيار سوى الوقوف والانتظار، أن أنتظر لأرى ما توصلت إليه الأميرة، وإلى أين ستأخذنا أهواؤها؛ لأنني فهمت شيئًا واحدًا الآن: كنّا لعبتها وكانت تستمتع بذلك، كانت هذه هي قصّتها، ويمكنها أن تفعل ما تريد فيها؛ لأنها كانت هنا وأصبحت الحقيقة الواضحة أننا جميعًا تحت تصرّفها.

الأرنب، والعاصفة، وأنا وويل.

ويل الفارس الذي كان يقترب مني ببطء.

أخبرني شيء ما أنها لن تمنعه في آخر لحظة هذه المرة.

***

كان يرى كابوسه الأبدي.

جلس هولمز ميتًا على الكرسي وطارد ويل القاتل، طارده عبر الجزيرة ومن خلال منظر طبيعي غريب بدا وكأنه يحترق عند الأطراف، لكن القاتل اليوم لم يكن يرتدي معطفًا أسود بل له ذيل حصان أحمر.

كان كل شيء غريبًا جدًّا.

كان القاتل قد توقف على بعد خطوات قليلة منه.

حدّق فيه بعيون كبيرة لامعة، كان القاتل ذاته خائفًا.

ورأى كيف كان ويل يرتجف، لقد أخافه حقًّا.

رفع ويل السلاح وكأنه يزنه في كفّه، السلاح الذي كان بالنسبة إليه مثل صديق، كانت أصابعه تحتضن المعدن، فيشعر بالارتياح، والقوة، والحرية. كان بالكاد يصدّق ذلك: لقد حانت اللحظة أخيرًا، وكان الانتقام قريبًا، ذهب ويل باتجاه القاتل ونسي ذيل الحصان الأحمر، له عيون وملامح غير واضحة، وله ظل خافت لا يستحقّ أفضل منه.

فكّر ويل في هولمز وهو يرفع السلاح.

ثم ظهر أرنب يقفز عبر كابوسه.

تراجع ويل متفاجئًا، للحظة كان مشتّتًا، ابتعد القاتل، ابتعد بعيدًا، ركض عبر بوابة القلعة إلى فناء داخلي محاط بدائرة داخلها بئر، حاول الاختباء بين فرع وردة متسلّقة، لكن ويل لم يدعه يهرب، بل اندفع وراءه، والسلاح ما يزال في قبضته بقوة. القاتل لم يكن لديه فرصة للهروب، لقد وصل إلى طريق مسدود، عالقًا في الأشواك وفي ذُعره.

ابتسم ويل منتصرًا.

حارب القاتل الأشواك ولم يجعله هذا إلاّ عالقًا بينها أكثر، صرخ، صرخ بكلمات لا يستطيع ويل أن يفهمها، لم تكن كلمات مهمة.

كان ويل هنا لسبب واحد فقط، رفع السلاح مرة أخرى، ثم سمح له بالمضي في الهواء، واندفع النصل نحو القاتل، أغمض ويل عينيه وهو يفكر في هولمز، ردّد في داخله: من أجلك يا شيرلوك. لكن شيرلوك في عقله هزّ رأسه وقال شيئًا، اسمًا قصيرًا جدًّا، فقط من

بضعة أحرف، كان الاسم مألوفًا لدى ويل، وهو اسم لشخص ذي شعر أحمر وعيون كبيرة.

انطلق النصل إلى الأمام وتوقف أمام صدر القاتل، آيـــمي! قرأ الاسم على شفتَي هولمز، آيمي! ماذا يعني ذلك؟

همست فتاة صغيرة بجانبه وقد قبضت للتو على الأرنب وضغطت عليه:

-جيّد جدًّا، هيا افعلها، افعلها الآن.

أمسك ويل السلاح بكلتا يديه، لامس النصل صدر القاتل وضغط على النسيج والجلد والعظام التي يقع خلفها قلب ينبض. أطلق القاتل أنينًا، وتدحرجت الدموع على الملامح غير الواضحة ثم سقطت.

صاح القاتل:

-أنت لا تعرف ماذا تفعل يا ويل! إنها أنا، لماذا لا تعرفني؟

ما الذي يقوله هذا القاتل؟ بالطبع يعرف من هو، إنّه هو القاتل الذي كان يطارده لفترة طويلة، أليس كذلك؟ هزّ هولمز رأسه بعنف أكثر.

أطلق ويل زفيرًا حارًّا، كان الأمر هكذا من قبل، في كابوس آخر، كابوس صيفي، عندما كاد يفعل ذلك ثم تراجع، لم يفهم لماذا تراجع لكن شيئًا ما أوقفه بعد ذلك، رغم أنه كان يودّ أن ينتقم من قاتل شيرلوك، لقد كان شعورًا غريبًا، هاجسًا تسلل إليه مرة أخرى الآن.

أمرته الطفلة بجانبه:

-نفّذ الأمر فورًا!

كانت يد ويل ترتعش، صرخ كل شيء داخله ليضرب النصل في قلب القاتل، كان هذا هو ما يجب عليه فعله، كان عليه أن ينفذ... لكنه تردّد على أي حال.

أقسم القاتل:

-أنا، آيمي، آيمي!

آيمي، تذكر، بالطبع! آيمي! انزلق الاسم على عينيه مثل قطعة قماش باردة ومسح الغشاوة عن بصره، أخيرًا استطاع أن يرى بوضوح مرة أخرى، لقد تذكر أخيرًا معنى تلك الأحرف الثلاثة الغريبة: آيمي!

أغلق جفونه وفتحها.

وقفت آيمي أمامه.

تم الإمساك بها في تشابك نباتات شائكة على جدار القلعة، وانتشرت الكدمات الدامية على ذراعيها، لا بد أنها حاولت يائسة أن تخلص نفسها، كانت هناك دموع في عينيها الجميلتين.

همست:

-ويل.

حدّق فيها وتلعثم وهو ينظر إلى الخنجر بين يديه:

-ماذا حدث؟ أنت...

خنجر؟ لماذا كان يمسك خنجرًا؟ ولماذا وجّهه إلى آيمي؟ اللعنة! ماذا يحدث؟

أسقط النصل وهو يقول:

-أنا... أن...

ماذا فعل؟ كان الأمر أشبه بإفراغ صندوق ممتلئ بقطع ألغاز في ذهنه، كانت مثل قطع البازل المشوهة المنتشرة في ذكرياته، قطع اللغز التي تجمعت الآن فجأة لتصنع قصة كاملة.

فجأة شعر بالبرد يسري في أوصاله.

***

قالت الأميرة وهي تضع ذراعيها فوق صدرها حتى كاد الأرنب يُسحق:

-عليك أن تطيعني، أنت فارسي! إذا قلت إن عليك قتلها، فلا بد أن تقتلها.

تلعثم:

-بالطبع..

لكن في عينيه رأيت أنه ما يزال معي، وأنه هو أيضًا قد فهم أخيرًا؛ لأن الرعب استمرّ في نظرة عينيه.

قالت الأميرة:

-جيّد جدًّا.

وبدأت بالهبوط من على حافة البئر. ابتعدت عنّا وهي ترقص،

والأرنب بين ذراعيها يلهث بهدوء.

نظرنا أنا وويل إلى بعضنا. لقد انتهى مفعول السم، عاد ويل مرة أخرى، ويل الذي أعرفه. بكاء آخر انكسر في صدري، بحذر فكّ الأشواك عن معصمي وسحبني من الشجيرات، أردت أن ألقي بنفسي بين ذراعيه، لكنه تراجع عني.

قال بشكل قاطع وذقنه يرتجف:

لقد فهمت الآن كل شيء، لقد أشار إليَّ.

سألته:

-ماذا؟ من تقصد؟

كانت الأميرة لا تزال تدير ظهرها لنا، فسحب ويل شيئًا من جيبه: قطعة ورق مثنيّة، كانت رسالة، قام بفتحها وسلمني الورقة التي لم يُكتب عليها شيء، فقط رَسْمٌ. الصورة أظهرت جثة شيرلوك ويحيط بها سكان الجزيرة، وفي المقدمة كان بروك يشير إلى الحشد كما لو كان يعدّ شيئًا ما مرة أخرى، لكن إذا نظرت من كثب، رأيته بالفعل: لم يكن بروك يشير فقط إلى مكان ما، كان يشير إلى ويل.

كيف يمكن أن نكون عميانًا جدًّا؟ كيف لم نلاحظ؟ هل كان يعتقد دائمًا أنه يحلم بكوابيس بينما كان في الواقع فارس الأميرة؟ ماذا لو سرق الأفكار من عالم الكتب؟ فكرت في فيرتير وشيرخان وكيف أنني اتبعت اللص من قصة إلى أخرى؟ ألم أجد ويل نائمًا على الدائرة الحجرية في ذلك اليوم؟ وعلى أي حال: لماذا لم ألاحظ أبدًا أن ويل لم يكن هناك ولو مرة واحدة عندما التقيت باللص مع فيرتير؟

يبدو أن ويل كان يسأل نفسه هذه الأسئلة أيضًا، تحرّك فكّاه لا إراديًّا، وتصلبت عيناه فتوقعت أنه كان يفكر في شيرلوك، نظر إلى يديه كما لو كان يراهما لأول مرة.

ازدرت لعابي وقلت:

-أنت لم تكن تعرف، لا لم تكن تعرف، الأميرة بطريقة ما وضعت تعويذة عليك، لقد سمَّمتك، أنت لم تكن مدركًا لما تفعله، أليس كذلك؟

لم يجب، وعوضًا عن ذلك، انحنى فجأة لالتقاط شيء ما على العشب، يجب أن يكون قد سقط من جيبه عندما أخرج رسم بروك، كان مفتاح الزنزانة.

تمتم:

-لقد تركتها تخرج، اعتقدت أنني في كابوس، لكن الحقيقة هي أنني كنت في الأوديسة لسرقة الوحش، وبعد ذلك حررت الأميرة من زنزانتها؛ لهذا فقط كنت هناك هذا الصباح. الآن فقط فهمت.

ثم حنى رأسه:

-شيرلوك... أنا الذي... أنا الذي...

قاطعته:

-لقد كانت لعنة، لقد أصابتك اللعنة.

الفارس هو الوحش، والوحش هو الفارس. أساءت الأميرة استخدام ويل من أجل أهدافها الخاصة، تمامًا كما فعلت مع ديزموند

في قصتها الخيالية، لكن إذا كانت اللعنة التي وضعتها على ويل وديزموند نفسها، إذا كانت لعنة خرافية، ألم يكن هناك طريقة لكسرها؟ حاولت بشدة أن أتذكر كل ما أعرفه عن هذه القصة، ماذا قال لي ديزموند أيضًا عن كيفية حدوث ذلك؟

صرخت الأميرة التي اكتشفت أنني ما زلت على قيد الحياة في تلك القصّة:

-أوه، فارسي الوفيّ، أردت منك أن تقتلها الآن، الآن حالًا!

توقّفت أنفاسي وأفكاري.

هز ويل رأسه بقسوة، ثم انحنى مرة أخرى والتقط الخنجر، قال، وقد اقترب من وجهي بضع بوصات فقط، في منتصف الورود المتسلقة:

-سمعًا وطاعة.

في الواقع لقد قطع بطريقة خاصة زهرة واحدة جميلة من النباتات المتسلقة وسلّمها لي، عندما أغلقت أصابعي حولها تحولت إلى كرة زجاجية متلألئة، كانت زهرة الأمير الصغير.

ابتسم ويل بحزن، ثم أصبحت ملامحه خاوية من جديد وعيناه فارغتين، بدا أن يديه قد عادتا لتوجيه الخنجر نحوي مرة أخرى.

لكن هذه المرة لم أشتبك في أشواك النباتات؛ لأن النيران قد اشتعلت فيها لحظةَ فصل ويل الزهرة عن ساقها، والآن حملت النباتات المتسلقة الحريق إلى نصف القلعة، وتغلغلت النيران عبر الجدران والنوافذ، مما يجعل الهواء يتلألأ بالحرارة. أعطاني هدير

النار بضع ثوانٍ ثمينة من الارتباك، صرخت الأميرة بينما كان هجوم ويل عليّ غير دقيق لدرجة أنني تمكنت من تفاديه والغوص تحت ذراعه.

هرعت إلى الأمام، ركض الغضب الشديد في عروقي، كيف يمكن لسمّ قليل أن يجعل ويل يفعل كل ذلك؟ بيدٍ واحدة وجّهت الفكرة الأساسية التي أحملها، والأخرى ضربت بها الأميرة قصد دفعها من الحافة إلى البئر، أفلتت مني، لكن هذا لم يمنعني من معاودة المحاولة.

صرختْ متجنبة ضربة أخرى بالقفز على أحجار الفناء:

-ساعدني أيها الفارس! عليك أن تحميني!

وخلال المطاردة، بحثتْ في جيب ردائها عن الأفكار الأخرى، ربما أرادت أن تضع الوحش في وجهي مرة أخرى، أم كانت ستستخدم الشر من مرتفعات ويذرينج؟ ولكن لأنها اضطرت إلى التمسّك بالأرنب، الذي أصبح يركل بقوة الآن، محاولة الهرب مني في الوقت نفسه، لم تتمكّن من العثور على الفكرة الصحيحة لتستخدمها ضدي على الفور، صرخت الأميرة:

-هذه قصتي! الجميع هنا يفعل ما أريد، توقفي عن الركض ورائي الآن، أنا آمرك يا آيمي.

بينما سارعنا بصعود الدرج الحلزوني إلى أحد الأبراج. في الواقع، أزعجتني كلماتها للحظة، تذوّقت سمّها على لساني، وشعرت بأنها تقطر في ذهني، لكن الأمر انتهى بالسرعة التي بدأ بها، صرختُ:

-ليس لديك أي سيطرة علي! أنا لست فارسك!

وصلنا إلى سطح البرج والتصقت الأميرة بأسواره الفضية، ألقيت نفسي على وجهها، أردت أن أخدشه، أردت أن أنتصر عليها و...

في اللحظة الأخيرة، دارت حول نفسها فلم ألتقط سوى زاوية من فستانها، عندما سحبته تلاشى النسيج البالي والمهترئ، كانت هذه قرقعة، تدحرجت الأساسيات المتلألئة وانقبلت على الأرض، تشققت كرة الإعصار الزجاجية عند الارتطام. بأعجوبة لم تنكسر، لكن بدلًا من ذلك تدحرجت مع الأفكار الأخرى بعيدًا عن متناول الأميرة.

قلت بهدوء:

-حسنًا.

حدّقت الأميرة في وجهي فجأة وبدت خائفة مني حقًّا، صرختْ:

-فارسي! اقتلها! اقتلها!

أجاب ويل بصوت ميكانيكي يدلّ على أنه لم يكن ويل في الوقت الحالي:

-من دواعي سروري.

تبعنا إلى هناك وفي تلك اللحظة أيضًا عبر منطقة الأسوار الفضية، كان لا يزال يمسك بخنجر الفارس، لقد وصل إلينا، أسرع الآن، وكان أكثر إصرارًا.

قفزت جانبًا، ولكن بعد فوات الأوان، كان بالفعل يمسك بي ويمزق شعري بقسوة، ويسحبني بعيدًا عن الأميرة، ثم شعرت

بالشفرة على حلقي، باردة وحادة.

كان ويل يلهث قرب أذني، أردت أن أنظر إليه، لكنني لم أستطع إدارة رأسي، همست:

-ويل، عد إلى رشدك، هذه أنا آيمي، هذا ليس كابوسًا، إنها لعنة الأميرة.

زاد ضغط المعدن على رقبتي.

-ويل لا تفعل ذلك، أعلم أنك لا تريد أن تفعل ذلك.

قال وقد بدت الكلمات وكأنها جاءت من مسافة سحيقة:

-لا، لكنها تجبرني، أنا...

-عليك محاربة اللعنة، هل تسمع؟ أنا متأكدة من أن هناك طريقة لكسر اللعنة، وقد عرفها ديزموند بالتأكيد.

قطع النصل بشرتي، شعرت بقطرة واحدة من الدم تنزّ من الجرح وتجري على رقبتي، تمتم من خلال أسنانه:

-لقد مات ديزموند في النهاية.

-لكنه قتل الوحش أولًا يا ويل، بطريقة ما لا بدّ أنه كسر اللعنة.

همس:

-أولًا؟ ديزموند قد...

ثم أصبح ساكنًا جدًّا فجأة، خفّ ضغط النصل على رقبتي على نحوٍ غير محسوس للغاية.

تمتم بهدوء في أذني:

-آيمي... أعتقد أن هناك طريقة واحدة فقط لإنهاء ذلك، في النهاية يجب على الفارس أن...

هتفتْ مقاطعة إياه:

-توقف!

-عليكِ أن تذهبي، آيمي، اذهبي وخذي معكِ الأفكار و...

ثم راح يتقيأ، هل خسر عقله معركة السم؟

قلت:

-وماذا؟ ماذا تقصد بذلك؟ كيف يفترض بنا أن نفرّ ما دمت تحت تأثيرها؟

لم يعد يجيب.

ثم جلست الأميرة الآن أمامنا وشدَّت كُمّ ويل:

-الآن لقد أمرتك.

قال الفارس وهو يلقي بي على الأرض:

-بكل سرور، سوف أضع حدًّا للرعب.

كان بالفعل قد أصبح فوقي، يومض الخنجر أمامي، النار التي أحاطت بنا انعكست على نصله، ونسيت كل شيء: البرج، الأميرة، حتى القصة التي كنّا فيها. لم يكن هناك سواي أنا وويل والخنجر بيننا.

همستُ وأنا أنظر إليه في عينيه للمرة الأخيرة:

-ويل!

عيناه السماويتان اللتان أحببتهما وأحببت أن أغرق في صفائهما.

ثم أخيرًا، طعن.

اخترق النصل النسيج والجلد والعظام واللحم، بكل سهولة، وبسرعة كبيرة جدًّا، اندفع مباشرة إلى قلب ينبض؛ قاطعا العضلات والشرايين، ومات القلب.

حدث ذلك في غضون لحظات، لحظات سريعة جدًّا حتى إنّها غير مهمّة.

ثم تراجع ويل.

أغمض الفارس عينيه.

لقد تمّت مهمّته.

فانقشعت اللعنة ومات معها الوحش.

لقد لفظ أنفاسه الأخيرة.

(19)

وماذا لو لم يموتوا؟

سقط ويل، وبينما كان يسقط فقد العالم سرعته وتوقف عن الدوران، رأيت ركبتيه وهما ترضخان ركوعًا تحته ببطء شديد بدا لي بلا نهاية، وبإيقاع ثقيل خرّ جسده متراجعًا إلى الوراء، وكأنه يغرق في الأعماق شيئًا فشيئًا، اقترب بوجهه من السطح الذي كان يقف عليه ولامسه برقّة، وكأن تيارًا غير مرئي أمسك به، والآن يجذبه نحو قاع محيط مجهول، تيارًا يهدهده من أجل النوم ويضعه في السرير لينال قسطًا من الراحة.

ولكن في النهاية ظهر أثر الصدمة، ودوّى الصوت العميق لجسده الذي ارتطم بالسطح الحجري، تمزّق الذهول الذي اعتراني، وتمزق في داخلي شيء ما أيضًا.

سمعت نفسي أصرخ:

-لا... ويل!

ثم هرعت إليه

كانت يداه لا تزالان تمسكان بمقبض الخنجر المرصّع بالجواهر، الخنجر الذي يبرز من صدره، كم بدت هذه الصورة خاطئة للغاية،

من غير المعقول أن ينغرس باقي السلاح مختفيًا داخل جُرحه، رفرفت جفون ويل وتحسست بأصابعي المرتعشة وجنته، وفجأة ظهر الكثير من اللون الأحمر حتى إن عينيه ذواتي الزُرقة السماوية عكستا اللون نفسه.

قال ويل هامسًا:

-انتهت... القصة يا آيمي.

فصرخت قائلة:

-لا يا ويل... ويل!

وسالت الدماء لتكون بحيرة حمراء على الأرض، أو بالأصح لتكون بحرًا من حياة ضائعة.

قال ويل بصوت أضعف:

-خذي الأفكار ثم... ثم ارحلي من هنا، عودي بها إلى حيث كانت.

-ولكن.

-عديني بذلك.

-أعدك.

ابتسم وقد خارت قواه تمامًا قائلًا:

آيمي، الآن... أنت تتألقين مجدّدًا... مثل الجنّيات.

لفظ أنفاسه الأخيرة، شحبت شفتاه، وانطفأ نور عينيه السماويّتين.

مات الفارس في نهاية القصة.

وهكذا باغتتني الحقيقة سواء أردت ذلك أم لا.

مات ويل.

ولم يكن من المفترض أن يموت.

ولكنه مات.

فكرت فيما حدث وأعدت الكلمات في ذهني ولكنني لم أدرِك معناها.

وعوضًا عن أي شيء وضعت رأس ويل في حجري وداعبت شعره، ماذا لو أنه يغفو فحسب؟ نعم، بالتأكيد إنه نائم، وكل ما في الأمر أنه يحلم بكابوس أدخلني إليه معه هذه المرة، يجب أن يكون الأمر كذلك، وتحسست جبهته راسمة بإبهامي خطًّا على طول حاجبيه، وإصبعي السبابة ملتوية خلف أذنه اليسرى، وصارت نظرة عيني غائمة.

بكت الأميرة أيضًا، جثمت بين الأسوار وأخذت تبكي بمرارة وتنتحب قائلة:

-ومَن من المفترض أن يحميني الآن؟ من سيحارب من أجلي الآن؟

لمحتها بطرف عيني وهي تترك الأرنب وتركله وكانت تقول اغرب عني فأنا أريد فارسي!

مرّرت طرف ثوبي على وجهي وللمرة الأخيرة تحسست وجنة ويل ثم نهضت، شيء ما لزج طفح من الشقّ داخلي، شيء سميك وساخن

وقاتم السواد، شيء ما ملأ صدري ونبض في صدغي، فقلت:

-إنه لم يعد فارسك بعد الآن.

-بلى.

كانت الأميرة تعوي وهي تقول:

-كان عليه حمايتي، ولكن... ربما إذا رجعت به إلى بداية القصة...

وهكذا تقدمت الأميرة خطوة نحو جسد ويل وتقدمت أنا خطوة على غرارها، أبدًا لن أتركه لها، فلقد امتلكت ويل بما فيه الكفاية.

نظرت من حولي وومضت عيني عبر الأسوار والأفق المحترق، في مكان ما هناك، تمامًا عند قاعدة البرج، أليس هذا هو الموقع الذي دخلنا منه إلى القصة؟ حدّقت الأميرة في وجهي وقالت:

-اذهبي إلى الصفحة الأولى.

فقلت لها:

-انسَي أن أطيعك!

صرخت وأصابني الذهول لأن شيئًا ما قد دفع قدمي وأصابها.

دحرج الأرنب الأبيض كرة زجاجية صوب إصبع قدمي، تطفو داخل الكرة زهرة، تلك الزهرة التي اقتطفها ويل من بين الأشواك، زهرة الأمير الصغير، من الواضح أنني تخلّيت عنها في خضمّ الصراع، ولهذا مددت يدي إليها بينما كان الأرنب الصغير يعرج وكذلك ارتطم الوحش والنوم العميق للأميرة النائمة بالإعصار القادم في اتجاهي، ثم قال لي الأرنب:

-علينا أن نُسرِع.

فسارعت إلى جمع المزيد من الأفكار، وأنا أومئ برأسي.

صرخت الأميرة قائلة:

-دعيها وشأنها.

ثم اندفعت نحو الكرات الزجاجية، إلا أنني كنت أسرع، فخلعت سترتي بسرعة وحزمت داخلها الأفكار المسروقة عدا واحدة، كانت هذه الفكرة هي الأرنب الأبيض الذي عاد بنفسه إلى كُرته الزجاجية.

في اللحظة التي وضعته فيها تلاشت الحكاية نهائيًّا، وصرخت الأميرة عندما تصدّعت الأرض تحت قدميها وارتفعت ألسنة النيران، وانشق البرج. بالكاد وصلتُ إلى ويل، وتسلقتُ البرج، حتى البقية المتبقية من المناظر الجبليّة الخلابة غاصت في جحيم النيران، وفجأة امتلأتُ بثقل دخان أسود كان في الهواء من حولنا يحترق داخل رئتي، ويلسع عيني، ويجعلني أسعُل، والآن أصبحت النيران حامية حقًّا، حتى إنّ وهجها قد صهد بشرتي وتوهج بريقها في بؤبؤ عيني.

ألقت الأميرة بنفسها نحوي مُحاولة أن تنتزع مني الأفكار الأساسية بعيدًا، بالطبع لم تكن سوى طفلة، لكنها طفلة غاضبة، ومتقلبة المزاج، وشرّيرة، ولكن بالرغم من كل شيء كانت أصغر مني بكثير وأضعف.

دفعتها بعيدًا عني ودرت حولها وجعلت ذراع ويل يتأبط كتفي، لففت إحدى يديَّ حول خصره وبالأخرى أمسكت الكرات.

ترنّحت الأميرة إلى الوراء ناحية ألسنة اللهب، كانت تستعر هي

الأخرى غضبًا، كانت تبكي وتصرخ، زمجرت ودكّت الأرض بقدميها المتسختين، كانت الكراهية تبرق في عينيها، وعندما أدركتْ ما كنتُ أخطط له لتسلق الأسوار جرت صوبي وهي تريد في اللحظة الأخيرة أن تتشبث بي مثلما فعلت قبل سنوات طويلة مع أحد أسلافي.

جاءت حركتها بعد فوات الأوان، ملّيمتر واحد فصل بينها وبين نهاية شعري، لم تتمكن من اللحاق بي.

أما أنا فقد قفزت إلى المكان الذي جئنا منه، وهرعت عبر الدخان والنيران والظلام واندفعت عبر التل المحترق وصولًا إلى جزيرة سترومساي.

وبقيت الأميرة ورائي عالقة في قصتها.

وصلنا أنا ويل والكرات الزجاجية إلى الدائرة الحجرية، وتمكنت من إنقاذ الأفكار، وبهذا سيعود عالم الكتب كما كان.

أما أنا ويل فلن نعود لما كنّا عليه، كان ما يزال لا يحرّك ساكنًا، وظلت الحفرة غائرة في صدره.

استلقيت إلى جانبه على العشب وأغلقت عيني، إلا أن نهرًا من الدموع انهمر منها تحت جفوني، تلامست كتفانا وتحسّست كفّ يده وشبكت أصابعي بأصابعه، ما زالت بشرة ويل دافئة، دافئة وحيّة، كان قد انزلق عليها قليل من الدماء، الآن أصبح بالفعل أكثر برودة ولم يعد قلبه يخفق.

في مكان ما، مدفون في أعماقي، كان ما يزال لدي بقية من أمل.

ففي نهاية المطاف ما حدث قد حدث في خيال الأدب وكان ويل

إنسانًا؛ ولهذا ساد لديَّ الاعتقاد المجنون بأن الموت في الكتب لم يكن حقيقيًّا وأن ويل سيعود سالمًا عندما يرجع إلى العالم الخارجي.

وما كان هذا الاعتقاد إلا وهمًا مني، لأن ويل قد مات حقًّا.

لقد ظل ميتًا حتى في الواقع.

أردت أن أبكي حتى يسكن بحر الدموع داخلي، فلم تكن بشرة ويل دافئة إلا لأنني دفأتها، رمشت فسقط نظري مصادفةً على شيء ما على الأرض بعيد بعض الشيء، إنها نسخة ويل من رواية بيتر بان، إنها قصّته المفضلة.

دون تفكير، وصلت إلى الكتاب ووضعته بمكان ما في المنتصف ثم مررته على وجهي، فامتصّت كلماته لاحقًا ضربات قلبي ومعي ويل الذي كنت ممسكة بيده.

هبطنا على سفينة ذات هيكل صدئ مهترئ، كانت هذه هي جولي روجر رمز الرعب في البحار؛ أي سفينة القبطان الشهير هوك.

القراصنة الذين وجدونا على الألواح المتسخة فهموا على الفور أن ثمة شيئًا خاطئًا، تجمّد المشهد، ثم تخلّوا عن تعابيرهم القاتمة ونسوا لوهلة غضبهم وتعطّشهم إلى الدماء، حتى إن هوك بنفسه خرج من مقصورته وانحنى على ويل، وبيده المعقوفة تحسّس الجرح، ثم أمسك بقبّعته الضخمة ذات الريشة وحنى رأسه، لم يقل شيئًا ولكنّ يده السليمة انزلقت لتربّت على كتفي، وساد الصمت المشترك بيننا.

بطريقة ما انتشر خبر وصولنا إلى الجزيرة وسرعان ما توافدت الشخصيات من كل أنحاء عوالم الكتب بصورة سريعة غير مسبوقة؛

لأن الجميع هنا يعرف ويل ويحبّه، تسلل الهنود إلى متن السفينة وتسلّق الأولاد الضائعون، كما بدأت حوريات البحر في الدوران حول درابزين السفينة، حتى شاهدنا أيضًا التمساح الموقوت الذي التهم يد هوك والساعة المنبّهة، فلقد دُفع الجسم المتقشر نحونا وترك المنبّه يرنّ داخل أمعائه، إلا أن ويل لم يستيقظ، حتى مع ظهور الطفلين المحبوبين جون ومايكل مع بيتر بان شخصيًّا وهم يطوفون مطلّين علينا من السماء.

بيتر بان، ذاك الفتى الذي لم يكبر، ثنى ركبتيه وجلس عليهما إلى جانب ويل ثم قال:

-ما الذي حدث له؟ ألم يأخذ حذره أم ماذا؟

بدت الكلمات فظة وبها نبرة غطرسة بعض الشيء حين ألقاها بطريقته المعهودة، إلا أنه بكى بينما كان يتحدث.

كل ما عرفته لاحقًا هو أنني حاولت إخبارهم بما حدث، إلا أن سردي للرواية لم يكن متماسكًا ومليئًا بالثغرات؛ لأنني ببساطة لم أستطع أن أشيح بناظريَّ عن عينَي ويل السماويتين.

ربما لهذا لم ألحظ أي شخص يقترب إلا من بعد أن هبط أحدهم على طرف أنف ويل وضغط بأذنه على شفتيه، إنها الجنّية تينكربيل التي كانت بحجم الكفّ، راحت تستمع إلى شفته السفلى ثم نثرت غبار الجنّيات على بشرته، نورها يومض وصوتها كان مثل قرع الأجراس عندما أوشكت أخيرًا على شرح ما نعرفه بالفعل جميعًا إذ قالت:

-إنه ميت.

أومأنا برؤوسنا وانتحبتْ ويندي، ودقّ التمساح تيك توك بحزن.

لكن تينكربيل لم تكن قد انتهت من حديثها بعد:

-لقد مات وانتهى الأمر، إلا أن نفحة الروح لا تزال في داخله، ولكن بها لا يكفي لعودته إلى الحياة، غير أنه...

جاءت وهمست بشيء في أذني، شعرت بقشعريرة، ولم أفكر ولو للحظة واحدة من بعد العرض الذي عرضته علي، بل أومأت برأسي موافقة.

وفي هذه اللحظة طارت تينكربيل باتجاه الجرح، وطارت داخل صدر ويل، وانغرزت داخل جلده، وعظامه، ولحمه، وعضلاته، وكل ما لامسته كان يتلألأ بغبار الجنيات الذي ما لبث أن تحول إلى سحابة متجمعة من الوهج الذهبي، وتمددت تلك السحابة حتى صارت تغطي جسده بالكامل، وانتشر الغبار بين شعره، واستقرّ في كل ثنية من ثنايا سترته حتى غسل الدم عنها.

وفي النهاية حطّت تينكربيل على رأسي، وضحكت ضحكتها الشبيهة بقرع الأجراس، وما أن انقشعت السحابة حتى حدث ما لم يحرّكه الأمل في داخلي، حدث منتهى المستحيل؛ أي حدث الشيء الذي لم يكن ليحدث إلا في عالم الكتب الخيالي، لقد اعتدل ويل جالسًا.

لقد تغير، كانت ذراعاه وساقاه أقل نحافة، ملامحه الآن خالية من العيوب تمامًا، وشعره كان أكثر بريقًا، وعيناه السماويتان تبرقان من أثر البقع الذهبية لغبار الجنيات، وكانت ملابسه تشبه ملابس الأولاد

الضائعين، ملابس مصنوعة من أوراق الشجر والجلود، فقد صار الآن واحدًا منهم.

أي أن ويل صار الآن أحد شخصيات الكتاب.

على الأقل هو حي يُرزق.

ارتميت بين ذراعيه، وانتحبت مرددة اسمه على عنقه بكثرة، وانهمر بحر من دموعي بينما كانت ذراعا ويل تتشبثان بي بشدة، وقال لي:

-وأنا أيضًا أحبّك... وأنا أيضًا أحبّك يا آيمي.

ثم قبَّلَني.

كان طويلًا وأهلًا للثقة وسيظل دائمًا كما هو.

سيظل ويل هو ويل، سيظل ويل الذي أعرفه.

بدأت حوريات البحر تتغنى، صاح بيتر بان مثل الديك، فجّر القراصنة المدافع كما أطلقوا طلقات الفرحة هباء في جو البحر.

وفي تلك اللحظة تعلّمت مع ويل كيف يطير الإنسان.

وبعد ظهر ذلك اليوم، جُبنا معًا نيفرلاند واستحممنا في البحيرة، ورقصنا في القرية الهندية، وطُفنا تحت النجوم.

ويل أصبح ينتمي إلى هنا الآن، إلى عالم الكُتب، في هذه الحكاية، ولاحظت كم يُعجبه الحال، فلقد أحب هذا الكتاب منذ نعومة أظفاره، لا يخل الأمر من الغرابة، إلا أنه مع ذلك كان نهائيًا، فما حدث هو أن تينكربيل جاءت بحياة جديدة إلى ويل، إلا أن السحر لا يسري إلا داخل عالم بيتر بان؛ ولذلك عليه أن يعيش هنا إلى الأبد، سيظل إلى

الأبد في السابعة عشرة من عمره، ولن يرى سترومساي مرة أخرى، لكنه يتنفس، ويطبع قبلاته على وجهي، ويتركني أغرق في بحر عينيه السماويتين، كما أنه بدأ يحارب هوك مع بيتر بان والآخرين.

باختصار، كان هذا هو الثمن الذي دفعناه بكل سرور.

لبضع ساعات تمكّنت من طرد الأفكار التي كان ينبغي أن تستمر معي الآن، فأنا بمنتهى البساطة رفضت أن أصحبها معي، لكي أتذكر أن هنالك عالم خارجيّ، وهنالك قصص أخرى.

وفي مرحلة ما، أخذ أحدهم يقلب الصفحات، مثله مثلي لا ينتمي إلى عالم بيتر بان.

إنه فيرتير.

امتطى ظهر وحش عملاق، لديه أرجل تشبه النقانق، وكان يبحث عني، ففي عالم الأدب ذاع الحديث حول ما جرى، وأتى لكي يساعدني فيما يجب عليَّ أن أفعله، ولكنني كنت إلى الآن أتجاهله متعمّدة.

وجدني في الكوخ على ضفة الشاطئ، إنه كوخ أعطانا إيّاه بيتر بان، كنا نتناول وجبة العشاء عندما اقتحم علينا المكان وضرب الباب بقدميه حتى تمزق جوربه الحريري.

قفزت من مكاني قائلة:

-فيرتير.

-آنسة آيمي.

بينما كان يلقي عليَّ التحية أراد أن يقبّل يدي إلا أنني أمسكته وطوّقته بقوة، فقال متلعثمًا:

-آهٍ! لقد سمعت ما حدث معك، أتسير معكِ الأمور على ما يُرام؟

فقلت:

-نعم على أتمّ وجه ممكن.

نهض ويل أيضًا وصافح فيرتير، ونظر كل منهما إلى الآخر، أدرك فيرتير ما أصبح عليه ويل، ثم قال بصوت واضح وبنبرة راقية للغاية:

-مرحبًا بك في عالم الكتُب.

ثم استدار نحوي مرة أخرى وسألني:

-هل صحيح أنك قد تمكنتِ من استعادة الأفكار؟

أومأت برأسي قائلة:

-نعم، إنها عند البوابة في العالم الخارجي.

نظر إليَّ وقال:

-هذا يعني أن الوقت قد حان لنُدخلكِ إلى قصصك، فلتأتي معي يا آنسة آيمي.

ثم سحبني من ذراعي، فأجبت نظرة ويل الصامتة قائلة:

-أراك فيها بعد.

وطبعت قبلتي على زاوية فمه.

بعد ذلك خرجت مع فيرتير لأجد وحش النقانق يجلس في سلام،

وهلّل حينما لمح قميص فيرتير الفضفاض.

قال لي فيرتير وهو مُحرج:

-اتضح لي أن الوحش يظن أنني أمّه.

ثم جذبني لنمتطي ظهر الوحش.

بعد ذلك تجوّلنا بالفعل عبر القصص، وأسقطني فيرتير في كتاب الأدغال، قفزت عائدة إلى عالم الواقع وجلبت الأفكار الأساسية لكل شيء، وأعدناها معًا في أماكنها التقليدية: الأرنب المتكلّم الخاص بأليس في بلاد العجائب، والنوم الطويل للجمال النائم، والإعصار إلى ساحر أوز، وزهرة الأمير الصغير، والصيف في حلم ليلة صيف، والتحوّل إلى حالة غريبة للدكتور جيكل والسيد هايد، والشر إلى مرتفعات ويذرينج، بالإضافة إلى الوحشين في ملحمة الأوديسة، إلا أن الصورة من رواية صورة دوريان غراي كانت غير قابلة للإعادة؛ وذلك لأن الأميرة مزقتها على الدائرة الحجرية، ولحسن الحظ، عرض السحرة من ماكبِث أن يرسموا نسخة مستعارة طبق الأصل، كانت أكثر بقليل من الرسم التخطيطي، وكانت بالكاد تشبه السحر الأسود في المسرحية، ومع ذلك نجحت أحداث القصة في أن تتكامل بعد فترة وجيزة، على نحوٍ قلّما يُلاحظ القارئ فيه أنّ الصورة الحقيقية مفقودة، وفي النهاية عاد كل شيء إلى سيرته الأولى، وكما ينبغي أن يكون عليه، فقط ظل ويل هو الوحيد الذي لم يعد إلى العالم الخارجي.

اشتاق إليه الجميع خاصة البالغون الذين لم يعودوا يستطيعون القفز في الكتب، اللورد والسيدة تحدثا عنه كثيرًا في الأسابيع التالية وقليلًا

عن عدائهما القديم، حزن والدا ويل حزنًا شديدًا ولكن عزاءهما الوحيد الآن يكمن في أن ابنهما سيعيش إلى الأبد في القصة التي عشقها كل العشق، أما أنا فقد رحت أتنقل بين الواقع الذي كان يمثل الأهمية الأقل بالنسبة إلي، وبين موطني الثاني الجديد: مملكة القصص وعالم الحكايات، وكنت أرتحل إلى ويل في نيفرلاند كل يوم تقريبًا.

حاولت ألا أفكر فيما قد يحدث خلال السنوات القادمة إذا ما فقدت موهبتي في القفز، لا أحد يمكنه أن يتكّهن متى سيحدث ذلك، ولكن في نهاية المطاف أنا نصف بشرية ونصف أدبية، فربما يمكنني القفز لفترة أطول مقارنة بالآخرين، وربما إلى الأبد.

ولكنني كنت أشعر أحيانًا بأنه سيأتي عليَّ اليوم الذي يجب أن أحسم فيه الأمر: أين أريد قضاء بقية حياتي، مع ويل في عالم الكلمات الخرافي حيث كل شيء وكل شخص يتبع إرادة الكُتَّاب غير المرئيين، أم دون ويل في العالم الحقيقي، حيث ما زال هناك وجود للكثير من الحكايات المثيرة لأن من يكتبها هم أناس على قيد الحياة؟

في نيفرلاند توجد تلال صخرية، لم تكن حتى بارتفاع مقعد شكسبير، والرياح هناك في الأعلى لم تكن سوى نسيم لطيف، أما السماء فلا تفارقها الزُرقة، مشمسة على الدوام، وبين الحين والآخر كنت أصعد إلى هناك مع ويل، وكنّا نُغلق أعيننا هناك وتتلاقى شفاهنا، ونتذكّر حينها تلك الليلة التي سرقت فيها الأميرة قصاصات قصّتها الخيالية.

آنذاك، حينها صار حبّنا مكتملًا وحقيقيًّا.

النسيم العليل كان يتحوّل أحيانًا إلى عاصفة تحملنا إلى أعلى أكثر فأكثر في تحدٍّ لجاذبية سحر الكلمات.

وقفت الأميرة على أعلى قمّة برج ونظرت بعيدًا إلى بحر النيران المترامي.

القصص الخيالية هي عالم غريب.

فما إن تنتهي... تقلب الصفحة ببساطة إلى الوراء وتغلق الكتاب، ثم يبدأ كل شيء من جديد.

في لحظة ما فقدت الأميرة كل شيء.

وفي اللحظة التالية قالت إنها متأكّدة من أنها قد رأت فارسًا آخر أتى لإنقاذها.

وهكذا لم تفارق الابتسامة وجهها بينما كانت تنتظر فارسها.



الكاتبة في سطور:

ولدت ميشتهيلد جليزر في صيف عام 1986 بمدينة إيسين في ألمانيا، ودرست السياسة والتاريخ والاقتصاد، وتعيش إلى الآن في ولاية شمال الراين فيستيفاليا، حيث تمارس بين الحين والآخر رقص البالية بطريقة مضحكة، ولكن فقط حين تكون بعيدةً عن أعين الناس. تحبّ التفكّر في القصص الغامضة، وقد بدأت بكتابتها في مرحلة مبكرة من حياتها، تجد الإلهام الأدبي في كل مكان وأي مكان، ولكنها تجده أفضل ما يكون مع فنجان الشاي بالنعناع.



ميشتهيلد جليزر

القفز في الكتب

«سيجد القارئ كلّ ما يسعى إليهِ من تشويقٍ وإثارة وحبٍّ وفكاهة، في هذا الكتاب الذي سيقودهُ إلى الغرقِ في عوالمِ الكتبِ، تمامًا كما حدثَ مع إيمي».

مجلّة بوكمارك

«ميشتهيلد جيلرز تتوهّجُ بأفكارها المغايرة... هذا الكتابُ عبارة عن لعبة ناريّة».

تانجا ليندلور

«نادرة هي الكتب التي تتركُ أثرًا في الإنسان وتفتحُ في داخلهِ أبوابا كثيرة لا تطلُّ إلّا على طفولتهِ وماضيهِ وأسرارهِ الدّفينة التي لا يمكنُ لأحدٍ أن يسبرَ أغوارها. في هذا الكتاب رحلة مختلفة لبطلةٍ تقرّرُ فجأة أن تقفزَ في الكتبِ فتتعثّر بكلّ ما خلناهُ اختفى من حياتنا ومضى مع طفولتنا. اعتبرت هذه الرّواية منذُ صدروها، حدثًا أدبيًّا فارقًا، ممّا جعلها تتصدّرُ إلى اليوم، قائمة أهمّ الكتب مبيعًا، ليس في ألمانيا فحسب، بل في دولٍ مختلفةٍ من العالم. عملٌ لا يمكنُ للقارئ أن يخرجَ من تفاصيلهِ بسهولة، ما دامت القراءة في هذه الرّواية عبارة عن غرقٍ وما دام الغرقُ في الكتبِ قفزٌ نحوَ ذواتنا وعودة إليها».


ISBN 978-603-91498-4-2

WWW.PAGE-7.COM

